آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي

الوجيز
في التشريع الإسلامي

الجزء العاشر

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء أجمعين، المصطفى محمد وآله الهداة المرضيين. وبعد:

اكتشاف سُبل التطبيق العصري للإسلام ليس بأقل أهمية من تذليل العقبات المادية التي تعترض ذلك التطبيق. ذلك لأن غياب الفقه الإسلامي عن ساحات العصر، والذي تم بعد أفول نجم حضارة المسلمين، سبب في فجوة عميقة بينه وبين متغيرات العصر مما اتخذه البعض تبريراً ظالماً لعدم السعي نحو تطبيقه.

ولكي نواجه هذا التبرير، ولكي نذلل السبيل لتطبيق قيم الدين التي تزداد حاجة البشرية إليها مع الأيام، كان علينا أن نساهم في عرض سبل تطوير مناهج الفقه التي تتيح لنا قراءة عصرية لمناهجه الغنية، التي فيها حلول كافية لمشاكل العصر، وفيها سبل لمواجهة تحديات العصر.

وهكذا وفقنا الله سبحانه بمنه وفضله لدراسة التشريع الإسلامي؛ مناهجه ومقاصده، وقد تم نشر الكتاب في تسعة أجزاء، وبقي علينا جزء أخير ليكون عاشر عشرة يتكفل بمنظومة فهارس الأجزاء السابقة مع عرض موجز لكل أفكار الأجزاء السابقة. وبالرغم من صعوبة تلخيص موسوعة كبيرة في مثل هذا الموجز، إلا أن الله سبحانه وفقنا له كما وفقنا لأصله. ونرجو أن يكون مفيداً للساحة الإسلامية اليوم، خصوصاً لدراسة المفكرين والباحثين، والله سبحانه أسأل أن يوفقنا لما فيه الخير والصلاح، إنه سميع الدعاء.

محمد تقي المدرسي
كربلاء المقدسة ١/ ربيع الثاني/ ١٤٢٤هـ

مناهج التشريع

تمهيد

مبادئ الدستور هي القيم والأصول العامة التي يستلهم منها المشرع أفكار الدستور، وهي روح القوانين التي تتفَّرعمن الدستور.

وعندما يقوم المشرع بوضع قوانين جديدة، فلا بدّ أن يعتمد على تلك الأصول لأنها تنفع القضاة عند اختلافهم فيتفسير نص قانوني.

وكذلك التشريع الإسلامي ينبعث من روح عامة وقيم سامية تسري في أحكامه وأنظمته. فما هي القيم السامية التي بيّنها القرآن الكريم للتشريع، وكيف نستفيد منها في فقه الشريعة؟

تلك القيم هي روح الدين ومقاصد الشريعة والأهداف التي تسعى لتحقيقها أحكام الإسلام. وهذا ما نسعى لدراسته في هذه الموسوعة، ولكن ثمة بحوثاً تمهيديّة لا بد منها قبل الغوص في غمار الموضوع.

من هنا عمدنا إلى بيان مناهج التشريع الإسلامي، ليكون مفيداً لمن يسعى للتفقه في الدين. وهو فيما يتصل ببقيةبحوث الموسوعة يعتبر بمثابة علم الأصول بالنسبة إلى الفقه.

العلاقة بين العقل والشرع

إنّ مفتاح هذا الباب معرفة العقل -حسب منطق الوحي- وتمييزه عمّا يسمّيه الآخرون عقلاً، وما هي إلا مناهج يخلط فيها الرأي بالقياس وبأهواء تُتبع وتقاليد تُرعى.

فمن أعانه اللَّه على نفسه فعرف عقله، وزكاه بنور الوحي، وقمع شهواته بروح الإيمان، واستعاذ باللَّه من وساوس الشيطان وهمزاته ولمزاته، فاتصل قلبُه عبر نور ولاية اللَّه وولاية أوليائه وعبر ضياء عبودية اللَّه الخالصة، اتّصل بالحقائق حتى شاهدها عين اليقين، إنه يرى -يؤمئذ- حقائق الدين، ويستنبط أحكامه من جوامع العلم التي يأخذها من نبع كتاب اللَّه الصافي ومن ضياء سنّة النّبي وأهل بيته، وبما أوتي من نور العقل.

أمّا من لم يزل في ظلمات الهوى والشهوات وتحيط به غشوات الغفلة والجهالات، فعليه أن يبتعد عن الفتيا. وإنّ من مصائبنا أننا بدل أن نفتش عن مناهج الدين في معرفة الأحكام الالهية، ترانا نخوض في غمرات الشك ونتسائل دائماً عن وظيفة الجاهل، كمن لا يعالج بصره حتى يرى الحقائق رأي العين، ويفتش دائماً عن عصى العميان. ولو بذلنا هذا الجهد الكبير الذي صرفناه لمعرفة وظائف الشاك، لو بذلناه لمعرفة سبل المعرفة لكفانا علماً وهدى

بلى؛ إنّ بلوغ حقائق الدين ليس بذلك العمل البسيط، لأنه بحاجةٍ إلى التسليم النفسي لأمر اللَّه حتى يتغلّب الإنسان على الكبر والغرور في نفسه، وكما أنه بحاجة إلى تزكية نفسه من رواسبها، ومن أغلال الشهوات، وآصار الطغاة.

ولعلّ تأكيد الوحي على التسليم للرسالة والرسول، والتصديق به، وتعزيره، ونصره، وعدم الإحساس بالحرج من قضائه؛ كل ذلك يأتي تمهيداً لتخلص النفس من الرواسب المادية، لكي تستعد لتلقي الحكمة الإلهية.

ومن الرواسب التي تتخلّص النفس حينئذ منها -بإذن اللَّه- غرور العلم بالمطلق، حيث ساق جهل الإنسان البدائي، وما أفرزه من فلسفةٍ ناشئةٍ في عهد

اليونـان الأقدمين، سـاقه إلـى أن يـزعم أنّـه قـادرٌ علـى الإحاطـة علمـاً بالكليـات ابتداءًمن خـالق السموات حتـى طبيعـة السموات، وجـوهر الموجـودات وطبيعـة الإنسان. لذلك تراه تخبّطَ في أكثر الموضوعاتخبط عشواء، وتكلّفَ علومـاً لـم يملك شيئاً من أدواتهـا، كعلم الفضـاء حيث اعتقد بـأنّ للسموات روحـاً وأنّهـا عقـولٌ مجردةومـا أشـبه، وهـذا الغـرور الناشـئ مـن الجهـل جعلـه يعـيش حالـة الجهل المركّب.

وكان أثر هذه الحالة في مجال المعارف فجيعاً، إذ تراه يبحث فيها عن نـوعٍ مـن اليقـين لا يوجـد إلاّ فـي الرياضـيّات،ولأن هـذا اليقـين لـم يكـن يحصـل لـه بالبحث التجريبي والدراسة الميدانية، والسبل العقلائيـة للمعرفـة، كفر بجدوائيـة هذهالأبواب الطبيعية للمعرفـة، وصـنع لنفسـه هرمـاً مـن الأقيسـة الرياضـيّة لعلّـه يقف عليها وينظر من قمتهـا إلـى حقائقالأشياء. وكـان مصـيره بالتـالي الجهـل العميم الذي يقول عنه الإمام علّيعليه السلام: (من ادّعى من العمل غايتـه، فقد أظهرمن الجهل نهايته)[1].

ومن هنـا ينبغـي التـخلص مـن غرور الجهل والإعتـراف بحـدود النفس فـي مجال المعرفة، لأنه كما يقول أمير المؤمنينعليه السلام:

(غاية العقل الإعتراف بالجهل)[2].

وكما أن الكمال المطلق لا يوجد في المخلوق، كذلك العلم المطلق، حيث لا يعلم الغيب إلاّ اللّه؛ حيث يقول ربّنا لرسولهالأكرم: ﴿**وقُل ربِّ زِدني علما**﴾.

والذين يدّعون العلم المطلق يخلطـون بين العلم والجهل، ويضـلون السبيل، بينمـا الـذين يعرفـون قـدر أنفسـهم يضـعونحـدّاً واضـحاً بـين مـا يعلمـون ومـا يجهلون.

١- الحياة، ج١، ص٦٦.
٢- المصدر.

ولعل مراد الدين منا، هو تزويدنا بفرقانٍ نعرف به الحقّ والباطل، ونميّز بين ضياء العقل ووساوس النفس. ولذلكأمرنا باتّباع العقل حتى في معرفة الدين وأحكامه، بينما نهانا عن اتباع الرأي واستخدام القياس، وحذّرنا من القولبغير علمٍ والإفتراء على اللَّه.

ما هو العقل؟

ماذا يهديك إلى النور، أليس النور ذاته؟ كذلك عقلك يهديك إلى ذاته، وهل يبصر أحدنا عينه بغير عينه؟فيجب-إذاً- ان لا نبحث في الظلمات عن النور، لأنّنا لن نجده هنالك، بل سوف نزداد عنه ضلالاً.

كذلك ضلَّ أكثر الناس عن العقول، فلم ينتفعوا بهذه الموهبة الإلهية إلاّ قليلاً. وترى بعضهم ينكر عقله أساساً،ويحتجُّ على إنكاره ببعض الحجج، ولا يدري أنّ احتجاجه ذاته دليله إلى عقله. وكيف يتسنىّ لمن لا عقل له أنْ يحتجّعلى شيء بشيء؟

فالعقل يكشف ذاته بذاته، ولا يحتاج أحدنا إلاّ إلى التذكرة به، واستثارته كالمصباح الذي رانت عليه الأوساخ يكفيك أنْ تنظّفه لتراه ثم ترى الأشياء به.

ومما لا ريب فيه، أن العقل موهبة عظيمة، وغفلة الإنسان عنها هي المسؤولة عن ضلاله وجهله، كما لو سدّ الإنسان نافذته عن الشمس، أو سد عينه، أفيرى شيئاً؟!

وهكذا تكون الثقة بالعقل مفتاح المعارف، لأنّ مَنْ يشكّ في عقله يغفل عنه، ويهمل الانتفاع به.

والثقة بالعقل، تعني اكتشاف الإنسان لذاته، لأنّ عقل الإنسان أعظم ما فيه، وهو يرفد كل كمال وجمال. والمنهجالسليم لاعادة الثقة بالعقل بعد التذكرة به، التعرُّف على الحقائق التي لا تحصى التي تعرَّفنا عليها بالعقل، وقياس أنفسنا

بمن لا عقل له، وقياس ذوي العقول بغيرهم؛ وقياس حالاتنا المختلفة ببعضها لنعرف مدى الفرق بين حالتي التعقل والجهالة، وكذلك بين حالتي العلم والجهل، أليس من يعيش في صحراء مضاءة بنور الشمس لا ظل فيها ولا ظلام، قديغفل عن مصدر النور، ويظن أن النور حالة طبيعية في ذرات التراب، فإذا غابت الشمس هنالك يعرف قيمة الشمس؟

وحين نتدبَّر في القرآن والسنَّة نجد أنّ هذا هو المنهج الذي اتّبع فيهما، سواءً في التذكرة بالعقل أو بتنمية ثقة الإنسانبه.

والوحي إثارة للعقل وتذكرة به، وقد خلقه اللَّه من نورٍ مخزونٍ مكنونٍ عنده فأكرمه وحّمله المسؤولية، حين قال له:(بك أُثيب وبك أُعاقب).

وقد فصّل قادة الإسلام القول في العقل، كما فعل الإمام الكاظمعليه السلام في وصيته الحكيمة لهشام بن الحكم حيث بيّنفيها دوره في تلقّي الحقائق من الوحي، وبيّن كيف أنّه يكتمل بالعلم والخُلُق الفاضل، وأنّه حجة اللَّه ورسوله في الباطن،وأنّه لا يختلف عن الوحي شيئاً[1].

العقل في المصطلح البشري

لأن الفلاسفة تكلّفوا علم الكيف وتساءلوا: كيف يعقل الإنسان الحقائق؟ وتكلّفوا علم الذات وتساءلوا: ما هو ذاتالعقل؟ فإنهم تصوّروا العقل سلسلة معقولات وحُجبوا عن معرفة ذلك النور الذي يكشفها، لأنه أساساً لم يكن ليعرفبغيره، ولأنه أعلى وأسمى من أن يعرف ذاته أو يحاط علماً بكيفياته..

وهكذا وقع الفلاسفة في ضلالٍ عظيم حيث زعموا أن العقل هو تلك الأحكام المسبقة الضرورية والبديهية كقانونالعلية وقانون امتناع التناقض،وما أشبه. وهذه البديهيات ليست سوى حقائق يكشفها العقل كما يكشف غيرها

١- للاطلاع على نص وصية الإمام الكاظمعليه السلام راجع الجزء الأول من هذه الموسوعة (التشريع الإسلامي،مناهجه ومقاصده)، ص٢٠-٣٥.

منالحقائق الكثيرة؛ بل لو لم يكُن العقل مع الإنسان في كل خطوة من خطواتـه، وكل مرحلة من مراحل حياته، لكانتالدنيا عليه مظلمة ولما عرف شيئاً.

العقل يهدي إلى الشرع

إن للعقل ثلاثَ مهام فيما يتّصل بالوحي:

١- تصديق الوحي.

مَنْ أنا؟ مـا هو دوري؟ ولمـاذا خُلقت؟ وهل الرب الذي تتجلى حكمتـه فـي تنظيم خلايا بنـاني بذات الدقة التي تتجلىفي تنظيم تجمعات المجرات العملاقة.. هل الحكيم خلقني عبثاً..؟ كلا..

هنالك يهتزّ القلب لحقيقة المسؤولية، ويبصر-بنـور العقل- أبعادهـا وآفاقهـا.. ويقول بلا ريب وتردّد:

سبحانك اللّهم أَعِنِّي على نفسي.. إهدني سبيلي وعرّفني الهدف الذي خلقتني له، ووفقني لأداء أمانتك عندي، وَقِنِيعذاب النار.

كانت تلك رحلـة العاقل من عمق صـحراء الشك إلـى ذروة حقيقـة الإيمـان وعنها يقول ربّنا سبحانه: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَـارِ لاَيَـاتٍ لاَُوْلِـي الأَلْبَـابِ * الَّـذِينَ يَـذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامـاً وَقُعُـوداً وَعَلَـى جُنُـوبِهِمْ وَيَتَفَكَّـرُونَ فِـي خَلْـقِ السَّـماوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَـا مَـا خَلَقْـتَ هـذَا بَـاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَـهُ وَمَـا لِلْظَّـالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ**﴾(آل عمران/١٩٠-١٩٢).

وتتموَّج المعارف في ذلك القلب المغمور بنور العقل كما تتموّج المحيطـات عند أعتى الأعاصير.

هنالـك يعـرف العقـل حقيقـة الرسـالة التـي هـي تجلّيـات الحكمـة الإلهيـة فـي ضـمير الإنسـان.. يعـرف أن تلـك القيم التـييدركها عقلـه، ويـدرك أنهـا تتصـل

بضمير الكائنات، وبغيب الحياة، وروح الخلائق، إنها تفيض من غيب الربوبية، ومنوراء حجب ملكوته الأعلى..

٢- فقه الأحكام.

بالتفقُّه في الدين والتدبُّر في آيات الكتاب، يعرف العقل البشري الأصول العامة للشرائع الإلهية ومن خلالها يتدرَّجنحو معرفة سائر الأحكام.

إنك حين تتدبَّر في آيات الكتاب لا تجد حكماً شرعيّاً إلا وقد بيّنت حكمته التي يسوقها القرآن الكريم عبر مثلٍ أوقصّةٍ أو أمثولة. وتتكرّر معها عادةً كلمات: "من أجل ذلك"، أو "كذلك"، أو "لكي لا"، أو ما أشبه.

القرآن الحكيم، كتاب حكمة كما هو كتاب شريعة، بل قبل أن يكون كتاب شريعة. وقد قال سبحانه: ﴿**ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً ءَاخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَّدْحُوراً**﴾(الاسراء-٣٩).

وقد سمّى ربُّنا كتابه الكريم بأنه تذكرة وتبصرة ونور وهدى وضياء وشفاء وما إلى ذلك مما يتناسب وحكمةالشرائع وتفقه روحها وبلوغ مرامها وقيمها.

٣- معرفة مصاديقه.

إذا كان الإنسان في مستوى تلقي حِكَم الشريعة، وتنمية مواهبه الفطرية بها، حتى تصبح تلك الحِكَم واضحةً عنده يعرفها كما يعرف المرء ابنه، عندئذ يستطيع أن يستفيد أمرين:

الأول: الرجوع الى القيم لمعرفة الحكم الأولى والأهم والتزاحم وهو ما نتحدث عنه في مناسبة أخرى إن شاء الله.

الثاني: فمن عرف حِكمَ الأمن والحرية والعدالة، فإذا أضرّ عملٌ بأمن الناس، أو سَلَبَهُمْ حريتهم أو كان فيه ظلمٌظاهرٌ أو خفيّ فإنه يصبح حراماً كما أنه لو توقف تحقيق هذه الحِكم على عمل معين أضحى واجباً.

وبالرغم من أن الشريعة قد أوضحت الأحكام الفرعية التي تحقِّق هذه الحِكَم بصورةٍ كافيةٍ، إلا أن تلك الأحكامالفرعية تتصل بالثوابت، وهي بحاجة إلى الإستنباط.

الشرع يكمل العقل

أليس أصل الإنسان عقله، أَوَلَسْناَ نهتدي إلى آيات ربنا بنور العقل، ونعرف رسله ورسالاته به، فلماذا الوحي؟ وماهي ضرورته؟

لقد أودع اللَّه في البشر نور العقل ولكنَّ الإنسان غفل عنه وخاض في غمرات الشهوة والغضب، وضلّ عن ربِّهضلالاً بعيداً. لذلك لم يؤدِّ إلى ربّه ميثاقه، ولم ينتفع بفطرته التي فطره اللَّه عليها، ولم يهتد بضياء عقله في دروب الحياةالحالكة.. ألست ترى في العالم هذا الظلم الفاحش والجهل المطبق والضلال المبين؟ مَنْ منّا لا يعترف أنّ نسبة الجهلوالجهالة والضلالة والغواية في البشرية تفوق نسبة العلم والحكمة؟

إن جذر ضلالة الإنسان وغوايته، يكون بثلاثة عوامل:

١- غفلته عن عقله، أو سبات عقله، وعلاجُه إيقاظُ العقل.

٢- غلبة الهوى وإتباعه، وعلاجُه تنمية الإرادة، وزيادة الإيمان.

٣- الضلال عن سُبُل الانتفاع بالعقل، وعلاجُهُ التذكرةُ بالمناهج القويمة للتفكر.

الأحكام العقلية

يستخدم علماء الأصول كلمة (القطع) في موضع الحديث عن العلم والمعرفة واليقين، وهذه الكلمة ذاتإيحاء فلسفيّ باعتبار تواصل علم الأصول والفلسفة في العصور المتأخرة.

وهذه الكلمة غريبة عن الأدب القرآني، ولكنها مناسبة للمنهج الفلسفي القائم على أساس الجدال وإسكات الخصموقطع الحديث وحسمه معه.

وفي موضعٍ آخر من هذا البحث نتحدث بإذن اللَّه عن بعض الملاحظات على المنهج الفلسفي ولكنّا هنا نجري علىالمصطلح الاصولي ونقول: يرى الفقهاء-قدّس اللَّه أرواحهم- أن حجية القطع ذاتية، ولا مجال للمناقشة فيها، وهيأصل كل حجةٍ أخُرى.

ولكي نثير ركام الأفكار التي تجمعت في هذا الحقل الشائك، لنبلغ الحقائق الدفينة، لا بدّ أن نطرح التساؤلاتالمتدرجة التي تشابكت مع بعضها، وربما طرحت بصورة غير مرتبة؛ والتساؤلات هي:

أولاً: هل العقل يجب اتّباعه بعيداً عن حكم الشريعة، حتى إذا حكم بشيء وجب الانصياع له دون أن نسأل عنحكم الشرع فيه؟

ثانياً: وإذا حكم العقل بشيء فهل الشريعة تحكم به أيضاً، حتى تصدق المقولة المعروفة: ما حكم به العقل حكم بهالشرع؟

ثالثاً: والمناهج العقلية المتبعة في القضايا الفلسفية، مثل أقيسة المنطق الأرسطي، هل هي مناهج مناسبة ومأمونةللتعرّف على الأحكام الإلهية؟

رابعاً: وإذا توصّلنا إلى حكمٍ شرعي عبر هذه الأقيسة أو عبر الجفر والرمل والسبل غير المتعارفة، فهل يجب شرعاًالتعبّد به فيما إذا وصلت قناعتنا به إلى درجة القطع واليقين؟

يبدو لي أن خلط هذه الأسئلة ببعضها جعل الحديث مشوشاً حتى وكأن البحث في مواضيع مختلفة. مثلاً يقولالمحدث[1]: لا يمكن حصول القطع عبر المناهج العقلية المعروفة. فيجيبه الأصولي: فإذا افترضنا وحصل القطع ماذا نفعل؟إنك ترى أن الحديث لا يجري في موضوع واحد، بل في موضوعين مختلفين، وقد أشار إلى ذلك الشيخ الآخوند فيالكفاية، حيث قال: (وأما في مقام

١- نقصد به المتبع للطريقة الاخبارية.

عدم جواز الاعتماد على المقدمات العقلية لأنها لا تفيد إلاّ الظن كما هو صريح الشيخ المحدث الأمين الاستر آبادي رحمه الله)[1].

وأنّى كان فإنّ علاقة العقل بالشرع قضية في غاية الخطورة، وقد تشعَّبت الأحاديث حولها إلى علوم كثيرة، ابتداءً من الفلسفة، وانتهاءً بعلم الأخلاق، ومروراً بالكلام والأصول والفقه.

وكانت هذه العلاقة محور الخلاف الرئيسي بين مختلف المذاهب الإسلامية؛ فبين من يلغي أساساً دور العقل كالظاهرية والصوفية، وبين من يعطيه دوراً محدوداً مثل الأشاعرة، وبين من يفسح المجال له كاملاً كما فعل المعتزلة.

بينما نعتقد أن أئمة أهل البيت عليهم السلام عرَّفوا العقل بأنه النور الإلهي الذي أودعه الله القلب، وميّزوه تماماً عن الأهواء والوساوس والظنون، ثم أعطوه دوراً كبيراً في معرفة الحقائق الشرعية وغيرها.

بحوث في الكتاب والسنة

إن على الفقيه الذي هذّب نفسه وزكّاها أن يستثير عقله حتى يستخرج دفائنه (وبالسبل التي ذكّر بها أئمة الهدى عليهم السلام)، وأن يستنطق كتاب الله ويتلوه حق تلاوته ويتدبر في آياته، وأن يجتهد في دراية الأحاديث، وفهم أبعادها ومعاريضها ومعرفة بعضها ببعض. كل ذلك من أجل أن يبلغ أصول العلم، وضياء الأمر، ونور الحِكَم الإلهية، وروح التعاليم وقيمها.. فإذا ورد عليه فرع سهل عليه إرجاعه إلى أصله، وإذا اختلفت عليه النصوص أرجع متشابهها إلى محكمها، لأنه يصبح -بفضل الله وبما وفقه من استثارة العقل والتدبر في الكتاب والسنة- من الراسخين في العلم الذين يعرفون أحكام الله

١- راجع كفاية الأصول، مباحث حجية مطلق القطع.

الثابتة، كما يستنبطون حِكَم الحوادث الواقعة ويعلمون أيضا تأويل آيات اللَّه المتشابهة.

وإذا بلغ الفقيه هذا المستوى، ثم اشتبه عليه حكم، يرجع إلى الأصول العملية التي تحدد حكم الشاك.. من البراءة أوالإشتغال أو التخيير أو القرعة في بعض الأمور، ولا ينبغي للفقيه ان يبادر بتطبيق الأصول التي وضعت لحالة الشك، إلابعد استفراغ الجهد في التعرف على أحكام اللَّه الأولية بالعقل والكتاب والسنة. ويبدو أن البعض يستعجل في ذلك، ولايبحث عن الأحكام اليقينية التي تطمئن إليها النفس بالقدر الكافي، ويتسرع في القول بانه لا يحصل عنده يقين، حتى أنبعضهم يصرف الوقت في تحديد حكم الشاك، والتنقيب عن الأدلة القياسية في التعرف على الأصول أكثر مما يصرفه فيالتدبر في القرآن ودراية السنة.

عن الكتاب

(فضل القرآن على سائر الكلام كفضل اللَّه على خلقه)[1]. بهذه الكلمة الرائعة عبّر قادة الإسلام عن مقامالقرآن الذي هو محور الأمة، والمصدر الوحيد لتشريعهم وثقافتهم وصبغة حياتهم. إنه الرسالة التي تهيمن على سائررسالات اللَّه، وهو حبل اللَّه المتين المتصل بين السماء والأرض. إنه الثقل الأكبر الذي خلَّفه الرسول في أمته، فقالصلى الله عليه وآله وسلم:(إني تارك فيكم الثقلين، ما إن تمسكتم بهما لن تضّلوا: كتاب اللَّه، وعترتي أهل بيتي)[2]. ولم يختلفالمسلمون في عظمة القرآن، وأنه مصدر النور في حياتهم، ولكنهم اختلفوا في منهج الاستفادة منه. فمنهم من حدّد المنهجفي بضع أمور هامشية،

١- بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ١٩.
٢- المصدر، ج٢، ص ١٠٠.

ومنهم من لم يحدد أساساً منهجاً للتعلم منه. وبين الفريقين المتطرفين يمنة ويساراً مذاهب شتى.

وتبعاً لذلك اختلفت المذاهب وتناقضت الآراء على أصعدةٍ شتى وبعوامل مختلفة في الثقافة والأدب، في الفقهوالتشريع، في السياسة والاقتصاد.. فإذا كلّ فريق يختار من آيات الذكر ما يتناسب في زعمه مع مذهبه بعد تأويلهاحسب هواه. ولوجود آيات متشابهة في القرآن تسمو على فهم أغلب الناس، فقد درج أصحاب المذاهب لتأويلهاحسب افكارهم.. ولقد حذر القرآن الحكيم من ذلك، وقال: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَآءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ**﴾(آل عمران-٧).

ولما اشتدت حاجة المسلمين إلى معرفة أحكام الحوادث المستجدة لتطوّر الحياة، نشأت مجاميع من المتفقهين فيالدين الذين أخذوا يفسرون آيات القرآن بغير علم ودون أن يميزّوا الناسخ من المنسوخ، والعام من الخاص،والفريضة من المندوب،والحرام من المكروه، فعملوا بالقياس واستعملوا الرأي ونبذوا كتاب اللَّه وسّنة رسوله وهدىأوصيائه وراء ظهورهم.

بينما هناك فريق أخذوا العلم من مصادره، وزكوا أنفسهم من حب الرئاسة واتباع الهوى، وسلموا للَّه ولرسولهولأولي الأمر من أوصيائهعليهم السلام حتى زهر مصباح الهدى في أنفسهم، وأصبحوا من أهل الذكر وفتح اللَّه عقولهم بكثرةنظرهم في علمه. وهؤلاء أودع اللَّه قلوبهم علمه وعلم أوليائه، وجعلهم ورثة أنبيائه وحجج اللَّه بعد الأئمة المعصومين،وهم بعض فقهاء الشيعة من أصحاب الأئمة.

هؤلاء عرفوا ما ينبغي معرفته ليصبحوا أهلاً للفتوى واستنباط الأحكام من الوحي، فأمرهم أئمة الهدى بأنْ يفهموامن القرآن أحكام الدين.

عن السنة

منذ بزوغ فجر الرسالة وإلى الآن كانت السنّة الشريفة مصدراً أساسيَّاً للتشريع، وينبوعاً مباركاً للمعارف القرآنية،وقد قال ربنا سبحانه عن الرسولصلى الله عليه وآله وسلم: ﴿يَآ أَيُّهَا النَّبِيُّ اِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً اِلَى اللَّهِ بِاِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً﴾(الاحزَاب/٤٥-٤٦).

أَوَليس السراج المنير يشعّ ضياءً في كل أُفق؟

أو لم يقل ربّنا سبحانه: ﴿مَآ أَفَآءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الاَغْنِيَآءِ مِنكُمْ وَمَآ ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(الحشر/٧) ؟

وبهذا اقترنت السنّة بالكتاب سبيلاً للمعرفة، وحجةً من اللَّه في الأحكام الشرعية.

ثم اقترنت سنّة رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم بما روى عنه أهل بيتهعليهم السلام من العلم، حينما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (إني تارك فيكمالثقلين: كتاب اللَّه وعترتي أهل بيتي).

وبما استخلف علياًعليه السلام من بعده، فقال له: (أنت مني بمنزله هارون من موسى)[1].

وأدّبه كما أدّبه اللَّه، وأوكل إليه أمر تأديب أمته، وحمَّله علمه وهداه، حتى قال الإمامعليه السلام : (علّمني رسول اللَّهألف باب من العلم، ينفتح لي من كل

١- بحار الأنوار، ج٣٧، ص٢٦٣.

بـاب ألـف بـاب).[1] وتـوارث أئمـة أهـل البيـت هـذا النـور كـابراً عـن كـابر، حتىقالوا: (إنا لو كنـا نحدثكم برأينـا و هوانـا لكنـا من الهـالكين ، ولكنـا نحدثكم بأحاديث نكنزهـا عن رسول الله صـلى الله عليـه و الـه كمـا يكنـز هؤلاء ذهبهم وفضتهم)[2].

وهكذا تكاملت حلقات السلسلة الذهبيـة للسنّة الشريفة، التـي فسرّت القرآن وأدّبت الأمـة، ونشرت معـارفالدين، وأصـدرت فتـاوى فـي الحـوادث الواقعـة معتمدة على نور اللَّه المبين.

ولكن عظمـة السنّة وشـرفها ودورهـا الحاسم فـي حيـاة الأمـة لـم تَحُـل دون اختلافهم فيها. فمـا هـي السنة؟ ولمـاذا اختلفتروايـاتهـا؟ ولمـاذا تناسـخت؟ وهل كلهـا أحكـام تستمر، أم فيهـا مـا تختص بزمانهـا؟ وكيـف إذا تـراءى خلافهـا مـع ظاهرالكتاب؟

ومن هنا فإن من أهم الأمور التي اشتغل بها فقهاء الإسلام من كل المذاهب والفرق هو البحث حولالسنّة، وانتخـاب الروايـات التـي فيهـا، وإخراجهـا مـن حيث السند، وتفسيرها من الغموض، ورد متشـابهها إلـى محكمها،وعامهـا إلـى خاصـها، ومطلقها إلى مقيّدها، واختيار المفضَّل منها لدى التعارض.

مناهج الإجتهاد

كيف نعمل لكي لا نخطأ في الإستنباط؟

مـن خـلال البصـائر التـي مـرت بنـا فيمـا مضـى، عرفنـا بعضـاً مـن شـروط الإستنباط ومناهجه. وما هذا البحث إلا تكميلاً أو بلورة لهـا، ونسميه بالمنـاهج. والمنـاهج هذه نوعـان؛ الأول: مـا يتصـل بكل بحـث، ونسميه بالمنـاهج العامـة. والثاني: مايختص بالفقه، ونسميه بالمناهج الخاصة.

١- بحار الأنوار، ج٢٢، ص٥١١.
٢- بحار الأنوار، ج٢، ص١٧٢.

وقد جمعت كثيراً من الأفكار حول مناهج البحث في كتابي (المنطق الإسلامي)، ولا أظن أن لي أفكاراًكثيرة لأضيفها عليه. لذلك عمدت إليه فاختصرت بعض ما يتناسب وبحوثنا هذه، ومن أحب التفصيل يمكنه الرجوع إلى ذلك الكتاب.

أما في المناهج الخاصة بإستنباط الفقه، فقد أشرت إلى ما تبادر إلى ذهني من أفكار جديدة، وبالذات فيما يرتبط بضرورة معرفة متغيرات الزمان في استنباط أحكامها، وكذلك فيما يتصل بصفات الفقيه الذي يجوز له استنباط الحكم.

المناهج العامة

إذا استيقظ العقل، اكتشف مناهجه وعرف بنوره الإلهي كيف يسلكها إلى المعرفة، وكما انه يكشف -أيضاً- الأخطاءالتي قد يقع فيها، ويعرف كيف يتجنبها؛ وإنما نذكّر بها هنا لسببين:

أولاً: لكي نذكِّر العقل بذاته وننميه بتحذيره عن عوامل الخطأ، أليس الشيء يعرف بضده؟ كذلك العقل يعرف عندمانعرف ضده الجهل ونتحذر منه.

ثانياً: لان العقل يزداد ويتكامل بالتجارب، وكلما وعى الإنسان تجارب غيره في منهجية إستنباط الحقائق وكشفهاإكتمل نضجه، ولذلك كان أعقل الناس من جمع عقول الناس إلى عقله. وهذه العوامل التي نذكرها إنما اجتمعت نتيجةتجارب الآخرين أو تذكرة الشرع.

وقد قسمنا هذه المناهج إلى ثلاثة مباحث تدور جميعها حول عوامل الخطأ التي لابد أن نتحذر منها: الأول عنالعوامل النفسية، والثاني عن العوامل المادية، والثالث عن العوامل المنهجية.

وهناك عوامل أخرى للخطأ أعرضنا عنها، مثل عامل الوراثة والتربية والبيئة والإقتصاد وما أشبه، لأنها جميعاًتعود إلى عامل الهوى، وقد فصلنا الحديث في كل ذلك في كتاب (المنطق الإسلامي).

المناهج الخاصة

بعد بيان أهمية معرفة العلوم القرآنية، ودورها في استنباط الحكم الشرعي، نبين -بحول الله- ضرورة معرفةمتغيرات الزمان التي تتصل بالحكم الشرعي وبالذات في الحوادث الواقعة، ثم نعرج إلى الحديث عن صفات الفقيهالذي يجوز له استنباط الحكم الشرعي، وهكذا سوف نستعرض حقائق هذا الباب ضمن ثلاثة بحوث:

١/ معرفة العلوم القرآنية

من خصائص الحكم العقلي، وضوحه وتعاليه عن الريب وما يبعثه في النفس من سكينة ويقين، وأنه لا يختلف معسائر الأحكام العقلية، ولا يتناقض مع ذاته في الظروف المختلفة، ولا يختلف العقلاء فيه أنى تعددت مشاربهموإنتماءاتهم. ولا يبلغ العقل مثل هذه الأحكام-عادة-إلا بعد الإحاطة علماً بكل المواد الضرورية للحكم..

فمن اراد استنباط حكم شرعي من القرآن الكريم يحكم عقله بأن عليه أن يؤتى أولاً علم القرآن.

وعلم القرآن يستدعي علم ناسخه ومنسوخه، عامه وخاصه، محكمه ومتشابهه، وذلك يتم بدراسته والتدبر فيه، كمايتم بمراجعة السنة المباركة التي هي تفسيره.. من كلمات الرسولصلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيتهعليهم السلام.

٢- معرفة الحوادث الواقعة

ومعرفة الزمان والعرف والضرورات والحاجات، هي محتوى الفتاوى التي تتصل بالحوادث الواقعة. ولذلك يحكمالعقل بلزوم الإحاطة علما بها قبل إصدار أي فتوى، لأن الفتوى هي الحكم الجزئي الذي يتركب من أمرين؛ الأول:مصادر التشريع، الثاني: تحديد الموضوع. ولا يمكن تحديد الموضوع من دون معرفة المتغيرات، ببديهة الوجدان،وشهادة العقل، وحكم الوحي الذي

أمرنا بأن نحكم بالعرف في قوله سبحانه: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾(الاعراف/١٩٩).

كما أمرنا باستخراج الحكم من القرآن فقال سبحانه: ﴿**وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾(النساء/٨٣).

وواضح إن مثل هذه الأمور من شؤون السياسة والحرب ذات علاقة بالمتغيرات التي يحتاج علمها إلى العلم بالزمانوالمكان والخصوصيات التي فيهما.

ثم إن حقائق الشريعة، ثابتة ومتطورة، وقد ذَكَّر الوحي بالقسم الأول منها فعرفه الناس بنور عقولهم، واهتدوا إليهبحقائق إيمانهم. بينما أمر في القسم المتطور بالرجوع إلى أهل الذكر يستنبطونه من القسم الأول، ووضع لذلك شرعةومنهجاً.

٣- صفات الفقيه

هل يستطيع كل مدع أن يبلغ مستوى تلقي أحكام الشريعة؟ كلا؛ لأن نور الوحي -تماماً- كنور العقل، موهبة إلهيةلا يتلقاها إلا القلب الشهيد، والأذن الواعية، والنفس الزكية، والروح النقية.

وقد بين اللَّه سبحانه شروط العلماء الذين يحق لهم حكم المسلمين بكتاب اللَّه (التوراة) فقال سبحانه: ﴿**إِنَّآ أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِايَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَن لَمْ يَحْكُم بِمَآ أَنْزَلَ اللّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**﴾(المائدة/٤٤).

فهناك أربعة شروط نستوحيها من هذه الآية الكريمة؛ معرفة كتاب اللَّه والشهادة عليه، وخشية اللَّه دون الناس،ومقاومة إغراءات المادة أو الزهد في ثروات المترفين، وتحدي ضغوط الطغاة.

ويبدو من آية كريمة أن الفقيه ليس سوى العالم باللَّه، المتبتل إليه. قال ربنا سبحانه: ﴿**أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَآئِماً يَحْذَرُ الاَخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَيَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُواْ الاَلْبَابِ**﴾(الزُّمر/٩).

ويبقى العالم في حصن اللَّه ما لم يتبع هواه، فإذا اتبع هواه انسلخ عنه، وكان ﴿**فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ**﴾(الاعراف/١٧٦) أو﴿**كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً**﴾(الجُمُعَة/٥).

الامارات أو المناهج العرفية

إن العقل يحكم بأن الشرع المقدس يعتمد في إبلاغ أحكامه على السبل العقلائية، لأن تلك السبل مما يعتبر سبيلا-عند العقل- إلى المرادات.. ونصوص العمل بالعرف والمعروف، وأوامر التعقل والتذكر، والتيقن في الأمور، وما أشبه،شواهد على هذه الحقيقة.

ومن أهم سبل فقه الأحكام الأمارات المعتبرة شرعاً، مثل ظواهر الكلام والبينة وخبر الثقة وإخبار ذي اليد وسوق المسلمين وما أشبه، وهي حجة عند غياب العلم اليقين، وإنما كان حجة لأنها تورث الثقة عند العقلاء وهي سبلعرفية وعقلائية إلى الحقائق (وبالذات الموضوعات). أما إذا لم تكن كذلك، فلم تورث الاطمئنان عندالعقلاء لسبب أو لآخر، فالاعتماد عليها مشكل.

الفصل الثاني

حكمة التشريع

تمهيد

من أي محطة ينطلق قطار التقدم نحو المستقبل الأفضل؟

من أي أفق تشرق شمس النهضة الشاملة، فتعم العالم ضياء ودفئاً وأملاً؟

ومتى تشهد بلادنا مواسم الغيث والخصب والرفاه، وتنعم شعوبنا بالعيش الرغد والسعادة الهنيئة؟

أما آن لشفاه أطفالنا أن تستقبل بسمات الأمل؟ ألم يأن ميعاد رحيل الفقر والقلق والتخلف عن بلاد الشرق الاسلامي؟

الى متى تسمر عيوننا على درب الحياة، تنتظر السلام و الرخاء و العزة؟

نقطة البداية العقل، أليس نور العقل هو أول ماخلق الله؟ أوليس أصل الانسان عقله؟ أوليست ميزته على الخليقة عقله؟

وكيف يتسنى للعقل أن يقود سفينة البشر الى شاطىء السعادة؟ إنما ينفع العقل من يؤمن به، ويثق بهداه، ويستنير بضيائه.. أما الذين يتبعون أهواءهم، ويستسلمون لرياح الظروف المتقلبة، أو يتبعون التقاليد من دون تمحيص، أو يتبعون الأمم الغالبة من دون تفكر فيما يصلح لهم أو لا يصلح، فانهم لا يكسبون تقدماً ولا يبنون تمدناً ولايتمتعون بحضارة.

ومتى ما يبتعث العقل من سباته، وينفض عن نفسه غبار الجمود والانطواء وإحباطات الهزائم والنكسات؛ يومئذ يخطو الانسان على درب الحضارة، إذ

يحدد الهدف ومن خلاله يحدد الاستراتيجية، وتنتظم خطته عبر قنوات الاستراتيجية ليندفع نحو تحقيق الهدف.

ويومئذ يعي بصائر الوحي بصورة أمثل، ويميز بها ما ينفعه من جديد العصر عما يضره، وما ينفعه من تراث الأولين عما يضره.

ذلك لأن ممارسات المسلمين في التاريخ- كممارسات المسلمين اليوم- ليست كل احتمالات الحضارة الاسلامية، بل إن بعضها كان ولايزال غطاء يخفي اشراق الاسلام الحقيقي.

إن الاسلام الحق، يمكن أن يعطي الانسانية حضارة روحية مادية، عظيمة المنفعة والروعة؛ وعلينا ان نستخرج من (كنوز الاسلام) حضارة أسمى.

فمن خلال نظرة سريعة إلى القرآن الكريم نجد أن الله تعالى لم يبين فيه إلا أحكاماً قليلة، وركز-في بقية آياته- على منظومة من القيم التي أراد ترسيخها في وعي الأمة بشكل كامل؛. إنما فعل ذلك ليفتح أمام الأمة أبواب التطور..

والنبي محمد صلى الله عليه وآله لم يكتب لنا أسفاراً مطولة في التشريع، انما بين أصول العلم والحكمة ورسخ قيم القرآن بتشريعاته الرشيدة، ثم وجه الأمة الى خلفائه المعصومين، فقال: (إني تارك فيكم الثقلين ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي، كتاب الله وعترتي أهل بيتي)[1].

وخلفاء الرسول عليه وعليهم السلام لم يؤلفوا كتباً مطولة في الأحكام الفقهية، إنما قالوا "علينا بالأصول، وعليكم بالفروع" ووجهوا الأمة من بعدهم الى الفقهاء، وقالوا: (وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها الى رواة أحاديثنا)[2].

ولكن السؤال: هل قمنا نحن -حسب مسؤوليتنا الدينية- بتطوير الأحكام وفق متغيرات العصر؟ أم تمسكنا بالجانب الثابت من الشريعة وضخمناه وأعدنا صياغته من جيل الى جيل، بينما المتغيرات تركناها لاجتهادات الناس؟

١- بحار الأنوار، ج٢، ص١٠٠.
٢- المصدر، ج٥٣، ١٨١.

وتبعاً لذلك هناك مئات الاسئلة العريضة حائرة اليوم وتتطلب أجوبة صحيحة وواقعية وواضحة، فأنّى لنا بذلك.

لو لم تصبح القضايا اليومية الملحة هي محور الدراسة، ولم نعالجها بشجاعة و حكمة، ولو لم تتم التضحية بكثير من التقاليد التي أصبحت عند البعض من المقدسات، فان حسابنا سيكون عسيراً أمام الله ثم أمام التاريخ.

التطوير بين العلم والدين

التطوير ضرورة عصرية

من لم يطرق أبواب المستقبل بحزم، اقتحم المستقبل داره بقوة؛ وسواء أعددنا أنفسنا لاستقبال التطورات العصرية التي لم يسبق لها مثيل، أم انطوينا على أنفسنا، وعشنا في كهوف الأماني والذكريات، فان هذه التطورات سوف تلف حياتنا لأنها أصبحت اليوم عالمية.

والمجتمع الذي يرفض أن يطور وسائل انتاجه، أو سبل مواصلاته، أو قوانينه أو اسلحته الدفاعية، فانه يحكم على نفسه بالموت التدريجي.

منذ قرون وأمتنا تعيش ظروف التحدي الحضاري، وتتصدر قضية العلاقة بين الأصالة والانفتاح قائمة الأولويات. فهل نقلد الغرب حتى ننهض، أم نجمد على الماضي حتى لا نفقد أصالتنا، أم أن هناك نهجاً وسطاً يجعلنا نتمسك بالقيم ونطور أنفسنا ضمنها؟

والسؤال ما هي ضرورة التطوير، وما هو نظام التطوير؟

تأتي ضرورة التطوير من ضرورة تحقيق القيم؛ فكلما ازداد اهتمامنا بها، ازدادت ضرورة تطوير الوسائل المؤدية إليها، فيما أصبحت الوسائل السابقة غير كافية. فمن أراد الصحة وتطور علمها، لا ينبغي له أن يتمسك بالوسائل العتيقة إن كانت غير مؤدية إلى الصحة، ما دام اهتمامه بها جدياً.

ورسالات الله صَدَّقت بعضها بعضاً في جوهر الدين وقيمه وغاياته، بينما نسخت بعض مناهجها بعضها الآخر، لأنها كانت وسيلة تحقيق تلك الغايات والقيم، وليست الوسيلة مقدسة بذاتها.

وجاء الإسلام مهيمناً على الدين كله، لأنه احتوى على قيم التشريع ونظام تطوير المناهج في إطار تلك القيم.

والتطور اليوم هائل، وفي الدين الإسلامي كنوز هائلة من القيم، وإنما علينا أن نعرف كيف نستنبط منها ما يجعلنا نواكب التطور دون أن نفقد هويتنا وأصالتنا.

والقرآن المجيد، هو ذلك الكتاب الذي لا تنتهي علومه، ولا ينطفئ مصباح هدايته؛ فكلما احتاجت البشرية إلى علم وجدته فيه، ولكن نحن بحاجة إلى تطوير مناهج استنباطنا منه.

التطوير ضرورة دينية

لماذا يأمرنا القرآن بالتطوير، في الوقت الذي هو كتاب قِيَمٍ يدعو إلى اتباع سنن الله الثابتة التي لا تجد لها تبديلاً ولا تحويلاً؟

من خلال البصائر التالية نفقه ضرورة التطوير في القرآن:

أولاً: دعوة القرآن الدائمة إلى العقل والفكر والذكر، مما يدل على ضرورة اتباع العقل، والتطوير نابع من العقل.

ثانياً: أبرز العقبات التي تعترض سبل التطوير، هو تقديس الآباء وتقليد المجتمع والخوف من الطغاة وما أشبه، والدين ينجي الإنسان من هذه العقبات ويشرع سبيل التطوير أمام البشرية واسعاً. قال الله سبحانه: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَآ أَنْزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ابَآءَنَا أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لاَيَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ**﴾(المائدة/١٠٤) وقال الله سبحانه: ﴿**مَا نَنَسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ**﴾(البقرة/١٠٦)

ثالثاً: وقد أمر الله سبحانه في الكتاب باتباع الأحسن، حيث قال سبحانه:
﴿**الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُولُواْ الأَلْبَابِ**﴾(الزمر/١٨) والأحسن يختلف حسب المتغيرات.

وقد أمر الله بالعرف فقال:
﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾(الاعراف/١٩٩) والعرف مختلف حسب المتغيرات.

وقد أمر الله باتباع ولاة الأمر فقال سبحانه : ﴿**يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَومِ الاَخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**﴾(النساء/٥٩) واوامر أولئك الولاة تتغير حسب المصالح المتطورة هي الأخرى.

وقد بعث الله الرسول بالحكمة ، فقال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ**﴾(الجمعة/٢)

والحكمة هي معرفة أصول العلم التي يتفرع منها حكم الحوادث المتغيرة .

القرآن حِكَمٌ وأحكام

لكي نستوحي من الكتاب المزيد من الهدى والأحكام، أمرنا ربنا بالتدبر في الآيات مستفيدين من النهج القرآني المتميز، حيث يذكر السياق في كل منظومة من الآيات إسماً من الأسماء الحسنى لله، وحكمة ووصية وسنة إلهية وحكماً فرعياً (يكون كما المثل لتلك الكلمات).

فاسم الله دليل سنته، والسنة دليل وصيته، والحكمة هي بدورها ينبوع الأحكام.

١/ مثلاً يذكرنا القرآن باسم (الأحدية) فيقول تعالى: ﴿**لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً**﴾(الاسراء/٢٢)

٢/ ويبين سنته في الجزاء العادل، فيقول تعالى: ﴿**رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلاَوَّابِينَ غَفُوراً** ﴾(الاسراء/ ٢٥)

٣/ ويبين الوصية، فيقول سبحانه: ﴿**وَقَضَى رَبُّكَ اَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً**﴾(الاسراء/٢٣)

٤/ ويذكرنا بالحكمة، فيقول تعالى: ﴿**وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً**﴾(الاسراء/٢٤)

٥/ ويأمر بحكم فرعي يكون مثلاً لكل الحقائق الماضية، فيقول سبحانه: ﴿**وَقَضَى رَبُّكَ اَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً**﴾(الاسراء/٢٣-٢٤)

التطوير بين الحدود والعقبات

عوامل الجمود

الإنسان من أكرم الكائنات، وعقل الإنسان أكرم ما فيه شريطة أن ينتفع به، ولعله هو محور أمانة الخلق التي قال عنها ربنا سبحانه:

﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الاِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً**﴾(الاحزاب/٧٢).

والرجال الذين يؤدون الأمانة هم الأقلية، ولكن حضارات البشر هي من صنعهم. ولكن لماذا لا ينتفع أكثر الناس بعقولهم ؟ الأسباب هي التالية:

أولا: لأن نزعة الإتِّباع، وخشية الإبداع، والخوف من قوى المحافظة على التقاليد؛ كل أولئك تمنعهم.

ثانياً: الهزائم التي تمنى بها الشعوب أمام القوى المعادية، أو عوادي الطبيعة تدعوهم إلى الانكفاء والتقوقع والعيش في ظلال الأحلام، والقمع الذاتي

للتطلعات، وتبرير اليأس والخنوع، والمبالغة في التمسك بقشور المبادئ وترك روحها الوثابة.

وجاء النبي الأمي صلى الله عليه وآله لفك الاصر والأغلال عن البشرية، كما قال الله سبحانه: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّورَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالاَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾(الاعراف/١٥٧)

ويواجه الذكر الحكيم الافتراء على الله الذي برّر به الكفار جمودهم، فحرموا ما أحل الله لهم من الطيبات، فيقول الله سبحانه: ﴿**قُلْ فَلِلّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِين * قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِن شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لاَيُؤْمِنُونَ بِالاَخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ**﴾(الانعام/١٤٩-١٥٠)

ويحارب القرآن الحكيم القشرية، وترك روح التشريع ومحتواه الحياتي، فيقول الله سبحانه: ﴿**لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللّهِ وَالْيَومِ الاَخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ الْسَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَآءِ وَالضَّرَّآءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِين صَدَقُوْا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾(البقرة/١٧٧)

الاحتياط في الدين

الاحتياط في الدين يتمثل في وعي حقائق الدين كلها، وتطبيقها جميعاً، أما الغلو في بعض جوانبه على حساب ترك لبابه وجوهره، فهو تفريط في جنب الدين.

وقد جاء في الحديث (في الترغيب في الاحتياط): "أخوك دينك فاحتط لدينك "[1].

وجاء: "حلال بيِّن ، وحرام بيِّن، وشبهات بين ذلك. فمن ترك ما اشتبه عليه من الإثم فهو لما استبان له أترك ، والمعاصي حمى الله فمن رعى حولها يوشك أن يدخلها"[2].

وتهدينا هذه الأحاديث إلى أن الاحتياط هو منهج لتطبيق الشريعة، وليس كمنهج تشريعي يضيف إلى الدين ما ليس فيه بلا دليل. ومن هنا وجب الاحتياط في الفتيا. قال الله سبحانه: ﴿**وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ الْسَّمْعَ وَالْبَصَرَ والفؤاد كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً**﴾(الاسراء/٣٦)

وهكذا تدل النصوص الناهية عن البدعة في الدين، على ضرورة التقيد التام بالأدلة في الفتيا، قال الله سبحانه: ﴿**ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى ءَاثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَآءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَأَتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ**﴾(الحديد/٢٧)

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله، أنه قال: "وما أحدثت بدعة إلا ترك بها سنة، فاتقوا البدع وألزموا المهيع ، إن عوازم الأمور أفضلها، وإن محدثاتها شرارها"[3].

ويقول المحدث الكبير المجلسي في تفسير البدعة: البدعة كل رأي ، أو دين، أو حكم، أو عبادة لم يرد (نص) من الشارع بخصوصها ولا في ضمن حكم عام[4].

١- فرائد الأصول للشيخ الانصاري ، ص٢٠٤.
٢- المصدر، ص٢١٢.
٣- المصدر، ص٣٨١، نقلاً عن كنز العمال، ح١٠٩٨.
٤- بحار الأنوار، ج٢، ص٢٦٤.

والحديث التالي يدل على ذلك؛ إذ روي عن حماد، عن الحلبي قال: قلت لأبي عبد الله (الإمام جعفر الصادق) عليه السلام: ما أدنى ما يكون به العبد كافراً؟

قال: "أن يبتدع شيئاً فيتولى عليه ويبرأ ممن خالفه"[1].

وقال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: "من دعا الناس إلى نفسه وفيهم من هو أعلم منه فهو مبتدع ضال"[2].

التكلف في الدين

والتكلف في الدين هو استحداث طقوس لم يأمر بها الشرع، أو التشدد على النفس بما يتنافى وسماحة الشريعة. وقد جاء في حديث شريف عن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن الله حدّ لكم حدوداً فلا تعتدوها، وفرض عليكم فرائض فلا تضيعوها، وسنّ لكم سنناً فاتبعوها، وحرّم عليكم حرمات فلا تنتهكوها، وعفى لكم عن أشياء رحمة منه من غير نسيان فلا تتكلفوها"[3].

ومن أبعاد التكلف في الدين، التشدد في مظاهر الدين على حساب روحه وقيمه، فقد جاء في حديث عن روح الله عيسى بن مريم عليه السلام، مخاطباً علماء اليهود المهتمين جداً بالمظاهر على حساب القيم، قائلاً: "يا عبيد الدنيا تحلقون رؤوسكم ، وتقصرون قمصكم وتنكسون رؤوسكم، ولا تنزعون الغل من قلوبكم"[4].

الشريعة السمحاء

١- بحار الأنوار، ج٦٩، ص٢٢٠.
٢- تحف العقول ، ص٢٧٦.
٣- بحار الانوار، ج٢، ص٢٦٣.
٤- راجع بحار الانوار، ج٧٧، ص٢٧.

بينما دين الله هو دين اليسر، وشريعته شريعة سمحاء، والله سبحانه قد بعث محمداً صلى الله عليه وآله بالشريعة السمحاء. هذا ما تقرأه في قوله تعالى: **﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾** (البقرة/١٨٥)

وقد جاء في حديث مأثور عن الإمام الباقر عليه السلام: "إن الخوارج ضيقوا على أنفسهم بجهالتهم، إن الدين أوسع من ذلك[١]".

ومن مظاهر السماحة في الدين: أصل الطهارة وأصل الحلية وأصل البراءة ونفي الحرج ونفي الضرر والضرار وما أشبه.

عن الأدلة الشرعية

ما هي الحجة؟

الحجة في جوهرها ما يتفق الطرفان عليه مما يحسم خلافهما، والدليل الشرعي هو الحجة القاطعة وهو العقل والكتاب والسنة والإجماع..

وقد بحثنا فيما سبق عن العقل والكتاب، وبقي الحديث عن السنة والإجماع؛ ومن بحوث السنة الحديث عن حجية الأمارات، لأنها السبيل إلى فهم السنة؛ مثل حجية ظاهر الكلام، وحجية خبر الثقة وما أشبه التي بحثناها سابقاً، وقلنا إن أصل حجيتها أنها سبل عقلائية لمعرفة الواقع، وأنها تورث الثقة عند العقلاء. ويبدو أن هناك شروطاً معينة للثقة بالأمارات منها:

١/ عدم تعارضها بما هو أقوى منها من الدليل.

٢/ عدم معارضتها لقرائن حالية، مثل ظروف الخوف والتقية.

١- بحار الانوار، ج٢،ص٢٨١.

٣/ عدم مخالفتها لما عرف من الشرع المقدس من القيم؛ مثل العدل والقسط والأمن وما أشبه.

والشرطان الأولان عرفيان، أما الثالث فقد نبَّهت عليه النصوص المأثورة، فقد قال ربنا سبحانه: ﴿**الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْءَانَ عِضِينَ * فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ (الحجر/٩١-٩٢) حيث نستوحي من الآية وجوب الأخذ بالكتاب كلاً من دون ضرب بعضه ببعض.

وجاء في حديث شريف عن النبي صلى الله عليه وآله: "إذا جاءكم الحديث عني تعرفه قلوبكم وتلين له أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكم قريب، فأنا أولاكم به. وإذا سمعتم بحديث تنكره قلوبكم، وتند منه أشعاركم وأبشاركم وترون أنه منكر، فأنا أبعدكم منه"[١].

ومن ذلك نصوص وجوب عرض الأحاديث على كتاب الله، وعلى المعروف من أمهات الروايات، وضرورة دراية الرواية.

الإجماع

هل الإجماع حجة ، ولماذا؟ هل لأنه طريق عقلائي لاكتشاف حكم الشريعة كما سائر الأمارات؟، ولماذا نرى البعض يصعب عليه في الفقه أن يخالف المشهور بين الفقهاء؟ والجواب:

أولاً: قد يكون الإجماع، بل الشهرة طريقاً عقلائياً لمعرفة حكم الدين، لأنه يورث الثقة عند العرف.

ثانياً: قد يكون الإجماع في ثوابت الشريعة، مثل إثبات حرمة لحم الأرنب، وقد يكون في المتغيرات مثلاً في الخوف (الحرب)، والأمن (السلم) فيكون حجة لأنه يعتمد رأي الأغلبية فيكون مخالفته مخالفة لسبيل المؤمنين ولولاية أمرهم، وقد قال الله سبحانه: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى**

١- راجع مستدرك الصحيحين وتلخيصه، ج٣، ص١٠٩؛ وخصائص النسائي، ص٩٠.

وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيراً﴾ (النساء/١١٥)، وأيضاً مخالفة للشورى حيث قال سبحانه: ﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ**﴾(الشورى/٣٨)

ثالثاً: بالرغم من أن أدلة حجية الإجماع لم تنهض به في الأصول لمناقشات مسهبة فيها، فإن الفقه يعتمد بصورة أو بأخرى على آراء الفقهاء السابقين إجماعاً أو شهرة بعد اعتضاده بسائر الأدلة مثل خبر ضعيف أو خبر وارد في موضوع جزئي بتعميم الحكم اعتماداً على فهم الفقهاء أو ما أشبه، وحسب المحقق الميرزا القمي، لا يتم مسألة من المسائل الفقهية من الكتاب والسنة إلا بانضمام الإجماع إليه بسيطاً أو مركَّباً[1].

رابعاً: آراء السابقين في الدين نوعان؛ نوع يعتمد على تأويل الأحاديث أو تطبيق الكليات على الجزئيات، وهذا النوع لا ينفعنا إلا كسابقة فقهية. ونوع يعتمد على تفسير النص الوارد، وفيه فائدة من باب أن الخطاب قد وجه إليهم، وأن فهمهم للكلام كان أقرب من فهمنا لأن اللغة تتطور كما يتطور البشر .

خامساً: إن هناك نزعة عند البشر لخلط التراث بالدين، وليس الدين كالتراث. فالدين مقدس لا ريب فيه، والتراث غير مقدس، ويمكن نقده. ومن هنا فإن الله قد أمرنا بالاستغفار للآباء وللسابقين إلى الإيمان، لأنهم كانوا معرضين للخطأ، بل للخطيئة أيضاً؛ فلا يمنعنا العطف عليهم من تصحيح أخطائهم المحتملة .

سادساً: إن هناك من يدفعه تعظيم السابقين إلى خشية مخالفتهم، وهذا يجعله مقلداً لهم من حيث لا يدري، فلا يسمح لنفسه حتى بالتفكير في غير ما رأوا. وهذا خطأ، لأن الحق أعظم من الأشخاص.

١- راجع قوانين الأصول ،ج١، ص٢٨٦.

سابعاً: لو علمنا أن منهج السابقين في استنباط الأحكام خطأ، فإن آراءهم المستندة إليه لا تنفع كثيراً. كما أنه لو علمنا أن السابقين اعتمدوا على دليل موجود فعلاً بين أيدينا، كان علينا النظر إليه لا إلى آرائهم.

ثامناً: إن العلماء السابقين يتميزون عن اللاحقين بقربهم الزمني من مصادر الحكم، بينما يتميز اللاحقون بدقة نظرهم وتراكم خبرات الماضين عندهم، فلا يمكن الاستغناء عن كلا الفريقين.

بين الإجماع والشورى

أشرنا أن للإجماع أفقين، فقد يكون في الأحكام الثابتة، وقد يكون في القضايا المتغيرة، فما هي علاقة الإجماع في هذا الأفق بالشورى التي هي أيضاً في المتغيرات؟

العلاقة هي: إن الإجماع يعني نتيجة المشورة فإذا عزم أكثر القوم على أمر كان على البقية الانصياع، ولكن السؤال: كيف فسرنا الإجماع بعزم الأكثرية؟ الجواب إن أصل معنى الإجماع العزم كما قال ربنا سبحانه: ﴿**فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ**﴾(يوسف/١٥)

وقال المحقق الحلي: إن الإجماع مأخوذ من قولهم أجمع على كذا إذا عزم عليه [١].

وقد يطلق الإجماع ويراد به المشهور، كما نجده في الحديث المعروف بمقبولة عمر بن حنظلة، حيث يقول الإمام عليه السلام في حديث مفصل: "خذ بما اشتهر بين أصحابك، فإن المجمع عليه لا ريب فيه" [٢].

١- فرائد الأصول ، ص٥٧.
٢- بحار الأنوار، ج٢، ص٢٤٥.

وهكذا قال الشيخ مصطفى الشلبي: ويظهر لي من تتبع مواضع اجماعاتهم (الأصحاب) أنها لم تكن إلا نتيجة رأي الأغلبية المكونة من رؤسائهم وخيارهم[1].

وهكذا يقتضي النظم العام لحياة الأمة أن الأقلية تتبع الأكثرية فيما يتصل بأمر المؤمنين مما لم يرد فيه نص شرعي أو حكم ولائي.

بحوث في السنة

بسبب حاجة المسلمين إلى سنة الرسول صلى الله عليه وآله، وحبهم الشديد له، وبسبب أمر الله لهم باتباع سنته، وأسباب أخرى.. لم تنجح مؤامرة المنافقين الذين رفعوا شعار: حسبنا كتاب الله، ولكن ظل اهتمام المسلمين بالسنة متفاوتاً، فبين من وقف عند ظاهر السنة وبين من اعتمد رأيه في مقابلها، ولا يزال أهل العلم غير متفقين تماماً في منهج الاستفادة من السنة الشريفة، بالرغم من إنتصار المنهج المعتدل الذي يؤمن بالسنة بعد درايتها وتعقلها وعرضها على الكتاب.

وكلمة السنة تعني المنهج والطريقة، وهي أقسام؛ إذ أن النبي صلى الله عليه وآله كان يفسر الوحي ويؤوله ويزكي الناس به ، وكان يبين الشرائع ويقضي بين الناس، وقد قال الله سبحانه: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ**﴾(الجمعة/٢)

١/ النبي صلى الله عليه وآله شاهداً

وكان النبي صلى الله عليه وآله شاهداً على أمته؛ فحياته كانت تطبيقاً للرسالة، وخلقه كان مثلاً حياً للكتاب الكريم، وقد أمر الله سبحانه بطاعته حيث

١- الفقه الإسلامي بين المثالية والواقعية، ص١٦٤.

قال: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَآءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقاً**﴾(النساء/٦٩)

وكون الرسول شاهداً على قومه بعمله، ومثلاً حياً للرسالة التي دعا إليها يساهم في تفسير السنة أيضاً، ولكنه يختلف عن التفسير اللفظي في عدم وجوب إتباع تطبيقات الرسول للدين حرفياً، فإذا حارب بالسيف لا يجب أن نحارب نحن أيضاً به لأنه مجرد تطبيق للأمر بالقتال.

٢/ النبي مبشراً ونذيراً

والإنسان محور الرسالة، وتزكية نفسه وتنمية مواهبه هدفها الأساس، وقد قال ربنا سبحانه: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ**﴾(الجمعة/٢)

والرسول كان يؤدب المؤمنين، أولاً بخلقه الرفيع الذي أضحى لهم مثلاً، ثم بكلماته المضيئة. وعلينا أن نستفيد من منهج النبي صلى الله عليه وآله في التربية ، أما تفاصيل تطبيق ذلك فقد تختلف مع الظروف .

٣/ النبي قائداً وإماماً

وكان النبي صلى الله عليه وآله إماماً لأمته في عصره، كما كان نبياً لكل العصور، وقد قال ربنا سبحانه: ﴿**وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾(النساء/٨٣)

وإن جانباً من كلمات الرسول صلى الله عليه وآله كانت خاصة بهذا الجانب، ونحن نستفيد منها في المنهج، أما التفاصيل فإن كثيراً منها خاصة بالظروف.

٤/ النبي حاكماً بين الناس

وكان النبي صلى الله عليه وآله المصدر الأول للقضاء بين الأمة، وقد قال الله سبحانه:﴿**فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً**﴾(النساء/٦٥)

والقضاء من شؤون الولاية المباشرة على الأمة، ويمكن للفقيه إلغاء الخصوصيات والاستفادة من قضاء الرسول بعد دراية تامة.

حجية السنة

أما عن أبعاد حجية السنة، فقد زخرت آيات الذكر بها، وأبرزها أدلتها أن القرآن الكريم بحاجة إلى بيان الرسول ، حيث قال الله سبحانه: ﴿**وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُم لاَ تَعْلَمُونَ * بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾(النحل/٤٣-٤٤)

وإن الله أمر بأن يستجيب الناس لله والرسول، فقال تعالى: ﴿**يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا اَنَّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَاَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾ (الانفال/٢٤)

كما أمر ربنا تعالى بأن يأخذ المسلمون ما ءاتاهم الرسول، فقال الله سبحانه: ﴿**مَآ أَفَآءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لاَ يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الاَغْنِيَآءِ مِنكُمْ وَمَآ ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ (الحشر/٧)

وقد جاءت السنة بياناً للقرآن بنص الكتاب، ودعا الرسول أمته إلى سنته، فعلى الناس الاستجابة ، وقد آتاهم من علمه فعليهم أن يأخذوا به.

كيف نهتدي إلى أقسام السنة؟

وبالرغم من أن بعض الأحاديث وردت خاصة بظروف المسلمين إلا أنها في الأغلب عامة وبالذات فيما يلي:

١/ ما يدل على عمومها ظاهر اللفظ كقوله صلى الله عليه وآله: "لا ضرر ولا ضرار" مما يكون بياناً للحقيقة.

٢/ ما يكون تفسيراً للكتاب، والكتاب ليس خاصاً بزمان.

٣/ ما نجد له أصلاً في عمومات السنة ذاتها.

وفيما إذا كانت القضية خاصة وذات صفة خاصة، وعرفنا أنها تخص بواقع معين، فإن السنة تكون خاصة وتنفع كسابقة قضائية (قضية في واقعة) وعند الشك يجب أن نستفرغ الجهد في معرفة طبيعة السنة، وإن لم نعرف فالاستدلال بها وحدها مشكل لأن تعميم الخطاب النبوي لغير المشافهين بحاجة إلى دليل إضافي حسبما أكد ذلك المحقق النائيني حيث قال: وهي (قاعدة الاشتراك) إنما تجري مع الاتحاد في الصنف فلو احتملنا اختصاص الحكم بالحاضرين (في) مجلس الخطاب أو الموجودين في المدينة أو في عصر النبي صلى الله عليه وآله لما أمكننا تسرية الحكم منهم إلى غيرهم[1].

السنة محكم ومتشابه

والسنة ذات أحاديث محكمة تمثل في أصول العلم وذات أحاديث متشابهة تمثل –عادةً- في الفروع، وعلينا أن نرد المتشابه منها إلى المحكم أو إلى محكمات الكتاب.

والسؤال: ما هي متشابهات السنة، وكيف نردها إلى المحكمات، وكيف نتعرف عليها؟ البصائر التالية تجيب عن هذه الأسئلة:

١- أجود التقريرات للمرجع الخوئي قدس سره ،ج١، ص٤٩٠.

أولاً: لأن الرسالة الإلهية لكل الناس، ولأن الناس صنفان خواص وعامة، فلابد أن تختلف النصوص بين نصوص تنفع العامة وأخرى لا تنفع إلا الخواص وهم العلماء .

ثانياً: حاجة العامة هي فقه المسائل الفرعية التي يبتلون بها، بينما حاجة الخواص معرفة المسائل الكلية التي يمكنهم أن يستنبطوا منها كل المسائل التي ترد إليهم من قبل عامة الناس.

ثالثاً: وهكذا اختلفت النصوص (آيات وروايات) إلى ما فيها أصول العلم؛ مثل الأمر بالعدل والإحسان ، والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي، وإلى ما فيها فروع العلم مثل الأمر بإيتاء ذي القربى والنهي عن الاضرار بالزوجة.

رابعاً: الأصول العامة لا تختلف ولا تتناقض، بينما المسائل الفرعية تختلف وتتناقض فيما بينها حسب الظروف المختلفة، ولذلك فإن الأصول محكمات واضحة بينما الفروع متشابهات.

خامساً: اختلاف المسائل قد تكون بسبب اختلاف خصوصيات الموضوع أو بسبب أن ولي الأمر (النبي وأهل بيته وورثتهم من الفقهاء) يريد تربية الناس فيأمر بما هو مستحب أو ينهى عما هو مكروه، وظاهر أمره ونهيه الوجوب والحرمة ، وباطنه الندب والكراهة. أو بسبب أنه قد يأمر بشيء لمصلحة مثل التقية من الطغاة أو لضرورة وقتية كالنهي عن أكل لحوم الحمير خشية القضاء عليها في ظروف المجاعة وما أشبه.

سادساً: وعلى الفقيه أن يفهم لسان النص وكيفية البيان فيه ليكتشف خلفيات الروايات الخاصة بالمتشابهات، وعليه أن يعرضها على المحكمات والأصول العامة ليعلم مداليلها.

وقد جاء في حديث عن موسى بن بكر قال : قلت لابي عبدالله (الإمام الصادق) عليه السلام: الرجل يغمى عليه يوما أو يومين أو الثلاثة أو الاربعة أو أكثر من ذلك كم يقضي من صلاته ؟ قال : ألا اخبرك بما يجمع لك هذه الاشياء ؟ كلما غلب الله عليه من أمر فالله أعذر لعبده . قال : وزاد فيه غيره

أن أبا عبد الله عليه السلام قال : هذا من الابواب التى يفتح كل باب منها ألف باب[1].

وهكذا وردت أحاديث شريفة بان الأئمة عليهم السلام كانوا يلقون إلى أصحابهم بالأصول وإن عليهم أن يفرعوا عليهما.

ويبدو أن هذا الصحابي قد سأل الإمام عن فتواه في حكم المغمى عليه فأجابه الإمام بأصل عام يستفاد منه هذا الحكم.

سابعاً: حين نرد المتشابه الفرعي إلى المحكم الكلي نحصل على فائدة مزدوجة لأننا نزداد ثقة بالحكم الفرعي ووضوحاً بالحكم الكلي، مثلاً: حين يأمرنا الدين بالتيمم بدل الوضوء أو الغسل عند الخوف أو الضرر أو انعدام الماء ، وحين يأمرنا بالإفطار في شهر رمضان للمريض والمسافر والصيام لأيام آخر، وحين يأمرنا بالصلاة قصراً في المعترك نعرف إن هذه كلها فروع متشابهة لأصل كلي هو نفي الحكم الحرجي كما قال سبحانه ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾(الحَج/٧٨) وقوله سبحانه: ﴿**يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِنكُم مِنَ الْغَآئِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَآءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِنْ حَرَجٍ وَلكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾(المائدة/٦)

فنزداد ثقة بهذه الأحكام وحدودها فنعرف مثلاً مدى الضرر أو الخوف الذين يوجبان التيمم أو الإفطار كما نزداد وضوحاً بالقاعدة العامة (نفي الحرج) فنعرف مثلاً كيف يسقط الحرج عن الخائف أو يسقط الجهاد عن المريض وكيف يتبدل حكم الصلاة عن قيام إلى الصلاة جالساً لمن كان القيام حرجاً عليه وهكذا.

١- وسائل الشيعة، ج٥، ص ٣٥٣.

نظام التطوير

فلسفة الثبات في التشريع

القانون نظام اجتماعي يهدف الأمن والاستقرار وتنظيم العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وهو بحاجة إلى الثبات لكي يكبح جماح القوي ويستقطب ثقة الضعيف ويعتمد الناس عليه لضمان مستقبلهم، ولكي يصبح عرفاً يسهل تطبيقه في المجتمع ، وليكتسب شرعية تفرض نفسها على أصحاب الهوى .

ومن دون ثبات القانون لا تتحقق أهداف القانون. ومن هنا اعتمد فقهاء القانون على القانون الطبيعي (الفطري – العقلي) أو الديني لضمان ثباته.

والإسلام يضمن الثبات، لأن تشريعاته من الله الحق سبحانه، ولأنها قائمة على أساس السنن الثابتة (القوانين الطبيعية)، ولأن قيمها نابعة من أحكام العقل (الأصول الأخلاقية)، ولأن الله سبحانه قد حرّم أي تشريع إلا في إطار إحكامه الثابتة. قال الله تعالى: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُم مَآ أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِن رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلَالاً قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ**﴾(يونس/٥٩)

عوامل التغيير في التشريع

لأن الحياة تتطور فالتشريع الواقعي يتطور معها، وعوامل التطوير تؤثر على المجتمع الذي من أجله يُسن التشريع وعليه يُطبق، وهي متنوعة:

١/ التقدم العلمي

بسبب التقدم العلمي تطورت حياة الشعوب، فاحتاجت إلى سن تشريعات جديدة؛ فمثلاً أثرت الصناعة على البيئة فاحتاج الناس إلى وضع تشريعات لصيانتها، وتقاربت الدول بسبب كثافة المواصلات والاتصالات فأصبح تأثير بعضها على البعض شديداً فاحتاجت إلى تنظيم العلاقة فيما بينها بالتشريعات، ومع تطور الصناعة وتنامي مشاكل العلاقة بين العمال وأرباب العمل أصبحت الحاجة ماسة إلى تنظيم هذه العلاقة بالتشريعات الجديدة، وهكذا..

٢/ تطور العرف

لأن كثيراً من الأحكام تابعة للعرف العام باعتباره راعي النظام الاجتماعي، فإن تطوره تسبب في تطور تلك الأحكام؛ فالعشرة بين الزوجين لابد أن تكون بالمعروف، فما هو المعروف؟ لكل عصر ومصر وظرف معروف خاص به، والعقود تقوم عادة على أسس عرفية، وهي مختلفة حسب المتغيرات. وهكذا العادات التي هي محور بعض الأحكام تختلف حسب الأزمنة .

٣/ المصالح العليا

وأهم المتغيرات هي المصالح العليا للأمة التي لا يمكن التغافل فيها، فالتحديات الحضارية الكبرى بما تحمل في طياتها من خطر الإبادة تقتضي تنظيم الحياة الاجتماعية بطريقة لا تتعارض معها، بل بطريقة تؤمِّن مستلزماتها.

٤/ الضرورات

عند تعرض المجتمع لموجة من البأساء (الحرب) أو الضراء (الكوارث) عليه أن يسن تشريعات مؤقتة لمعالجة هذه الحالة، وقد تكون مخالفة لسائر التشريعات لأن الضرورات تبيح المحضورات، وقد قال ربنا سبحانه: ﴿**إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ (البقرة/١٧٣)

آلية التطوير

من أجل المحافظة على حكمة التشريع المتمثلة في الاستقرار من جهة وعلى مرونته من جهة ثانية لابد من وضع آلية للتطوير تتمثل في ثلاثة بنود:

أولاً: تقييم المتغيرات التي تقتضي وضع تشريعات جديدة، وهل أنها بلغت مستوى سن تشريع جديد أم لا؟ وبتعبير آخر؛ هل استنفدت التشريعات القديمة أغراضها تماماً بحيث لم تعد كافية لاحتواء المشاكل ولو بالاستفادة من

متمماتها أو تفسيرها تفسيراً جديداً، أم الأمر بحاجة إلى تشريعات جديدة لكثافة حجم المتغيرات؟

ثانياً: عند الحاجة إلى سن تشريعات جديدة نعود إلى القيم العليا التي استمدت التشريعات القديمة منها أحكامها فنستنطقها ونستنبط منها لكي لا تتعارض تشريعاتها الجديدة مع سائر تشريعات أخرى لا نريد أن نغيرها.

ثالثاً: لابد أن تكون هناك جهة مقبولة عند العرف هي التي تسن تشريعات جديدة، مثل مجلس الفقهاء الكبار عند المسلمين أو مجلس دستوري منتخب عند غيرهم .

دور القيم في آلية التطوير

في المجتمع الإسلامي يجري التطوير في التشريعات على النقاط التالية:

❁ الثبات على القيم التي تُستوحى من الذكر الكريم باعتبارها حِكَم التشريع، وبحيث لا يُسن قانون إلا بالاستناد إليها.

❁ إعتماد نظام الشورى لتركيز الخبرات المتراكمة حول المتغيرات الحياتية كوسيلة لفقه الواقع وتحديد الموضوعات بدقة عالية.

❁ الإيمان بالولاية التي تستمد من القيم والشورى أدوات التشريع وتحسم النزاعات وتضفي الشرعية على الأحكام. وفيما يأتي نوجز بصائر حول هذه النقاط الثلاث:

ألف/ القيم ضمانة الاستقامة.

والقيم المثلى تضفي على المجتمع المسلم صبغة الله، وبالوسائل التالية :

أولاً: إنها تبلور عقولهم ووجدانهم الأخلاقي، وتحدد الاتجاه العام لسلوكهم؛ فإن انحرفوا فليس إلاّ الضلال البعيد .

ثانياً: ولأن التشريعات الدينية الثابتة والمتغيرة تعتمد على القيم، فإن تطبيقها يكون سهلاً عليهم، بل إنها تصبح من أعرافهم ومرتكزاتهم.

ثالثاً: وتصبح القيم هدى للقضاة، يستنيرون بها في الحوادث الواقعة.

رابعاً: والقيم هي الميزان الذي يقيس به الناس سلوك حكامهم وعلمائهم وسائر ذوي الشأن بينهم.

خامساً: وهي في ذات الوقت تصبح مرجعاً قانونياً لإصدار أحكام جديدة، فيصبح التشريع الإسلامي، هو الأمثل في ثباته ومرونته معاً.

باء/ تكريس القيم.

وتتكرس القيم في وعي الأمة بما يلي:

١/ بالعقل الذي يوقظه الوحي.

٢/ بالكتاب الذي يديم تلاوته الناس ليل نهار، وهو منظومة متكاملة من القيم الحق.

جيم/ هرم القيم.

وهرم القيم يبدء بالإيمان الذي يعني التسليم لما هو حق، التي تتمثل فيما هو آتٍ

١/ التسليم بوجود الحقيقة؛ الشاهدة منها والغائبة، والمحسوسة منها والمعقولة، ومن الحق عالم الدنيا، والآخرة وكل رسالات الله وجميع الرسل.

٢/ التسليم لأبعاد الحق، فالحق يفرض عليك التسليم لآفاقه؛ مثلاً الأرض حق فلا تسعى لاختراقها، والجبل حق فلا تصطدم به، والشجر حق فتتفيء ظلالها، والإنسان حق فتحترم وجوده وتحافظ عليه، وهكذا.

٣/ الوفاء بما يفرض عليك التسليم من التزامات، فتحترم البيئة فلا تفسدها، وتحترم الناس فلا تعتدي عليهم ، وتحترم نفسك فلا تضيعها.

وهكذا يتدرج المؤمن من تسليمه للحقيقة إلى حفظ كل الحرمات المتصلة بكل الحقائق، الغائبة منها والشاهدة.

دور الشورى في التطوير

العرف مصدر تشريعي هام يعتمد العقل والخبرة. قال الله سبحانه: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**﴾(الاعراف/١٩٩). وتتصل حجية العرف بالشورى، وللشورى فوائدها:

١/ الشورى معدن خبرات الناس.

٢/ وهي توقظ في الناس حس البحث وتجميع الخبرة.

٣/ وفي المجتمع قنوات طبيعية لتراكم الخبرة ابتداءً من الأسرة فالعشيرة وصحبة الجوار الى تجمعات المساجد والهيئات الدينية، فلو استغلت بالشورى لكانت مصدراً غنياً للخبرة .

ألف/ الشورى حق وواجب

والشورى وسيلة لاختيار الأفضل، والحياة سلسلة اختيارات تهدف بلوغ الأحسن، وقد قال ربنا سبحانه: ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ**﴾(الملك/٢)

والوصول إلى الأفضل الأحسن مسؤولية الناس جميعاً، لأنهم جميعاً يتأثرون به. والشورى تزيد المجتمع تلاحماً، كما أنها توظف طاقة الصراع في الاتجاه الإيجابي، أوليست الدنيا دار ابتلاء؟ وإنما بالصراع الإيجابي تبلو وتستخرج معادن الناس، وقد قال ربنا سبحانه: ﴿**وَأَنْزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنْزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ الحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَآءَ اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلكِن لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**﴾(المائدة/٤٨)

باء/ قنوات الشورى.

تختلف قنوات الشورى حسب المتغيرات، ولكن علينا أن نثبت بصيرتين:

الأولى: إن مقياس تقدم المجتمع هو مدى تمتعه بالمزيد من قنوات الشورى النشطة.

الثانية: إن تجارب البشرية في التنظيمات والأحزاب والهيئات التمثيلية غنية جداً، وعلينا أن نستفيد منها حسب حاجاتنا.

الولاية الشرعية

إذا كانت الدولة ضرورة حياتية، فإن أفضل دولة هي المنبثقة عن مبادئ الوحي وهي الولاية ، وقد قال ربنا سبحانه: ﴿**وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاَتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾(النساء/٨٣)

وإليك جملة بصائر في هذا المجال استوحيناها من القرآن الكريم:

١/ الإسلام دين رفض الطاغوت ، ولا يفرض على الناس حكم الولاية إلا بعد انتخابهم؛ فلا إكراه في الدين ، ولكن شروط الولاية هي جملة قيم في الحاكم تدعو إليها فطرة الإنسان مثل العلم والأمانة والكفاءة. قال الله سبحانه ﴿**وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وَمَآ أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * إِنَّآ أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِايَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَن لَمْ يَحْكُم بِمَآ أَنْزَلَ اللّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**﴾(المائدة/٤٣-٤٤)

نستفيد من الآية أن التوراة (كما الإنجيل والقرآن) محور الدولة الدينية، وإن الأنبياء يحكمون الناس بذلك الكتاب، والربانيون والأحبار يحكمون الناس كذلك بالكتاب لأنهم استحفظوا ذلك الكتاب وتفقهوا فيه وكانوا شهداء عليه فطبقوه على أنفسهم وراقبوا تطبيقه على الناس؛ ولأنهم كانوا يخشون الله لا

الناس (من أولي القوة)، ولأنهم كانوا أمناء على الكتاب فلم يشتروا به ثمناً قليلاً.

هذه هي صفات القائد الإسلامي الذي يحكم الناس بالدين لا بهواه.

٢/ والإسلام يولي اهتماماً بالغاً لمقاومة الطغاة، لكي يربي الناس على الحرية وعدم التسليم للقوة والثروة، يقول سبحانه: ﴿**وإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلى شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ**﴾(الاعراف/١٧٢-١٧٣)

وحتى الطاعة للرسول لن تكون ذاتية، بل بإذن الله لدرء شبهة الشرك. قال الله سبحانه: ﴿**وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللّهَ تَوَّاباً رَحِيماً**﴾(النساء/٦٤)

وهكذا طاعة الإمام، إنما تكون بأمر الله سبحانه. قال الله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**﴾(السجدة/٢٤)

وقد شدد الكتاب النكير على الاتباع الأعمى، وبيَّن أن عاقبته في الآخرة الخسران. قال الله سبحانه: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ اَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ**﴾(البقرة/١٦٧)

وهكذا يربي الإسلام المجتمع على الحرية والتمرد على الديكتاتورية .

٣/ ولاية الحاكم الإسلامي ليست مطلقة بل هي مشروطة باستمرار مؤهلاته، فلو فقدها فلا طاعة له على الناس.

ولأن القرآن قد صاغ شخصية الأمة، فإن تأثير ثقافته التحررية تدعو الناس أبداً لمراقبة ولاة أمورهم لكي لا يحيدوا عن قيم الدين.

الشريعة بين الثوابت والمتغيرات

التشريع -أنّى كان مصدره- يقتضي الاستقرار، لأنه يستمد شرعيته من الفطرة والقانون الطبيعي والديني، وهو مستقر ولكن المتغيرات التي تطرء على الحياة تقتضي تغيير بعض التشريعات. وهنا يحدث الجدل، فما هو الثابت الديني الذي لا ينبغي تغييره، وما هو المتغير ؟

يبدو أن الثابت هو الذي يتصل بالثوابت من الوحي والعقل والفطرة والواقع الذي لم يتغير، وما عداه يمكن تغييره. ومقياس الثبات العقل وما يحكم به من القيم، والقرآن كتاب هدى وآياته إثارة للعقل.

ثوابت الشريعة

١/ وأسماء الله ثابتة، وتتجلى في الحق الذي به خلق الله السموات والأرض. قال الله سبحانه: ﴿**وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ**﴾(الجاثية/٢٢)

٢/ ويتمثل الحق في سنن الله، حيث يقول ربنا سبحانه: ﴿**اسْتِكْبَاراً فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السِّيئِ وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً**﴾(فاطر/٤٣)

ومن سُنَنِ الله ما جرت في الأمم الغابرة (فلسفة التاريخ) ، حيث يقول ربنا سبحانه:

﴿**قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾(آل عمران/١٣٧)

ومن السنن الأعراف الحسنة التي مصدرها العقل والوحي، يقول ربنا سبحانه: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾(النساء/٢٦)

ومن سنن الله ما خلت في الأولين من كفرهم ودمارهم. قال الله سبحانه: **﴿قُل لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ﴾**(الانفال/٣٨)

ومن سنة الله في رسله، أنه لا حرج عليهم فيما فرض الله من أكلهم الطعام ومشيهم في الأسواق (للتجارة) قال الله سبحانه: **﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً﴾**(الاحزاب/٣٨)

ومن سنة الله أمر الله في المنافقين، حيث يقول ربنا : **﴿لَئِن لَمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لاَ يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلاَّ قَلِيلاً * مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً * سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾**(الاحزاب/٦٠-٦٢)

٣/ وسنن الله سبحانه تتجلى في حكمته البالغة في الشريعة، والتي هي كلماته التي تفيض منها قيم الوحي وغايات الدين، فإنها لا تتغير مثل قيمة الإنسان وحرمة دمه وماله وكرامته، وكلمته في الأمن والقسط والكرامة البشرية، وسائر كلماته التي ندرسها لاحقاً بإذن الله سبحانه.

٤/ ومظهر الدين شعائر الله التي لا تتغير؛ مثل الصلاة والحج والصيام قال الله سبحانه: **﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾**(آل عمران/١٩١)

٥/ ومنها حدود الله التي هي أحكامه وفرائضه التي لا يجوز التعدي فيها، وقد وردت هذه الكلمة في القرآن في القضايا الأسرية ابتداءً من المباشرة الجنسية وانتهاءً بالإرث ومروراً بقضايا الطلاق والظهار والعدة للمتوفى عنها زوجها. قال الله سبحانه: **﴿الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلاَّ اَن يَخَافَآ اَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ**

فإِنْ خِفْتُمْ اَلاَّ يُقِيَما حُدُودَ اللّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * فإِن طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّى تَنكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فإِن طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَنْ يَتَرَاجَعَآ إِنْ ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(البقرة/٢٢٩-٢٣٠)

وقد جاء في الحديث المأثور عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: "إن الله افترض عليكم فرائض فلا تضيعوها وحدّ لكم حدوداً فلا تعتدوها"[١].

آفاق التطوير

إذا تطورت الوسائل العلمية وسبل العيش أو حدثت حالات استثنائية، فإن الأحكام تتغير لأن موضوعاتها قد تغيرت. ولكن السؤال كيف نتحقق من الحكم في الموضوعات المستجدة؟

والجواب:

إن هذه الموضوعات قد تكون خالية من النص الخاص ، فنستنبط حكمها من الأصول العامة (حِكَم الشريعة وقيمها).

وقد تكون ذات نص خاص ولكن يتعارض النص الخاص والحكمة العامة بسبب تطور الظروف؛ مثلاً الحكمة من الزكاة إطعام الفقراء وردم فجوة الطبقية، ولكي لا تكون الثروة دولة بين الأغنياء. فإذا كان بلد مثل التايوان يعيش أهله على الرز، وقد جاء في النص أنه لا زكاة فيه ولم يكن في البلد اي متعلق للزكاة من الغلات والأنعام والنقدين، فهل يجوز للفقيه أن يستنبط من حكمة الزكاة حكماً بوجوب الزكاة في الرز، أم أنه يعتبر اجتهاداً في مقابل النص وهو ما رفضه الفقهاء؟

الجواب: إن التعبير بالاجتهاد هنا يوحي بالاعتماد على الظنون، أما إذا بلغ حدس الفقيه إلى درجة اليقين أو الاطمئنان فإنه لا يصدق عليه الاجتهاد في

١- نهج البلاغة، حكمة رقم١٠٥.

مثل هذا التعبير، لأن الفقيه في هذه الحالة يعتمد على احتمال اختصاص خطاب النص (بأنه لا زكاة في غير الموارد التسعة) بالمشافهين، وبالتالي يكون خطاباً خاصاً بزمان صدوره، بينما النص القرآني في حكمة الزكاة عام لكل زمان، فيكون في مورد زكاة الرز من التعارض في مورد وعدم التعارض في غيره (العموم والخصوص من وجه) وفيه يرجع الفقيه إلى المرجحات، والترجيح للنص القرآني لأنه قطعي السند، بل الدلالة.

ويبدو من التأمل في كلمات القدماء من العلماء أنهم إنما رفضوا العمل بأخبار الآحاد التي لا قرينة على صحتها من عمل الأصحاب ومن موافقتها للكتاب والسنة والإجماع والعقل، لأنها كانت تخالف عندهم لما علموه من روح الشريعة؛ أي انهم كانوا يعرضون الأخبار على الكتاب والسنة الموثوقة وعمل الأصحاب، ثم إذا حصلت عندهم حالة السكون والثقة عملوا بها، وحسبما يقول الشيخ البهائي: ليس الصحيح عند قدماء الأصحاب إلا ما أفاد الوثوق وسكون النفس[1].

من هنا كان اللازم علينا المزيد من التأمل في حِكَم الشريعة، معتمدين فيها على صريح الآيات وصحيح الأحاديث، وهذا ما نبحثه إن شاء الله لاحقاً.

١- رسالة في حجية الظن لمؤلفها السيد محمد باقر ، ص٥٢٧، طبعت هذه الرسالة مع كتاب (هداية المسترشدين في شرح معالم الدين).

الفصل الثالث

فلسفة التشريع

تمهيد

لا نجد في كتاب الله المجيد حكماً شرعياً، ولا وصية إلهية، إلا وقد قُرِنا ببيان الغاية منهما إما بكلمة (لعل) أو حرف (اللام) أو لفظة (لكيلا) أو ما أشبه. لنتلو معاً الآيات الكريمة:

﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِنْ حَرَجٍ وَلكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2].

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[3].

وكذلك نجد السنَة الشريفة تبين - عادة - حكمة الوصايا والشرائع. وهذه أيضاً عادة كل المذاهب حينما يرسمون دساتير أو ينظمون قوانين، فما من دستور يكتب إلا ويزين بديباجة يبين فيها الأهداف التي تعتبر روح الدستور، أو روح القوانين.

١- البقرة / ١٨٥ .
٢- المائدة / ٦ .
٣- النور / ٥٦ .

وعند البحث عن الغايات في المذاهب المختلفة نجدها متنوعة، وربما تختلف فيما بينها وتتعارض؛ مما يجعلنا نبحث عن الغاية الأسمى فيما بينها، لتكون هي المرجع عند تعارض الغايات.

وهكذا في الإسلام، فإذا كانت الشريعة الاسلامية تهدف بناء مجتمع أمثل، فما هو الهدف العام لهذا المجتمع، وما هي الغاية الأسمى لدستوره ولقوانينه؟ بتعبير آخر؛ ما هو الإطار العام للمجتمع الإسلامي، ذلك الإطار الذي يتناول بالاضافة إلى الجانب التشريعي للمجتمع، الحقول التربوية والاخلاقية والعرف والعادة؟ والإطار العام للمجتمع إنما يعرف إذا عرفنا من هو الانسان؟ وما هو سر وجوده في هذه الدنيا؟ وما هو هدف حياته؟ وما هو مصيره؟ وكيف يعيش عيشة فاضلة راضية؟ بل إذا عرفنا ما هي الكائنات ولماذا خلقت؟ لأن الإنسان جزء منها.

وفي الواقع تعتبر هذه الاسئلة مفتاحاً لمعرفة حقيقة الدين، بل ومفتاحاً لمعرفة أفكار الفلاسفة لأنها محور أهم بحوثهم.

ويجد الباحث بعض الصعوبة في دمج هذه الحقول ببعضها واستخلاص نتائج واحدة منها، خصوصاً بعد الفصل القسري الذي جرى بينها بعد تقسيم العلوم والفصل بينها، ووضع حواجز بين موضوعاتها؛ وحتى من قبل دارسي الشريعة، حيث جُعِلت الوصايا الاخلاقية كأنها لا تتصل بالفقه، ودُرِسَت العقائد بصورة نظريات لا تتصل بالحياة. أما الأحكام فقد دُرِسَت وكأنها بلا أهداف، وحتى العلل المنصوصة في الشريعة (وما أكثرها) فقد قيل بأنها مجرد (حِكَم) وأنها لا تتصل بالبحوث الفقهية. بينما الحقيقة غير ذلك تماماً، لأن الدين بنيان رصين يعضد بعضه بعضاً؛ فمثلاً حين ندرس الوصايا الاخلاقية في مصادر الوحي، أي الكتاب والسنة، نجدها حافلة بالقيم السامية المستوحاة من العقائد كما نجدها تذكرنا بالأحكام الفقهية. فهل نعتبر هذا المنهج (الذي قام عليه

الكتاب وكلمات النبي والأئمة عليه وعليهم السلام)[1] خاطئاً، بينما نعتبر منهج الفصل بين العقائد والأخلاق وبينهما وبين الفقه، أو الفصل بين الكتاب والسنة هو الصحيح؟! كلا.

إن العودة الى المنهج الشمولي هي الضمانة الأكيدة لفقه الشرائع ومعرفة الأحكام الدينية، وبالذات في المتغيرات (الحوادث الواقعة) والتي أصبحت تشكل نسبة كبيرة من المعضلات الفقهية.

بلى؛ سوف ننتهل معرفة الأحكام الفرعية (حتى تلك التي وردت فيها نصوص مأثورة) إذا استوعبنا جوامع حِكم الدين، وأصول الحكمة الالهية.

وكذلك الأمر فيما يرتبط بالموضوعات الخارجية التي تحتاج الى الاجتهاد بسبب شدة غموضها وعمق صلتها بالحكم؛ مثل عمليات البنوك والعقود الجديدة، بل وفي مثل طريقة تنفيذ العدالة الاجتماعية وتوزيع الثروة في ظروفنا اليوم ومع المتغيرات الاقتصادية الهائلة، وكذلك مسؤوليات الدولة الحديثة وعلاقات الدول ببعضها وما يتصل بها من أنظمة سياسية واقتصادية وبيئية وما أشبه. فإن فهم حُكم الشرع في هذه الأمور بحاجة ماسة الى فقه قيم الشريعة، والحكمة الالهية المقصودة منها.

القيم في فلسفة الأخلاق

روح التشريع تتمثل في القيم التي يستهدفها، ولذلك فإن دراسة القيم تبدو ضرورية لفقه الشرائع والقوانين المختلفة. وبما ان التشريع الالهي اقرب إلى القيم والغايات المثلى من أي تشريع آخر، لأنه مُنزَل من عند الله العليم الحكيم، فان البحث عن مقاصد الشريعة الالهية وغاياتها وبالتالي قيمها، أشد ضرورة من البحث عنها في أي قانون آخر.

١- تجد هذا المنهج في كتاب تحف العقول، الذي جمع فيه العالم المحدث حسن بن شعبة أهم وصايا النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، كما نجده في كتاب الروضة من موسوعة بحار الأنوار.

وها نحن ندرس القيم على مستويات ثلاث:

الف: صعيد معنى القيمة، وتبيان أبعادها والعلاقة بينها وبين سائر الكلمات القريبة منها، مثل: المعتقد والسلوك والاتجاه وما أشبه.

ومن ثم مصدر الشرعية في القيمة، وهل هو العقل أم الحاجة؛ الموضوع أو الذات؟

باء - صعيد فلسفة الأخلاق (في مختلف المذاهب الفلسفية الكبرى) والتي تدرس اطاراً أعم من فكرة القيمة، ولكنها إنما تهدف بدراستها معرفة هدف الحياة وبالتالي القيمة الأساسية فيها.

جيم - صعيد البحث عن قيمة الإيمان التي نعتقد أنها ذروة القيم التشريعية في الدين، وما هو حقيقته ودعائمه، وكيف نتعرف على القيمة الأسمى (من خلال معيار الايمان) والبحوث المقارنة في التفاضل بين القيم.

معنى القيمة ومصدر شرعيتها

١/ ما هي القيمة؟

القيمة تعني الأهداف المقدسة (والمشروعة) التي يقتنع بها البشر ويجعلها معايير للحكم على الأشياء بالحسن والقبح، وعلى الأفعال بالأمر والنهي. وهكذا نستنتج طائفة من المحدّدات للقيمة:

أولاً: لأنها تقتضي الايمان فهي شبيهة بالمعتقدات الأخرى، لأنها هي الأخرى تقتضي الايمان بها، ولكنها تختلف عنها في كونها حقلاً خاصاً من المعتقدات، كما سيأتي الحديث عنها إن شاء الله.

ثانياً: لأنها أهداف (غايات) فهي تحفز الإنسان (وتدفعه) وتستثير فيه الحركة نحوها فهي - إذاً - تشترك مع مجموعة مفردات من هذه الزاوية، وإن بصورة جزئية، مثل: (الدافع) لأن أهداف الإنسان تدفعه نحو وجهة معينة، وكذلك (الحاجة) لانها قد تخلق هدفاً، ومثل (الاهتمام)، لأن الإنسان أشد ما يكون اهتماماً بأهدافه، بالرغم من وجود مفارقات بينها وبين هذه الألفاظ.

ثالثاً: وبما أن حقيقة القيمة - فيما يبدو لي - تتمثل في كونها هدف الإنسان، فان للإنسان نمطين من الغايات المقدسة والمشروعة؛ فاما الغاية المقدسة فهي التي تعبّر عن عقل الإنسان المتطلّع إلى الغيب، وعن ضميره المعقود بحب الخير والفضيلة، وأسمى تجلياته عبادة الله الخالق الرازق المدبر سبحانه.

وأما الغاية المشروعة، فهي الحاجات المادية التي لا تتنافى وتلك الغاية المقدسة، مثل حب الشهوات من النساء والبنين و.. و..

وفي هذا القسم تشبه القيمة "الدافع" لأنها، كما الدافع، أعمّ من المقدس والمشروع، على أن الدافع قد يكون غير مشروع (كالدافع إلى الجريمة) فيكون أعم من القيمة حيث لا يمكننا أن نسمي الدافع إلى الجريمة قيمة.

رابعاً: أنها تعطينا "معايير" و"مقاييس" و"موازين" (التعابير تختلف والمعنى واحد) ونستطيع بتلك المعايير إكتشاف التالي:

الف - إختيار أقرب الوسائل إلى الهدف.

باء - إنتخاب الأمثل والأفضل من بين البدائل في تحقيق الأهداف.. فاذا كانت لدينا وسيلتان كلتاهما قريبان إلى الهدف، ولكن إحداهما كانت أمثل من الناحية الأخلاقية (القيمية) من الثانية، انتخبناها.

جيم - الحكم على الأشياء أيها أحسن وأجمل.

دال - الحكم على الأفعال أيها أفضل.

خامساً: إعطاء صفة الالزام والوجوب في حياة الناس؛ فالفضيلة قيمة "يجب" التحلي بها، والعدالة قيمة "لازمة" على الناس، والاحسان قيمة "ينبغي" ممارستها.

سادساً: القيم المقدسة تفيض من عقل البشر، وإنما العقل واحد عند الجميع، إذ الناس يشتركون فيه ويتواصلون بالقيم النابعة منه، ويتحاكمون عند النزاع إلى تلك القيم، لأنها قاعدتهم المشتركة، وحصنهم المنيع.

سابعاً: أما بالنسبة إلى القيم المشروعة، فهي تختلف من انسان لآخر، لأنها تتعلق بحاجاتهم المادية. ولكنها لا تكتسب صفة الشرعية ولا تصبح "خيراً" حسب اللغة الدينية إلا إذا خضعت لمعايير القيم المقدسة.

٢/ مصدر شرعية القيمة

سوف نتحدث إن شاء الله تعالى، عن فلسفة القيم بين الذات والموضوع، حيث اختلف الفلاسفة حول ما اذا كان الخير خيراً لأنه خير أم لأني أراه كذلك.

فبينما ربط بعض الفلاسفة القيم بالذات نجد آخرين ربطوها بالموضوع (المطلق). والذين ربطوها بالذات لم يعتقدوا بنظام داخلي للافضليات. أما الذين اعتقدوا بأن القيم العليا موجودة بصورة مستقلة عن ذات البشر، فقد قادتهم هذه الرؤية إلى فلسفة الأخلاق العلوية في بحث القيم كما إلى وجود القوانين المطلقة في بحث فلسفة القانون.

وفيما يلي نتحدث عن نقد نظريات القيم الذاتية، والتي يبدو أن أكثر النظريات الشائعة في بحث القيم، تميل إليها.

يقول اسبنيوزا: نحن لا نرغب في الشيء لكونه خيراً وإنما يكون الشيء خيراً لأننا نرغب فيه.

ويقول سانتيانا: إنه لا توجد أي قيمة منفصلة عن تقديرنا لها كما انه لا يوجد أي خير منفصل عن تفضيلنا له على عدمه أو على نقيضه[١].

يقول بيري: ان الشيء الذي تطيب رؤيته، وليس الشيء الذي يحسن اعتقاده، هو الذي له قيمة جمالية[٢].

والسؤال هو لماذا نرغب في اشياء ولا نرغب في غيرها، هل لانها نافعة أو جميلة؟ أم بلا معيار؟ وما الذي جعل هذا المعيار معياراً؟

ثم هل القيمة الجمالية أو غيرها، هي القيمة التي يتحسّس بها الإنسان نفسه أم الآخرون أيضاً إذا أحسوا بها أصبحت ذات قيمة؟

١- القيم الواقعية الجديدة، ص ٣١١.
٢- المصدر، ص ٣٠٩.

ثم إن الاعتراف بوجود الأشياء والأحياء ألا يعني الاعتراف بقيمتها في ذاته؟ أليس هذه النظرية هي نظرية جاهلية تنبع من الكفر بسائر الأشياء، فقط الذات هي التي تعترف بها؟

انطلاقاً من هذه الحقائق، نقول:

أولاً: إن المبدأ الذاتي في تقييم القيم في حيال المبدأ الموضوعي هو المسؤول - فيما يبدو – عن كثير من سلبيات المادية... بل لعلها هي أزمتها الكامنة التي لا يجدون لها حلاً. كيف ذلك؟

الهيجلية مثلاً: ترى ان مبدأ الحق هو إرادة الإنسان الذاتية، ولكنه يتوسّل بمنطقها الجدلي لينتقل عن هذا الاطار إلى الإطار الكلي - وهو ارادة الخير (الكليّة) والاحساس باحترام الآخرين. وذلك عبر ايجاد تناقض بين ارادة الذات وارادة الكل وبالجمع بينهما تنشأ الارادة المطلقة حيث تخضع الارادة الذاتية للارادة الكلية (الموضوعية) اختياراً لكي تتحقق الارادتان معا.

اما طريقة الجمع بينهما بالطباق (ثالث مبادئ المنطق الجدلي) فهو غير ضروري، لانهما مجموعان سلفاً. وذلك ضمن مبدأ أسمى وهو مبدأ الخير المطلق، وهو ارادة الله سبحانه الذي خلقني وجعل لي حقوقاً، وخلق الآخرين وجعل لهم كذلك حقوقاً مماثلة، بلى لأن ارادة هيجل ألاّ يشرك هذا المبدأ في منطقه اضطر إلى اختلاق هذا المنطق الجدلي لحل مشاكله، ونتساءل هل لهذا المنطق الجدلي من البرهان ما ليس لمبدأ الخير المطلق حتى يكون هذا دليلاً على ذلك؟ كلا.

ثانياً: هذه الجدلية لا تعترف وبصورة حاسمة بحق لأيّ شيء سوى الإنسان، (حقوق الحيوان مثلاً) ولكن ذات الطباق الجدلي الذي اثبت به قيمة الارادة المطلقة (بعد الارادة الكلية) يمكن اجراؤه لاثبات حقوق سائر الكائنات، صحيح انها لا تملك ارادة وبذلك لا تستحق حقاً، ولكنها تملك وجوداً وللوجود حقوق بقدره حسب وجداننا الذي به اعتقدنا بالحق لصاحب الارادة.

وبتعبير آخر: لماذا آمنا بحق صاحب الارادة؟ أليس بالوجدان، فكيف نطق الوجدان لحظة ثم سكت؟ ألا يمكن إستنطاقه؟ وكيف ان مجموعة من القواعد المترتبة على ذلك الوجدان حجة ولكن ليس ذات الوجدان حجة، ومَثَلُ هؤلاء، مثل من استنبط ماء ثم اجراه عبر سواقي في مزرعة، فلما نقص الماء اخذ يرشّ على سائر الأرض منه رذاذاً، فقيل له ألا تستنبط الماء من بئر جديدة؟ فقال: لا إنما الماء فقط هو الذي ينبع من البئر الاولى.كلا الماء هو الماء، والبئر هي البئر، والقدرة على إستنباط الماء موجودة دائماً، فلا داعي لذلك النبع والاكتفاء برذاذ الماء بل في بعض الاحيان بخيال الماء، أليس كذلك؟

ثالثاً: النظرية المادية تبدأ من محيط ضيق ولكنها لا تلبث أن تتوسع بطريقة غير منتظمة، ولا مبررّة، فتقع في تناقضات كثيرة، وعادة تتوسل ببعض التعميمات غير المبررة لحل الاشكالية، بينما النظرة الاسلامية (الالهية) تبدأ بالايمان والاعتراف بكل الحقيقة، وتجعل للحقيقة اطاراً كبيراً وواسعاً (الروح، العقل زائد العاطفة، الإنسان زائد الكائنات). فلا تناقض ولا صراع ولا محاولات حل لهما.

والمشكلة الكبرى عند هذه المذاهب عدم قدرتها على ايجاد أساس متين للاخلاق، ولحقوق الإنسان، بل حقوق سائر الكائنات (الاحياء أو الاشياء).

فعلى "نظرية الاهتمام"، عند بيري، ونظرية "الارادة الحرة" عند هيجل ونظرية "أنا" الوجودية ما هو أساس الأخلاق والاعتراف باهتمامات الآخرين وبإراداتهم وبوجوداتهم؟

إن هذه النظريات تجعل الذات محور وجود العالم. أما الآخرون فيصبح وجودهم ثانوياً، إنما يبرر وجودهم من خلال وجود "أنا" لأنهم ينفعونه، أو لأنه من دونهم لا يجد "أنا" من يؤنسه، وهكذا.

وهذا التبرير - حتى لو كان مقنعاً - يجعل الإنسان يفضل مصالحه الذاتية على مصالح الآخرين. ويرى ان وجوده هو الاولى، فيصبح التناقض والصراع سمة العالم بينما الأخلاق بحاجة إلى قوة كبيرة لتبريرها.

وقد سعى الانبياء والاوصياء عليهم السلام من اجل تطهير النفس البشرية من الانانية، ودفعها إلى مستوى العيش مع الآخرين. وكانت نتيجة ذلك كله ان تربّت البشرية على قيم الخير (وتحولت إلى أعراف وقواعد قانونية ومناهج تربوية).

ولكن الفكر المادي جاء يوجه تيار الثقافة إلى الجهة المعاكسة تماماً، فهل لأنهم بعد أن أُشْبِعوا بتلك القيم لم يعودوا يحسون بالحاجة إلى الدين الذي كرّسها في نفوسهم (كما يزعم البعض)[1]؟ أو لأن إمكانات العلم والتقنية الحديثة أطلقت شهوات البشر من عقالها الديني وجاء الفلاسفة يبررون ذلك الانفلات (لانهم كانوا عادة يمثلون روح مجتمعاتهم والوجهة العامة فيها)؟ أو لأن الصراع بين الدين والعلم الذي سببه جمود الكنيسة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر انعكس على التيار العام للفلاسفة بحيث لم يعد الفيلسوف حكيماً إلا اذا تجرد عن الدين (كما كان الامر بعكس ذلك في القرون الوسطى تماماً)؟

وانّى كان السبب فإن فلاسفة القرنين الأخيرين، ساروا في الاتجاه المعاكس تماماً لحركة الأنبياء عليهم السلام. وكانت النتيجة انهم حبّذوا الكفر على الايمان، كيف؟

جوهر الكفر هو إنكار الشيء بما له من أبعاد وظلال وحقوق، بينما الايمان إعتراف به. واتجاه العلم الذي يجعل القيمة ذات الإنسان يكفر - في البدأ لا أقل - بكل شيء وراء الذات.

١- يراجع فلسفة الأخلاق في البحوث الأخيرة.

وفي الواقع إنما ينكر الإنسان شيئاً لكي ينكر حقه عليه ويتخلّص - بالتالي - من أي التزام نحوه، والفكر المادي سابقاً كان ينكر وجود الشيء لكي لا يلتزم تجاهه بحق. لأن الإنسان كان يعرف - بفطرته - إن الاعتراف بالشيء إعتراف بحقه، ولكنه اليوم ينكر هذا التلازم ويقول: من قال إن القيمة تنبع من وجود الاشياء، ومن قال إن الاعتراف بالشيء يورث التزاماً؟ كلا إنما القيمة نفسك ولا غير.

ويبدو إن التطور الطبيعي للفكر المادي يقودنا إلى الوجودية الملحدة التي تبلورت عند (هايديغر وسارتر) وزعمت ان اصل القيم "انا" وجودك ووجودي (نفسك ونفسي). وهذا تطور طبيعي لعملية القلب التي قام بها "كانت" حيث أراد أن يجعل النفس مصدر القيم - كما فعل غاليلو حيث جعل الشمس محور الوجود - من هنا رأى "روبر" ان الوجودية، مفهوم كانتي جداً من حيث "صورتيه" فالموجود هو المصدر الوحيد للقيم، وهو ما يماثل عند "كانت" الارادة الحسنة [1].

وهذا هو مأزق المادية، اذ حسب سارتر، لا شيء، لا شيء يبرّرني لو تبنيت هذه الفكرة أو تلك[2].

إذاً لماذا الاعتراف بوجود الآخرين، وما هي صفة الالزام في البناء الاجتماعي والأخلاقي؟

فاذا ألغينا الآخر فلماذا الأخلاق، واذا اعترفنا به فما الفرق بينه وبين غيره من سائر الكائنات؟

كيف ولماذا ندرس فلسفة الأخلاق؟

١- انظر المذاهب الأخلاقية، ص ١٢٨.
٢- المصدر، ص ١٢٩.

إنما نهدف من خلال دراسة فلسفة الأخلاق (في المذاهب الفلسفية الكبرى) معرفة هدف الحياة الأسمى والقيمة الأساسية فيها. وتتخذ هذه الدراسة أهمية كبرى، لأن إنكار الماديين العقل والروح والأخلاق العلوية، أدخل الفكر البشري في مآزق؛ فمن جهة لا يمكنه أن ينكر الحقائق القائمة فيما وراء الذات، لأنه آنئذ يقع في المشكلة التي هرب منها، لأنه في الأساس يريد أن يفلسف الأخلاق بصورة أو بأخرى ولكنه - من جهة ثانية - لا يمكنه أن يبررها لأنه جعل القيمة في الذات. وبتعبير أوضح؛ الفكر المادي إذا أنكر الحقائق وراء الذات تجرد من الأخلاق كلياً، وذلك هو الخطر الذي يريد أن يتجنبه، وإذا اعترف بها لم يجد تبريراً كافياً لاعترافه لأنه جعل محور الكون ذاته وليس أي شيء آخر. فإذا كان يريد قبول الحقائق الماورائية (ماوراء الذات) فلماذا أنكرها، وإذا كان ينكرها فلماذا الأخلاق؟

١/ بين الفلسفة والأخلاق

أهم سؤالين فُرضا على الفكر البشري منذ القدم هما: ماذا نعرف؟ وماذا نعمل؟ وقد عنت الفلسفة منذ نشأتها بهما؛ وقد أنزلت الشرائع الالهية للإجابة عنهما.

والسؤال عما نعمل، هو الذي يتكفل الإجابة عنه علم الأخلاق، بينما السؤال الآخر عمّا نعلم، يقودنا إلى سائر بحوث المنطق والفلسفة.

٢/ لماذا ندرس المذاهب الأخلاقية؟

لماذا ندرس المذاهب الأخلاقية، وماذا نستفيد من مقارنتها ببصائر الوحي؟

تأتي ضرورة دراسة هذه المذاهب من أنها تشكل قاعدة السلوك في الحياة البشرية، ومن دون معرفتها ونقدها، كيف يمكن التعامل مع مختلف أنواع السلوك؟

وقد جاءت الرسالات الالهية بكل ما يحتاجه الإنسان في كل عصر، كما سعى الفلاسفة - بدورهم - من أجل وعي حقائق الكون، وكانت تقودهم فكرة

سامية، هي وعي الحقائق كلها. وبالرغم من أنّ البشرية لا تزال تحبو في هذا الطريق، فان هذا الطموح يعتبر بذاته من نعم الله على الإنسان.

٣/ تقسيم المذاهب الأخلاقية

يرى البعض أن المذاهب الأخلاقية الكبرى تعتمد على واحدة من النظرات الثلاث التالية:

أولاً: إن في الكون نظاماً أسمى (النظرة العلوية).

ثانياً: لا نظام للكون (الطبيعية).

ثالثاً: إن هناك نظاماً لَمّا يكتمل (الفاعلية)[١].

ما هي نظرة الإسلام والدين - بصفة عامّة - إلى الأخلاق ضمن هذا التقسيم؟ يبدو أنها تتمثل في النقاط التالية:

الأولى: وجود نظام شامل للخليقة (السنن الالهية).

الثانية: أنه نظام يهيمن عليه الربّ ويدبره.

الثالثة: أنه نظام يمكن أن يتجدد أو يتكامل أو يتغيّر بالدعاء من عند البشر وبالبداء من عند الله سبحانه. فنظرة الإسلام شبيهة من جهة بالنظرة (الفاعلية) من حيث ايمانها بدور الإنسان في تطوير النظام وتغييره وبالتالي في تكامل الخلق وذلك بالدعاء وبالعمل الصالح وبالإيمان بالقدرة الإلهية وأنه يخلق ما يشاء وان يده مبسوطة.

وهي - من جهة ثانية - قريبة من النظرة العلويّة، حيث أنها قائلة بوجود نظام أسمى قائم فعلاً على الرغم من امكانية تغييره وتكميله.

٤/ الطاعة في المذاهب الأخلاقية

المذهب الأخلاقي - أنّى كان - منظومة من التعاليم والأوامر، وعلى الإنسان الانصياع لها، وبالتالي طاعة ذلك المذهب فيها. وهنا يفرض السؤال التالي: لماذا الطاعة؟ وما الذي يبررّها؛ سواءً في الدين أو في الفلسفة؟ سوف

١- المذاهب الأخلاقية الكبرى، ص١٧.

نستعرض فيما يلي طائفة من الحجج التي أقامتها المذاهب الدينية والفلسفية على ضرورة الطاعة.

ألف/ الطاعة في المذهب الديني:

الأسباب التالية تدعونا في المذهب الديني إلى الطاعة:

أولاً: لأن الله سبحانه اهل للطاعة، بالعاطفة الجيّاشة، والحب العميق. ذلك لأن النفس قد جبلت على أمرين:

١/ حب الجمال والكمال، وبالتالي حب من له الأسماء العليا والصفات الجميلة.

٢/ التقرب إلى الحبيب باتباعه وطاعته.

وعندما يعرف البشر ربه، وتتجلّى لقلبه أسماؤه الحسنى، وصفات الكمال والجمال التي لا توصف، هناك يختار طاعته. وهذه أسمى درجات الطاعة، حيث يناجي الإمام علي عليه السلام ربه فيقول: "بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك".. أو يقول: "وهبني صبرت على حرّ نارك فكيف أصبر على فراقك"[١].

باء/ الطاعة في المذاهب الفلسفية

أما المذاهب الفلسفية فقد بررت الطاعة بصور شتى:

١/ منها أن الطاعة إنما هي لازمة لأن علينا الإستسلام لقوى الطبيعة، ولكن هذه النظرية لا يمكن لها أن تبرر الطاعة الواعية، بل التبعية القسرية التي يحتل الفرد كرسيه في مهب العاصفة، كما أنها تؤكد في ذاته الكراهية للطبيعة وقوتها.

٢/ ومنها إن الطاعة نابعة من الحب المنزه غير العقلائي، بل وحتى المخالف لأي عقل. وهذه النطرية أثارت استنكار الكثير من العقلانيين، وأدت إلى تعارض حاد بين العقل والإيمان أو قل بين العقل والأخلاق.

١- مفاتيح الجنان، دعاء الكميل.

المذاهب العلوية

هنا نستعرض دراستنا النقدية عن المذاهب العلوية التي تشمل مدرسة أفلاطون وأرسطو والرواقيين، وأتباع الأفلاطونية الجديدة، وهكذا المدارس العلوية الجديدة.

١/ نقد المدرسة الأفلاطونية

وهذه المدرسة هي امتداد للفيثاغوريين والتي تجد فيها ثلاث قيم رئيسية؛ الطهارة (أو التنسك)، واحترام التضامن (أو ضبط النفس)، والعدالة (العدالة هي المساواة، والإعتدال هو المقياس).

واعتقدوا أنّ كتاب الخلق مكتوب بلغة رياضيّة، وعلى الروح أن تسموا إلى حالة التناسق معها ولن ترتقي إلا بالنقاء والتنسّك.

والمدرسة الفيثاغورية أثّرت تأثيراً بالغاً على سقراط وافلاطون، ومن ثم ارسطو، ومن خلالهم صبغت الفلسفة، عبر تأريخها الممتد، بصبغتها المتميّزة. وهذه المدرسة تبدو خليطاً من تعاليم دينية، وأفكار بشرية، ولعلّ هذا الخلط هو سرّ استمرارها.

وهذه النظرية مردودة، لأن عالم المُثُل الذي اقترحه على أهل الأرض:

أولاً: يمثل طغياناً فلسفياً في الفكر.

ثانياً: ويجسّد إستبداداً في المجتمع.

ثالثاً: كما أنه يورث صرامة في القانون لا تحتملها حالة الضعف البشرية بالرغم من أن افلاطون إنتبه إلى هذه الصرامة فحاول التخفيف منها في تشريع القوانين.

٢/ نقد مدرسة أرسطو

يبدو أن النظرية الاجتماعية عند ارسطو، الذي لقّب بالمعلم، لفرط تأثير أفكاره (وبالذات في المنطق) أنها قائمة على ثلاث قيم؛ العدل، والعقل، والحبّ. ولعلّ قيمة الحب هي الأسمى، حيث تعني عنده الانجذاب نحو

الصورة الأكمل (المتمثلة عنده في الإله)، بينما العدل وسيلة حياتية (في حياة الفرد وفي حياة المجتمع) للتسامي نحو تلك الصورة الأكمل. أما العقل، فهو تعبير عن الفضيلة وضبط النفس للقيام بالدور المناسب لبلوغ الهدف الأسمى. دعنا نقيم هذه القيم.

أولاً: العدالة كلمة طيبة وجذابة ولكنها غامضة (ولعل هذا سرّ جاذبيتها، لأن كل واحد يفسرها حسب هواه) والحدّ الوسط ليس معياراً، فالحد الوسط من الظلم، ليس مطلوباً، ولا من أكل الخبيث، إنما المعيار هو الحق، وأداء الحق إلى صاحبه هو العدل. فلماذا لا نستبدل كلمة العدل بالحق لنكون أوضح وأصدق.

ثانياً: العقل - بدوره - مفهوم غامض، قد نختلف في أبعاده وآفاقه، فإذا كان العقل مخالفة الشهوات، فليس كل الشهوات (الميول والغرائز) باطلة، بل هي مطلوبة لاستمرار الحياة. وإذا كان المراد منه تطبيق العدالة، فالحديث يعود إلى التساؤل عن ما هيّة العدالة.

ثالثاً: الحبّ - لا ريب - أنه فضيلة، بل هو أفضل فضيلة إذا كان المراد منه التقرب إلى الله رب القدرة والجمال والأسماء الحسنى، ولكنه ليس الفضيلة - الوحيدة - إذ أن المصلحة - التي تتجلّى في زينة الحياة الدنيا - هي الأخرى فضيلة ولو بنسبة أدنى، وعلينا ألاّ ننسى أنها تشكل قيمة أساسية عند أغلب البشر، وبالتالي دافعاً مناسباً لهم لتطبيق العدالة والالتزام بالحق.

٣/ نقد المدرسة الرواقية

أول ما يصدمنا من فلسفة المدرسة الرواقية، هو ذلك الخلط العجيب بين الخالق والمخلوق، وهو أهمّ بند من بنود مدرستهم، حيث أنهم يقولون:

١- "الكون الهي" بأكمله، لأنه وليد "نفخة" أو "نار" هي - في الوقت نفسه - الإله والعقل والحياة معاً، وكل كائن (ولاسيمّا الإنسان وروحه) شرارة جزئية منها. أما المادة فليست (كما سيقول "برغسون" فيما بعد) سوى تثاقل

انتقالي في هذا "التوتر الخلاق": فهي ليست مبدأ يعارض الذكاء الأعلى، ولكن مجرد حالة دنيا لهذا الذكاء"[1].

٢- أما البند الثاني، فهو زعمهم بوجود وحي دائم في كل نفس. فالحكمة تعني، فهم هذا النظام وتقبّله، وما هو خير من ذلك، المشاركة فيه طواعية واختياراً من صميم الفؤاد، وأن يعثر المرء في داخل نفسه على الوحي الالهي، الذي يتولد عنه كل شيء، ثم يطور هذا الوحي ويقيه من كل هوى أو أنانية أو رغبة، أي من كل ما هو "مادة"[2].

٣- أما القيمة الأساسية عندهم، فإنها تتمثل في البند الثالث وهو الانسجام مع النظام. "وهكذا فان الفضيلة تستند بشكل ما هوي إلى فعل وحيد هو التقبّل النهائي - للنظام - وهو فعل شبيه باللطف (الالهي) المسيحي، من حيث أنه يحوّل طبيعة الكائن ويمنحه دفعة واحدة، ذلك الثبات.. ذلك التجانس الداخلي.. ذلك التوافق الذي كان يفتقده مع العالم طالما كانت الاهواء هي التي تقود الكائن.."[3].

٤- ومن خلال هذه القيم، اهتمت المدرسة الرواقية بأخوّة البشر (وهو البند الرابع في مدرستهم) حيث عمدوا - بعد ذلك - إلى تطوير فكرة كان منهجهم يحتويها بصورة ضمنيّة، وهي فكرة أن جميع البشر (بما فيهم "الغرباء" والعبيد) اخوة، باعتبارهم جميعاً وليدي ذات النفخة الالهية، مما كان من شأنه تعبيد الطريق لاخلاق اجتماعية مستوحاة من نظرة بشرية جامعة ومحبة للانسانية، مختلفة كل الاختلاف عن الاعتكاف المترفّع الذي يستنتج من مذهبهم نظرياً لدى النظر إليه من زاوية أخرى.

١- المسألة الفلسفية، د. محمد عبد الرحمن مرحب (سلسلة زدني علماً)، ص٤٣.
٢- المصدر، ص٤٤.
٣- المصدر .

٥- وألحّوا أيضاً على الجانب الديني (الذي يستطيع شمول جميع العبادات ويأذن بالصلاة) ذلك الفعل المعبّر عن التواضع الواثق تجاه "الفاعلية المهيمنة" وهو الجانب الذي تتضمنه فكرة العقل الكلي.

٦- وأشاروا أخيراً -وهذا معنى مقالة ايبيكتيت الشهيرة "سوستين وأبستين" (sustine et Abstine)- إلى المعنى الأخلاقي للاستقلال الذاتي الداخلي (لا تتوقف الفضيلة والسعادة إلا على الرأي الذي نحمله عن الاشياء، وهذا الرأي من فعل ارادتنا وحدها).

٧- كما أشاروا إلى باطل الخيرات المزيّفة (كالثراء الخ) مما يجب ألاّ يستعمله الحكيم إلا كما يستعمل "أثاثاً في فندق"[١].

وبالرغم من المساهمات الايجابية لهذه المدرسة في التأمل الأخلاقي وأثرها فيه خلال ألفي عام، فانها تنطوي على نقاط ضعف كثيرة في المنهج وفي النتائج نذكرها تباعاً:

أولاً: الخلط الغريب، بين مقام الالوهية السامق ومنزلة العبودية، وقد سبب هذا الخلط في أخطاء كبيرة وقع فيها الفكر الفلسفي عبر قرون. كلا؛ الله سبحانه أكبر وأعلى من أن يتنزل من مقام عظمته ويصبح مخلوقاً، والعلاقة بينه - سبحانه - وبين خلقه ليست العلاقة بين البحر والسحاب، أو النبع والرافد، بل هو الخالق الذي أبدع الكون إبداعاً وأنشأه إنشاءً، وهكذا فإن المسافة قائمة بينه وبين خلقه أنّى اقترب الخلق إليه[٢].

ثانياً: القلب البشري يتلقّى نوعين من الوحي، ويستمع إلى نمطين من النداء:

ألف- النداء الرحماني الذي يوحي به ملائكة الرب رحمةً منه بالبشر.

باء- النداء الشيطاني الذي منشؤه ضعف البشر وإبليسه المريد.

١- المسألة الفلسفية، د. محمد عبد الرحمن مرحب (سلسلة زدني علماً)، ص ٤٥.

٢- ناقشنا هذه الفكرة في كتابنا العرفان الاسلامي بتفصيل.

والمدرسة الرواقية لم تعرفنا كيفية الفصل بين هذين الندائين، ودعت الإنسان إلى التأمل الداخلي، والاستماع إلى وحي ضميره. حقاً إنه مع التمييز بين الوحيين يستطيع البشر أن يكتشف حقائق كثيرة، إلا ان المشكلة في كيفية التمييز بين الندائين، ثم ان ذلك لا يعني إلغاء دور الوحي الالهي غير المباشر للانسان عبر الرسل والكتب، والذي لم تشر إليه المدرسة الرواقية.

ثالثاً: حين اعتبرت المدرسة الرواقية الفضيلة تَقَبُّل النظام طواعية، فانها قرّبت إلينا فكرة التقوى، وهي قمية مباركة. ولكن السؤال الذي بقي عائماً وغامضاً هو: لماذا يتنازل البشر عن ذاته من أجل النظام، وإذا كان تقبل النظام طواعية قيمة أساسية، فلماذا مُنِح البشر حرية اتخاذ قرار التقبل أو عدم التقبل؟

بلى؛ البصائر الاسلامية تبلور فكرة التقوى؛ ألف: عبر بيان سلسلة من الروادع والمرغبات. باء: كما تعتبر حرية الفرد أساساً لوجوده، وتجعل التوبة بعد الذنب أهم حكمة. وهذا ما رفضته المدرسة الرواقية، التي زعمت أن الفضيلة لا تتجزأ، وأن الحكيم هو الذي يلتزم بكل أبعاد الفضيلة، وأن الجزئيات لا أهمية لها[1].

رابعاً: أما فكرة الاخوة فهي لا ريب أعظم انجاز للمدرسة الرواقية، إلا أنها قد تتعارض مع فكرتهم عن الاعتزال والترفع، كما سبق..

خامساً: وفكرتهم عن العبادات - بالرغم من صحتها عموماً - تتنافى ونظرتهم عن المخلوقات، فاذا كان الخالق والمخلوق واحداً فلماذا العبادة؟ ومن يعبد من؟

سادساً: إن تأكيدهم على زيف الخيرات الأرضية تتنافى مع الجانب البشري، الذي اعترفوا به. فالإنسان يعيش - بالتالي - فوق الأرض، ولا بد ان يتعامل مع ما يجري في الأرض من عوامل، وقد أوضحنا أن قمية المصالح

١- المسألة الفلسفية، د. محمد عبد الرحمن مرحب (سلسلة زدني علماً)، ص٤٥.

الأرضية (المادية) يجب ألاّ تُنسى، بالرغم من أن قمية التطلّعات الروحية أعظم.

٤/ نقد الافلاطونية الجديدة

في القرن (٢٥٠/ق.م.) مزج افلوطين الإسكندراني، أفكار افلاطون بالفيثاغورية الجديدة مع تصوّف الشرق، وصنع منها فلسفة طريفة كان لها أكبر الأثر في بعض المذاهب المسيحية، ثم في بعض المذاهب الفلسفية عند المسلمين؛ بل وفي بعض الفرق الاسلامية.

وقيم هذه الفلسفة الجديدة هي التالية:

ترى هذه الفلسفة أن أصل كل شيء هو الواحد، وهو الالهي في كماله وتعاليه، وهو الخير المطلق، ولكنه ينطوي على ميل (واندفاع) نحو الخلاقية والفيض والاشعاع التلقائي المستمر، وبالتالي إلى التكرر في الأرواح الجزئية بصورة لا نهائية، وهذه الأرواح الجزئية هم الكائنات التي تحتفظ كل واحدة منها ببعض ذلك الواحد والكائن المطلق. ومن هنا فان القيمة الأساسية تتمثل في عودة الأجزاء (الكائنات) إلى الكل[١].

أما الشر فهو بالتالي الابتعاد عن "الالهي" الأصلي، وأفدح من ذلك الإنغلاق داخل هذه "النهائية" وهذا الانحطاط وارتضائهما. وأما طريق الخلاص فهي في حركة "تحول عكسي" هي عودة الروح تدريجياً نحو الإله، حتى يتم استغراقها فيه من جديد.

أولاً: أساس مدرسة افلوطين قائم على نظرية الفيض التي ترى ان العلاقة بين الخالق والكائنات هي العلاقة بين الشمس وشعاعها، والبحر وقطراته، وهي نظرية باطلة، إذ أنها تكفر بقدرة الخالق على الخلق، وبأي علم وتدبير له (إذ النظرية ترى أن صدور المخلوق من الخالق يتم بغير إرادة منه، وحتى

١- راجع المصدر، ص ٤٦؛ وأيضاً كتابنا العرفان الاسلامي؛ عن نظرية الفيض.

بغير وعي) وتكفر بقدرة الله على تغيير الكائنات وعلى إعادتها بعد فنائها (البعث).

وهي أساساً مجرد فرضية لا دليل عليها، بل ادلّة الوجدان تهدينا إلى خلاّقية الرب، ومالكيته وعلمه وقدرته سبحانه.

كما أن في الكائنات، آيات المخلوقية والمعبودية له سبحانه، وتهدينا تلك الآيات إلى انها كائنات مخلوقة، وليست من ذات الالوهية، كما تهدينا إلى أن خالقها خلوّ عن صفاتها.

ثانياً: حركة المخلوق إلى سماء الخالق تعتبر قيمة سامية، ولكن لن يتم استغراقها فيه، فهي حركة دائمة لا تنتهي إلى نقطة الاندماج، وبالتالي ليست هناك نهاية لتقدم البشر.

ثالثاً: الفضائل التي نعتها افلوطين بالمتواضعة هي - في الواقع - أصل فضائل الإنسان (التعفّف - العدالة). بينما تلك الفضائل التي نعتها بالتأمل عبر العين الداخلية، ليس إلا صدى قيمة الجمال التي اعتبرتها مدرسة اثينا إحدى القيم الثلاث، بالاضافة إلى النظام والعقل.

رابعاً: إن قيم الحياة الدنيا ليست عبثاً، وعلينا أن نهتم بها كما نهتم بالقيم العليا، لأن كلتا المنظومتين من القيم تشتركان في أننا نحس بها وننتفع بها، بالرغم من أن الحياة الآخرة أهم من الحياة الأولى، لما فيها من الخلود والعمق، حيث يقول ربنا سبحانه: ﴿وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[1] إلا أن الحياة الدنيا تتسم بأهمية الحضور الفعلي، وبأنها تمهيد للآخرة، فهي بمثابة المرزعة، وتلك بمثابة الحصاد؛ بل ان الحياة الثانية ليست سوى امتداداً للأولى. فأيّ مذهب يتجاهل الحياة الأولى وما فيها من مصالح يعتبر مذهباً خاطئاً وغير قابل للتطبيق. وهذا النقد لا يخص المذهب الأفلوطيني فقط، بل يشمل كل المذاهب

١- الأعلى/ ١٧.

الصوفية التي ألغت دور الإنسان في هذه الدنيا، وألغت القيم المادية التي تحركه فيها.

٥/ المذاهب العلوية الجديدة

مدرسة مونتاني التي تعتبر خليطاً من الأفكار الرواقية والبيرونية والأبيقورية وحتى المسيحية المحافظة، هذه المدرسة افتتحت عصر التأمل الأخلاقي الجديد في أوربا، وقد اتبعه باسكال في أكثر أفكاره.

وترى هذه المدرسة، وجود نظام طبيعي أنشأه الرب تعالى، ولهذا النظام غاياته التي تقصر عقولنا دون وعيها جميعاً. ومن هنا فلا نقطع بشيء (لا أفكار الملحدين ولا تعصب المتدينين)، وإنما القيمة الأسمى الاستسلام للطبيعة، والسير وراء الأعراف التي سار عليها الأقدمون، وعرفنا صحتها من قدمها، والاستفادة من كل الخيرات في الأرض، وعدم العسر (والتكلّف) والابتعاد عن الطموح (الحرص) وتقبل الموت والألم لأنهما من الطبيعة[١].

المذاهب الدينية

١/ المزدكية (الزردشتية)

منذ زرادشت (بين العاشر والسادس قبل الميلاد) الذي منهج الفكر الايراني في الأخلاق، حتى القرن الثالث الميلادي، حيث ولدت المانوية، كان الفكر الأخلاقي الايراني ذات أهمية في إبراز المسؤلية الإنسانية، ولكن بحجج غير مقنعة، حيث كان الفكر السائد عليه، وهو (المزدكية) مذهباً ثنوياً ينصّ على وجود مبدأ للخير هو (مزدا) أو "اهورامزدا" وهو يميل إلى أن يخلق ثانية في الكون، حالة المباهج والكمال، التي عرفها هذا الكون قبل أن يأتيه "اهريمان"، مبدأ الشر، ليفسد كل شيء (في المادة، كما في الروح). وتتضمن عملية الاستعادة هذه مساهمة الإنسان في مساعدة الإله في هذا الصراع الدائر من

[١]- المسألة الفلسفية، د. محمد عبد الرحمن مرحب (سلسلة زدني علماً).

أجل "السعادة الخالدة". ويصف لنا كتاب المزدكية المقدس (الـ"آفستا") بالتفصيل مراحل هذا الصراع وتطوّراته، والنصر النهائي (الذي يكون لإله الخير أخيراً). وهكذا تتجلى في هذا المذهب مسؤولية الإنسان في مساعدة إله الخير.

٢/ الكونفوشيوسية والطاوية

كونفوشيوس (القرن السادس قبل الميلاد) تميّزت ديانته - (الصينية الأصل) - بالاتجاه السياسي، وآمن بالسنّة الموروثة، واعترف بالقيم التي تنشأ أساساً من البر (برّ الأبناء لآبائهم)، حيث رأت هذه الديانة أن البرّ (النقي بالذات) هو المصدر الذي تستمد منه الفضائل الأخرى؛ طاعة ولي الامر، واجبات الزوجة تجاه الزوج، الواجبات تجاه الأسرة، تجاه الصديق، تجاه الآخرين. وهكذا فان هذه الأخلاقية تقوم على الحدب الكلي، المستند - ولنكرر القول - إلى فكرة وجود النظام (أو لعلّه ما يقارب نظاماً) في الطبيعة، وتتجلى في المقام الأول على شكل التهذيب البالغ الذي تتميز به الآداب الإجتماعية[1].

وليس في هاتين الديانتين إلا آثار من الديانة الإلهية، التي يبدو انها كانت في تلك البلاد قبل أن تنالها يد التحريف. فوجود نظام أعلى يجب أن نكيّف أنفسنا معه، ووصايا عملية تستنبط من ذلك النظام، وهي على العموم وصايا اجتماعية تخفف من حدّة الصراع بين الناس (الطاعة - الالتزام بالواجبات - التواضع) هذه تشبه آثار الديانات الإلهية.

٣/ اليهودية والمسيحية

حصيلة الرؤية اليهودية رؤية أحدية (كما الديانات الكبرى)، وأن المثل الأعلى فيها طهارة القلب واحترام العدالة. فالعالم مملكة الرب خالق الكون، ذلك الرب المهيمن الجبار، الذي يَعِدُ بالثواب الذين يحبونه ويحفظون وصاياه، بينما يوعد عقاباً شديداً من يعصيه.

١- المسألة الفلسفية، د. محمد عبد الرحمن مرحب (سلسلة زدني علماً)، ص ٧١.

أما المسيحية فإنها تعتمد - في العموم - ذات المفاهيم اليهودية، وفيها اتجاهان:

١- أما الاتجاه الأول فهو متشائم نسبياً. فالله خالق السماء والأرض، ولكن هناك الشيطان الذي يجرّ الإنسان إلى حيث الخطيئة. وأما الشيطان فهو المخلوق المتمرّد الذي سقط، وجرّ معه في سقوطه آدم وحواء[١]..

٢- الاتجاه الثاني يتمثّل في المذهب الانجيلي المتفائل، لأن "البشارة" المسيحية هي أن الله قبل كل شيء أب لا متناهي الحدب، وأما الناس فهم أطفاله. ويتلخّص إصحاح الناموس والأنبياء بالقاعدتين التاليتين؛ محبة الله "احبب الرب إلهك من كل قلبك" ثم لكي نقدم له خير دليل على هذا الحب، محبة الغير "واحبب قريبك كنفسك". وهذا ما يبرّر - كما تجدر ملاحظته - إدانة كل ما قد يضلّنا عن هذا الحب (كالأهواء والثراء..)

٤/ البروتستانتية

التفسير اللوثري للقيم المسيحية، والذي تأثر بالروح الالمانية (التحرر من غلّ الماضي، والانطلاق في رحاب الفاعلية) وأن الوجود لا يتأكد إلا بواسطة السلبية المسبقة، واظهار الطاقات الكامنة)[٢].

هذا التفسير كان ذا أثر كبير في التقدم الذي نشهده في العالم، لأنه لم يدمّر العقيدة، بل أعاد صياغتها، حتى تحولت إلى طاقة بناء في مسيرة البشر، طبعاً لم يقم لوثر إلا بجانب من هذه العملية، حيث جاء كالفن الفرنسي لتكميل الصورة. فلوثر، أخرج الدين من وصاية الكنيسة، بينما أطره كالفن برسالة إنسانية.

٥/ الأديان العلمانية الحديثة

القيم التي دعت إليها الأديان العلمانية الحديثة تتشابه والقيم المسيحية، التي أشبعت أوربا بها، وقامت حضارتها عليها، ولكن تنكرت هذه المذاهب العلمانية لينبوع القيم، وحاولت الإنتفاع بالروافد فقط. ولكنها فقدت بذلك أصالتها

١- المصدر، ص٨٧.

٢- المسألة الفلسفية، د. محمد عبد الرحمن مرحب (سلسلة زدني علماً)، ص ٨٤ نقلاً عن توماس مان.

وبرهانها. فلماذا - مثلاً- نخلص للعمل لو لم يكن العالم قائماً على نظام عادل يدبره رب حكيم عليم؟ ولماذا العلم المشترك؟ ولماذا تسخير خيرات الأرض، ولماذا التقدم؟ إن الدين يأتي ببيان مفصل ومقنع لأصول هذه القيم، فلو حذفناه حذفناه بلا بديل مناسب.

المذاهب الطبيعية

١/ علاقة العلم بالأخلاق

قبل أن ندرس المذاهب الطبيعية التي اعتمدت في الاغلب على العلم، لا بدّ أن ندرس علاقة العلم بالأخلاق، وذلك عبر نقاط:

أولاً: العلم يتكامل.. وما هواليوم صحيح عند صاحبه بكل غرور، يصبح - غداً - باطلاً بكل تأكيد؛ فكيف نربط عجلة الأخلاق به، وهو لا يجرّ حمله[١]؟

ثانياً: العلم يعطي القوة للانسان، والمفروض أن نلجأ إلى الأخلاق لضبطه؛ فإذا ربطناها به، فان ذلك يكون بمثابة الغاء دور الأخلاق تماماً. وحسب برغسون في كتابه (الينبوعين): إن الخطر الأكبر في العلم في كون الوسائل المادية (التي يوفّرها العلم لنا) غير مصحوب بالضرورة بـ(تمدّد) للروح الإنسانية متناظر (ومساو) مع ذلك التضخّم[٢].

ثالثاً: العلم يبشر بأخلاق لا الزامية، وهو خلاف ما نتوقعه من الأخلاق. فالهدف من الأخلاق الالزام، وواضح أن العلم لا يمكنه أن يعطينا إياه، فإن "الأساتذة الفرنسيين" عبر حقبة ١٨٨٠ ظنّوا أن من الممكن إلغاء فرضية الإله التي قدّم بها العهد، وبناء أخلاق علمانية تطرح على الناس "نمطاً انموذجياً" لإنسان عقلاني بصورة تامة ومتناسق، واعتقدوا أن مزيّته القائمة على كونه مثلاً ستصبح ذات تأثير.. غير أن خطأهم كان مزدوجاً: أولاً: إذ ليس هناك أيّة صلة بين العلم والالتزام.. وثانياً: لأنه لا يوجد "ماهيّة للانسان" في مجموعة

١- المسألة الفلسفية، د. محمد عبد الرحمن مرحب (سلسلة زدني علماً)، ص٢٩.
٢- المصدر، ص ٢٧-٢٨.

من الخواص المثالية، علماً بأنه لا يكون الإنسان إنساناً حقاً إلا إذا تمّ تحققها فيه على وجه الأرض[1].

بلى من فوائد العلم أمران:

أولاً: إنه يكشف الحقائق بوضوح أكبر - خصوصاً في علم النفس والاجتماع. ومن حق الأخلاق أن تستفيد من هذه الحقائق، حيث يبيّن العلم موضوعة علم الأخلاق.

ثانياً: إن من شأن التقدم العلمي أن يخفف من مصاعب وآلام الناس؟.

ثم إن العلم - أنّى كان حقله - يكشف المتغيّرات في الحياة، والتي تختلف حسب الظروف وحسب مفردات الحقائق، كما وحسب الزمان. بينما الفلسفة - أنّى كان حقلها ومنها الحقل الأخلاقي عموماً - تتناول الجانب الثابت في الحياة. واما القيم فهي نمطان، قيم تتصل بالمتغيرات فتعتمد على العلم، وقيم تتّصل بالثوابت فتعتمد على الفلسفة (العقل). ومن هنا فان خلط موضوعات الفلسفة بموضوعات العلم يفسد العلم والفلسفة معاً.

والأخلاق من اختصاص الفلسفة، وإنما يقوم العلم بدور هامّ في بلورتها. فاذا قررت فلسفة الأخلاق ضرورة التجانس والتناغم في المجتمع، فان علم المجتمع يأتي ويبيّن أبعاد هذا التجانس وآفاقه؛ مثلاً يقول لنا - حسب التجارب - أن أفضل التجانس هو التجانس بين أفراد الطبقة دون إلغاء الطبقة مثلاً، بينما يأتي علم الرياضيات ليبيّن كيف يتمّ التجانس على أرض الواقع بالأرقام.. (توماس مور).

وإذا اعتمدت الفلسفة الأخلاقية مبدأ تدخل الدولة، فان آلية هذا التدخل تكون من اختصاص العلم بالاستفادة من الدوافع والمنفرات. أو بتعبير آخر؛ الترغيب والترهيب (هوبز) وكذلك حين تعتمد فلسفة الأخلاق مبدأ الضرر والمنفعة (على أساس القيم المادية)، فان آراء (متشنيكوف) تنفع في هذا الحقل، لمعرفة

١- المصدر، ص٣٠.

ردود كل فعل من المنافع، لتقييم النتائج على أساسه، وهكذا يتدخل علم الطب في حقل الأخلاق.

٢/ موجز تاريخي عن المذاهب الطبيعية

يعتمد هذا المذهب على العلم، لانتزاع أخلاقية مناسبة لتطوره..

وأول من ادعى ذلك كان أبيقور الذي طمح أن يكون حكيماً "عالماً" وينشئ فلسفة أخلاقية قائمة على العلم، إلا أن الفترة الكبرى لانتشار النظريات الطبيعية، تقع بشكل خاص في مطلع القرن الثاني عشر، ثم تمتد إلى أيامنا هذه، وكان الشكل الذي اتخذته في البدأ نفسانياً (سيكولوجيا) مع "بايل" و"هيوم" و"هلفسيوس" والخ.. ثم فيما بعد مع "جون ستيوارت ميل" أو "فوربيه".. واستندت بصورة أعم أيضاً على علم الاحياء "البيولوجيا" (فأخذت بذلك من جديد بوجهة نظر الرواقية القديمة التي كانت تشكل من إحدى زوايا النظر، "أخلاق أطباء" ترتكز على المعرفة الفيزيولوجية لذلك العصر) فكان ذلك مع "دولباك" Dholbach في أواسط القرن الثامن عشر، ثم لدى أطباء حقبة أعوام فجر التاسع عشر أمثال "كابانيس" Cabanis و "ديستوت دي تراسي".. وانتشرت أخيراً، لاسيّما، في فترة الشعبية الكبرى للنظريات التطورية (حوالي ١٨٨٠)[١].

ومنذ القرن الثامن عشر وحتى اليوم، يتقلّب هذا المذهب بين أحضان مختلف الحقول العلمية، فمع بايل وهيوم وهلفسيوس، ثم ستيوارت ميل وفوربيه، ينمو في حضن علم النفس. ثم تراه ينقلب إلى علماء الطبّ مع دولباك. ثم مع فرويد ومتشينكوف - الطبيبين الذين رعياه في المطب النفسي الحياتي - ومع هوبز في حضن الفيزياء، أو مع ماركس في كل هذه الفروع.

ولم تفقد الفكرة قوتها في أيامنا هذه، فقد نشط "متشينكوف" مثلاً و "فرويد" (وكلاهما طبيبان) لكي يبرهنا هما أيضاً على أنه لا يمكن بناء أخلاق صحيحة

١- المسألة الفلسفية، د. محمد عبد الرحمن مرحب (سلسلة زدني علماً)، ص ٢٦.

إلا بالارتكاز إلى معرفة الميول السيكو - بيولوجية (النفسانية - الحياتية) التي تشكل "الطبيعة الإنسانية"[1].

إلا أن المحاولة الجادة تمّت على يد دوركايم، ومحاولاته دراسة السلوك بالاختبار[2].

٣/ المذهب الأبيقوري

قبل كلّ شيء لا بد أن نعرف أنه قد قسّمت المذاهب الطبيعية إلى قسمين:

أولاً: ما استندت إلى طبيعة الإنسان، ولم يتجاوز الطبيعة الفجّة إلى سماء الرّوح.

ثانياً: وما استندت إلى بعض فروع العلم الحديث.

والأبيقورية والمذهب النفعي من القسم الأول. أما الابيقورية (حوالي القرن الرابع قبل الميلاد) فقد تمحورت حول قيمة اللذة والتوازن بين درجتها ودرجة الألم، وحاولت أن تنطلق منها إلى بناء كيان أخلاقي متكامل، لا يعتمد على الدين والخشية من المعاد؛ بل على توازن اللذة والألم، وتجنب التي تسبب من الألم قدراً أكبر... وقسّمت المتع إلى ثلاثة أنواع، فقالت بـ"التمييز بين الحاجات الطبيعية الضرورية من ناحية (كالطعام، والنوم والخ.. وهي سهلة الاشباع دائماً، فيكفيها بعض الماء أو الخبز أو غطاء للنوم) وبين الحاجات الطبيعية غير الضرورية من ناحية ثانية (كالرغبة الجنسية، الخ..) التي يستسلم لها الحكيم إذا اتيحت له الفرصة، شريطة أن يتفادى دائماً (أن) تتكون (عنده) عادة تجعله عبداً لهذه الرغبات، فتسبّب له الألم - بالتالي - إذا لم يستطع اشباعها. وبين الحاجات غير الطبيعية وغير الضرورية من ناحية أخيرة (كالمجد، والثراء، والخ..) والتي يجب على الحكيم أن ينصرف عنها، لأن الحصول عليها يتطلّب جهداً يفوق التلذذ الناجم عنها".

١- المسألة الفلسفية، د. محمد عبد الرحمن مرحب (سلسلة زدني علماً)، ص ٢٦.
٢- المصدر، ص ٢٧.

يجب بالتالي أن يعيش المرء، حياة متوازنة وبسيطة ومتواضعة، دون أن يبحث إلا عن لذة الصداقة (تلك اللذة الصافية المتجددة دوماً) ودون أن يؤذي أحداً (مما يجنبه التعرض للانتقام)، ودون أن يحسد أحداً.. كما يجب أن يتحمل الألم (إنه لا يدوم أبداً ويمكن محاربته بأسلوب مدروس قائم على استحضار الذكريات السعيدة). وعلى أيّ حال فإن الحكيم يستطيع دائماً هجر الحياة إذا اصبحت لا تطاق (كما يغادر غرفة اصبحت مليئة بالدخان) ما دام الموت ليس أمراً يبعث على الخشية.

ولكن المشكلة التي غابت عند أبيقور وأصحابه، أن جماح اللذة عن البشر، لا يكبحه سوى الايمان بالآخرة، لذلك تجد النتائج الخطيرة لهذه النظرية، حيث أصبحت شعاراً لكل الفساق والمستهترين بالقيم، والخارجين على القانون وحسب غريغوار:

يتّضح لنا مما سبق أن "ابيقور" يصل بالنتيجة إلى إحياء الفضائل التقليدية؛ التعفّف، والصداقة، والشجاعة، والخ.. ولكن هذه الحكمة العذبة والعقلانية (والتي تقوم ميزاتها الرئيسية على تذكير الناس بأن الألم يتوقف، بنسبة كبيرة، على التقدير الذي نضعه نحن ذاتنا للأشياء) كان من نصيبها أنها (لاقت من النجاح بسبب مقدماتها أكثر مما لاقته بفضل نتائجها) على حدّ تعبير "ريفو".. بل وأصبح المفهوم غالباً مما يعنيه الانضمام إلى الابيقورية (بالنسبة لروما مثلاً) البحث المنهجي الأمثل عن المتع السهلة[1]..

بالاضافة إلى ذلك فان الابيقورية تضرب في المثالية حتى الاعماق، حيث أنها تفرض وجود حياة هادئة وبسيطة، ورجال حكماء يقدّرون مستوى الألم ومستوى اللذة، ويقدرون أيّهما أعظم، (وهذا - بالطبع - عملية صعبه ومحفوفة بسوء التقدير غالباً)، كما ويستطيعون ضبط أهواءهم بإرادة صلبة.

١- المسألة الفلسفية، د. محمد عبد الرحمن مرحب (سلسلة زدني علماً)، ص ٩٢-٩٣.

٤/ مذهب المنفعة

أحيت الفلسفة الحديثة المدرسة الأبيقورية في القرن الثامن عشر، وحاولت أن تبني المدرسة النفعية هرم القيم على قاعدة المنفعة، أو اللذة. وهذه المدرسة قامت على أنقاض المدرسة الابيقورية. إلا أنها طعمتها ببعض الأفكار المسيحية، حيث وسعت حدود كلمة اللذة (المنفعة) حتى شملت اللذة المعنوية مما جعلت الكلمة قريبة من معنى السعادة.

وكانت هذه نظرة الكثير من الفلاسفة (أمثال "هوتشسون" و"هلفسيوس" و "ديدرو" و"بكاريا" و"نبتهام") ولكن الذي طورّه أكثر فأكثر كان "ستيوارت ميل" وذلك حوالي عام - ١٨٥٠ فاستكمل هذا الوحي وقام بتنهيجه، كما يلي:

"لا يكفي أن نأخذ بعين الاعتبار (على غرار "بنتهام" مثلاً) شدة اللذات، وقرب منالها، وسعتها. فهذه جميعاً مفاهيم كمية فحسب، ولكن يجب النظر أيضاً إلى صفتها، ذلك أن هناك سُلَّماً تسلسلياً للذات (برهن على صحته موافقة "الرجال المختصين" - كالقديس أوغسطين - الذين خبروا جميع اللذات بشكل متوال). وهذا مما يجعل بعض اللذات أدقّ صفاء وأرقى تشذيباً من بعضها الآخر، وبالتالي أكثر "خصباً" منها.. فهي منابع لا تنضب لِلَذّات جديدة علينا وعلى أولئك الذين يحيطون بنا، ونجد على رأس هذه اللّذات "العليا" التي تسمو كل السمو على لذات الجسد، نجد لذات القلب كالاخلاص والغيرية، تلك التي لا ينقطع لها معين، وتفيض بمتع جديدة أبداً، تمنحها للمعطي وللمتلقي على حدّ سواء (لأنها تخلق ذلك التلذذ القائم على العرفان بالجميل). وفي الواقع فان المجتمع الذي تسوده "قاعدة يسوع الناصري الذهبية"؛ أي التالية: أحبوا بعضكم بعضاً، هو أصلح المجتمعات بالنسبة للفرد وللمجموعة معاً. ولهذا فان "ميل" يزهو بأن "أخلاقه" نافعة من جميع الأوجه؛ فهي تبين للمرء ما هي لذته الحقيقية، وتدفعه لأن يولد في الآخرين عن طريق تصرفه قناعة خيرة مماثلة،

وتفتح الطريق لقيام مجتمع تتوفّر له السعادة الكاملة، وتتحالف المصلحتان الشخصية والعامة فيه بحيث يشدهما رباط لا سبيل إلى حلّه[1].

ونقد المدرسة النفعيّة يأتي:

أولاً: بأنه يوسع آفاق كلمات اللذة والمنفعة حتى تشمل معنى السعادة، والتي لا يختلف في أنها هدف الإنسان.ولكن السؤال الهامّ كان ابداً ما هي السعادة (أو قل حسب تعبير مل: ما هي اللذة أو المنفعة)؟

ثانياً: إن أساس لذة الإنسان وعي الحياة (الكينونة)، وهذا الوعي يأتي تارة بالأخذ وتارة بالعطاء وثالثة بالعلاقة الفاعلة مع طرف ثان. ويبدوا أن مل اكتشف بتأمله طرفاً من هذه الحقيقة.

ثالثاً: إن اللذة قيمة ذاتية، وتطويرها حتى تصبح قيمة اجتماعية لا يتم بتلك السهولة التي زعم مل، لأن هناك أكثر من سبب للصراع والتشاح وسوء التقدير مما يسبّب في الخلاف وبالتالي في عدم معرفة أفضل موضوع للّذة. وهكذا تتّضح القيم الاجتماعية كالعدالة والاحسان والتطلع.

٥/ المذاهب الطبيعية المعاصرة

فيما يلي ندرس بعض النماذج للمذاهب الطبيعية في الأخلاق، ونضرب مثلاً من واقع الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفياتي (سابقاً) لأنهما أبرز مثلين في عالم اليوم.

ثلاث قيم يقدّسها الشعبان الاميركي والروسي هي:

١- الحيوية والابداع والانتاج.

٢- التعاون واشراك الآخرين في الخيرات.

٣- الزعامة (القدوة).

١- المسألة الفلسفية، د. محمد عبد الرحمن مرحب (سلسلة زدني علماً)، ص ٩٤.

من أين استلهمت أميركا وروسيا هذه القيم؟ وكيف اجتمعتا في القيم، وقد كانا قطبين متناقضين (قبل انهيار الاتحاد السوفياتي)؟

إن مصادر الإلهام مختلفة بينهما، بل وحتى التعبير عن القيم ليس واحداً، وإنما جمعهما التحدّي الحياتي الذي خاضاه. فربّما تُلجأ الظروف التاريخية والتحديات المعاصرة، شعباً إلى تبني فلسفة وتقديس قيم أكثر من البحث النظري.

وقد وجدت أميركا ضالتها في المذهب البروتستانتي والصيغة الكالفينية منها بالذات، بينما وجدت روسيا ضالتها في الماركسية والهيجلية وخليط من الفلسفات الأوربية.

لقد تحدثنا عن فلسفة كالفن، وأن لكل انسان رسالة لا بدّ أن يؤديها فوق هذه الأرض، ليساهم بها في الخلق الإلهي (تشبه فكرة الخلافة عند بعض المفسرين للقرآن الكريم). وبالتالي تقدس الكالفينية قيمة النجاح. وهذا النجاح يعود بالخير على الجماعة، حيث يشكل مقدار الفعالية لدى الشخص معيار "قدره المسبق"، وعنه تنبع حقوق وواجبات معيّنة بالتالي، وهي تلك المتعلقة بالزعامة (في مجال ما). وذلك هو مصدر الوحي الذي يستلهمه الاعتناق الأخلاقي الداخلي في الولايات المتحدة، فيستنبط منه تلك العبادة التي يكرّسها للحيوية، وللصراع ضد الطبيعة ولـ"مردود الجهد"، وذلك التبجيل الذي يخصّ به "المنتج الفعال"[1].

أما مصدر الالهام عند الاتحاد السوفياتي (قائد المعسكر الشرقي سابقاً) فهو:

١- فلسفة سان سيمون التي اكّدت ضرورة الاستثمار الجمعي لخيرات الأرض (وهكذا قدسوا الانتاج).

٢- فلسفة هيغل أن المادة خالدة وأنها تطور نفسها بالابداع.

١- المسألة الفلسفية، د. محمد عبد الرحمن مرحب (سلسلة زدني علماً)، ٩٧.

٣- فلسفة "بابوف" و"بلانكى" الفرنسيين في ديكتاتورية الطبقة العاملة، وهكذا قدسوا التعاون (الروح الجمعية)، وهكذا قدّسوا الفعالية والتعاون والقدوة (رمز الطبقة العاملة لينين مثلاً).

ولكن هناك عيباً يشوب هذه النية من وجهة نظر الأخلاق، وهو الكبرياء؛ أي ذلك الاقتناع الراسخ لدى الأميركيين، بأنهم "أعظم شعب في العالم، وخير مقاتلين على وجه الأرض، وأكثر الأمم تطوراً من الناحية الاجتماعية، وأن تاريخهم هو تاريخ انتصار العدالة، وقد اختارهم الله لأجل انقاذ العالم وتطهيره.." كما كتبه أحد علماء الاجتماع الأميركيين (بأسلوب هزلي واضح)[١].

كما هناك عيباً كبيراً كان يشوب الاتحاد السوفياتي يتمثل في تبنّي اللاعاطفية، جاعلاً منها قانوناً صارماً، حيث ترى الماركسي يصفي ويطهر دونما إشفاق[٢].

٦/ الأخلاقيات العلمية

وهي تلك التي تقيس حال البشر بالطبيعة، وتستفيد من بعض فروع العلم، مدرسة علمية.. مثلاً استفاد "توماس مور" في القرن السادس عشر، الطوباوية الاجتماعية من الرياضيات، واقترح وحدة الشكل والتماثل والنظامية الرياضية[٣].

وهوبز (وفاة ١٦٧٩) استفاد قيمة الدوافع والمنفرات واعتبرها توتّرات ميكانيكية (إيجابية أو سلبية) تثيرها الأشياء الخارجية، واقترح تدخل الدولة المطلق في تنظيم الحياة، وايجاد التوازن بين الشهوات الجزئية[٤].

١- المصدر، ٩٨.
٢- المصدر، ص١٠٠.
٣- المصدر، ص١٠٠.
٤- المسألة الفلسفية، د. محمد عبد الرحمن مرحب (سلسلة زدني علماً)، ص١٠٠.

أما دي ميستر، فانه استفاد من الفيزياء: أن هناك قوانين صارمة في الكون وضعت من قبل الله (مثل الجاذبية) والأخلاق الحسنة هي التي تتبعها، وهي لا تُعرف إلا من قبل الدين، ولذلك اقترح الاهتمام بالأخلاق الدينية المسيحية[1].

أما اوستوالد الفيزيائي فقد عمد لاستخراج قيمة متوخاة من المبدأ الثاني للديناميك الحروري، والذي ينوه بوجود غاية في التطور، وقال: ينبغي تحديد قيم الافعال بمقتضى المردود الموجود بين الطاقة المصروفة، والنتيجة الناتجة[2].

وعالم الطبّ متشنيكوف فقد زعم أنه لابدّ من اقامة مجتمع يدار بشكل عقلاني بواسطة أخلاق مبنية على التضامن المنفعي، وعلى التخلّي عن الزيف، وعن اللّذّات الخطرة، وعلى فنّ في الحياة يتيح للإنسان أن يجتاز بسعادة الأعوام التي تستغرقها حياته بصورة طبيعية[3].

وفرويد (توفي عام ١٩٣٩) فقد اعتبر دينامية (حيوية) الكائن، الجنس، وخلقت هذه الدينامية الصراع بين الميول الجنسية العارية وبين التحجيم الصارم لها. وكانت تلك المحظورات القاعدة الأساسية للأخلاقية الاجتماعية.

وزعم فرويد: أن الخير هو النافع وأن الشر هو الضار، ودعى إلى اطلاق حرية كل شخص يعيش حياته الجنسية بالطريقة التي يراها مناسبة[4].

أما غويو (الفرنسي) فقد اعتبر الحياة قوة توسعية، وزعم أن أعظم ألوان الحياة ثراء وجاذبية التي تُخرج الإنسان من اطار ذاته نحو الآخرين، وذلك بواسطة الأخلاق والحب.

١- المصدر، ص ١٠١.
٢- المصدر، ص ٢٠١.
٣- المصدر، ص ١٠٣.
٤- المصدر، ص١٠٤.

أما نيتشه الألماني، فقد زعم أن القيمة الأخلاقية تابعة للحيوية الفردية، وأن الانجيل الجديد هو انجيل السادة والفاتحين، وعلى كل فرد أن يمضي قدماً نحو المثل السامي المتمثل في الإنسان الأعلى، الذي لن يبلغه الفرد إلا بالشجاعة والتصوف وبذل النفس بسخاء[١].

أما رابليه فقد استفاد من علم النفس، وزعم أن التربية البشرية قادرة على أن تخلق نمطاً من الناس ذوي "غريزة واتجاه يدفعانهم دوماً إلى الافعال الفاضلة"[٢].

أما هيوم وطائفة من الفلاسفة الموافقين معه، فقد اعتبروا الأخلاق حساسية فيزيائية، واعتقدوا أن بالإمكان خلق احساس أخلاقي لدى الفرد بصورة صنعية عن طريق التربية، وسلم عقلي للعقوبات والمكافآت، بحيث يندفع بصورة آليّة نحو الأفعال الفاضلة[٣].

٧/ الأخلاق الكانتية

تشكل فلسفة "كانت" بمجموعها (كما عرّفها هو ذاته) ثورة شبيهة بتلك التي قام بها "كوبرنيك" في مجال الفلك حين جعل الكواكب تدور حول الشمس، بينما كان علم الفلك القديم يتصور أن الشمس هي التي تدور، ومعها الكواكب حول الأرض[٤].

وهكذا ترى هذه النظرية ان الإنسان اصل الأخلاق وليس العكس. وزعم كانت بأن الأخلاق صورة مرتسمة في الذهن - أكثر من أن تكون حقيقة في الخارج -.

ولكن إذا كان ذهني يضع الأخلاق، فان ذهن الآخرين يضعه أيضاً، فهم - كما أنا - مشرعون. لذلك يرى أن القاعدة التي يتركّب منها الطابع الأخلاقي، هي في أن يعمل المرء على جعل إرادته متّفقة مع إرادات جميع الاشخاص

١- المسألة الفلسفية، د. محمد عبد الرحمن مرحب (سلسلة زدني علماً)، ص ١٠٥.
٢- المصدر، ص ١٠٦.
٣- المصدر، ص ١٠٧.
٤- المصدر، ص ١١١.

العاقلين. ويطلق "كانت" اسم "سيادة الغايات" على هذا المثل الأعلى؛ أي ذلك الانسجام (الذي يجب تحقيقه) بين العقول... ومن المستطاع القول بصورة محسوسة أكثر أن الكانتية الأخلاقية تستند بصورة أساسية إلى فكرة الكرامة الإنسانية: (إن الإنسان بعيد عن القدسيّة، ولكن يجب تقديس الشخصية الإنسانية فيه، ويمكن لدى الخلق اعتبار كل ما نشاء كوسيلة.. باستثناء الإنسان)[1].

ويفرق (كانت) بين الشيء والشخص، فالشيء وسيلة بينما الشخص غاية. ومن هنا فنحن لا يمكن أن نعتبر الشخص قيمة إلا بصورة مشروطة بوجود وحقوق سائر الأشخاص[2].

٨/ نقد المدرسة الكانتية

نرى أن (كانت) - وأي فيلسوف آخر - إنما وقع في سلسلة من الأخطاء، عندما كفر بالله خالق السموات والأرض، تلك الأخطاء الشبيهة تماماً بأخطاء علم الفلك القديم، حينما أنكر مركزية الشمس. وكان أحرى بـ(كانت) أن يعود إلى الحقيقة ويؤمن بالله، حتى يعيد الأمور العلمية كلها إلى نصابها الصحيح.

أما في الفلسفة العالية فانه أعلن عجزه عن معرفتها، فقلب الأمر (كما فعل كوبرنيك) وأعلن أن الإنسان مركز الفلسفات العالية وليس العكس؛ لأننا لا نستطيع أن نعرف العالم إلا بالطريقة التي تقتضيها اذهاننا. فدعنا - إذاً نحلل ما يجري في أذهاننا - ودون أن نطمح إلى أن نعرف العالم من حولنا[3]. وهكذا اعترف (كانت) بما سكت عنه سائر الفلاسفة، وهو العجز عن معرفة كنه العالم المحيط بنا معرفة تعتمد على عقولنا وحدها، لانهم لم يؤمنوا بالرسالات الإلهية ولا بالعقل بصفته نوراً متعالياً عن التأثيرات المادية.

١- المصدر، ص ١١٦.

٢- بنياد ما بعد الطبيعة اخلاق، (باللغة الفارسية) تأليف كانت، ترجمة حميد عنايت ـ علي فيض، ص ٧٣-٧٤.

٣- راجع كتاب سير حكمت در اوربا (باللغة الفارسية)، ص٢٣٠.

ونقطة الضعف الأساسية في نظرية كانت، هي كيف نوفق بين ما يريده الإنسان (وجدان الإنسان الأخلاقي) وبين ارادة الآخرين.

ويعترف (كانت) بوجود الهوى في داخل الإنسان، وأنه يتميز عن العقل العملي (النابع من الارادة الحسنة)، ولكن لا يعطي مقياساً كافياً للتمييز بين العقل والهوى.

ثم يبقى أن نقول أن الالزام في أخلاقية (كانت)، غير مبّرر بصورة كافية، وبالذات حينما يتصل بالآخرين.

ونظرية (كانت) في الأخلاق، تعتمد على نظريته في المنطق (النسبية الذاتية) وقد تحدثنا في المنطق عن نقد تلك النظرية، وقلنا: إن الزمان والمكان، وسائر المدركات العقلية المسبقة، ليست قوالب جاهزة يضفيها العقل على الأشياء، لأن العقل يجد ذاته (وجداناً واضحاً) بعيداً عنها.

والذي غاب عن (كانت) أن هذا الوجدان ليس نهاية المطاف، اذ يمكن أن يقول أحد: ما الذي يدعوني إلى اتّباعه؟! بل الوجدان بدوره من ومضات العقل البشري الذي يضيء رحاب النفس، وإذا تأملنا - عميقاً - وجدنا هذا العقل هو في كل موقع شاهد وحجة، فهو الذي يمنع التناقض، وهو الذي يعرف الحكمة في الطبيعة، وهو الذي يهدي إلى القيم الأخلاقية، وهو الذي يذكرنا بأن هذه القيم ذات أصول في الحياة، وبالتالي هو الذي يدلّنا إلى ربنا سبحانه.

المذاهب الفاعلية

حين قلب (كانت) المعادلة، فظنّ أن الإنسان هو الأصل في الأخلاق، فتح الباب عريضاً وواسعاً أمام نظريات التطوّر للتدخل في الأخلاق، ونستعرض معاً بعضاً منها:

١/ نظرية التطوّر عند راو

عند راو (Rauh) ١٩٠٩م، الإنسان يتطور لأنه ابن الظروف المتغيرة، إذاً أخلاقه يجب أن تتطور، وقيمة القيم في الأخلاق تجربة الإنسان الأخلاقية، التي لا يمكن الاحساس بها إلا عن طريق الفاعلية. قال: بأن الواقع الأخلاقي هو دافع، أيّ شيء ما حيّ ومرتبط بالحياة، مع كونه في صيرورة دائمة على غرار الحياة. وعلى ذلك فلا يمكن الاحساس بالعامل "الأخلاقي" إلا عن طريق الفاعلية. فهناك تجربة أخلاقية تدوم مدى الحياة ونلمس مظاهرها المتعدّدة بواسطة حدس يتعدل باستمرار من خلال احتكاكه بالاحداث.. وليس هناك "واجب" بل توجد واجبات هي دائماً حركيّة وخاصة، دونما "قاعدة" كلية، وهذه تعدّدية يجب ألا تؤدي بنا إلى مذهب الشك الأخلاقي، بل إلى الاقتناع، بأنه يجب علينا أن نعيش عدداً لا متناهياً من التجارب لأجل الوصول إلى اكتمال المثل الأعلى[١].

ونقدنا لهذه النظرية يتمثل في أمرين:

الأول: في القاعدة التي انطلق منها، والمتمثلة في النسبية الذاتية، وأصالة الإنسان (عند كانت) وقد تحدثنا عنهما آنفاً.

الثاني: في أن الفاعلية قيمة لا ريب فيها، وهي تبرز ما خفي من كيان الإنسان، وتبلور شخصيته بالاحتكاك المستمرّ مع الحوادث، ولكنها إن لم تكن وفق معايير ثابتة فانها لا تكفي الإنسان ولا تعطيه رؤية واضحة، ودليلنا إلى ذلك، حشد التجارب الفاشلة عند من يملكون الفاعلية دون رؤية، ثم إن أعظم ميزة للبشر، إنما هي قدرته على استيعاب تجارب الآخرين، وقسط كبير من القيم الأخلاقية هي تجارب بشرية متراكمة، فلماذا نتركها ونبدأ من جديد. بلى؛ التجربة الإنسانية المباشرة، هي الأبلغ نفاذاً والأغنى حكمة، ولكنها وحدها لا تكفي.

١- المذاهب الأخلاقية الكبرى، ص ١٢٣.

أما الحديث عن متغيرات الحياة، فهو حديث شيق، ولكن شريطة ألا ينسينا ثوابتها، ولا أحد بقادر على انكار الثوابت التي تتدفّق من خلالها حوادث الحياة، كما يتدفق تيّار الماء من خلال نهر أو انبوب، ومن دون الثوابت تضيع مواد الحياة، كما تتلاشى المياه في صحراء واسعة.

٢/ الفاعلية الارادية

أما برغسون (١٩٣٢) فقد طوّر هذه النظرية إلى بعد جديد، إذ ميّز بين نوعين من الأخلاق:

ألف - الأخلاق "المغلقة"، وهي ليست سوى ضغط اجتماعي بسيط، أو مجموعة من القواعد (الأخلاقية النابعة من العوامل) الخارجية عن الفرد والهادفة إلى تأمين توازن وحفظ بقاء الجماعة.

باء - الأخلاق "المنفتحة"، ذات الماهية الشخصية والخلاقة، وهي انفعال يعيشه الفرد فيجيش في نفسه ويتجسد على شكل "اختراعات أخلاقية" تدفع الإنسانية قدماً إلى الأمام نحو مثل أعلى من الاخاء، تتزايد كلّيته باستمرار. فهذه أخلاق قائمة على الفاعلية.، ولا يسعنا - امام هذه النظرية - الا الاشادة بهذا التأمل الاخلاقي، وبالذات في كشف قيمة الفاعلية (التي تعني عنده اخلاقية العطاء) ونضيف:

ان الانسان خلق ليتفاعل مع العالم المحيط، فجسده حيّ بالتواصل مع البيئة أخذاً (الطعام والشراب مثلاً) وعطاءً (الحركة والجنس مثلاً) وكلما ازداد تواصلاً مع بيئته ومحيطه ازداد عنفواناً وحياةً.

ولكن هذه القيمة السامية التي يكتشفها (برغسون) ليست القيمة الوحيدة، بل هناك قيم الصدق والوفاء وحتى القيم المادية (التي هي قيم الأخذ) التي يجب ألا تنسى، وهي تتكامل فيما بينها لتعطينا حياة سعيدة.

٣/ البراغماتية

وقد بنى هذه النظرية الكاردنيال "نيومان"[1]، ولكن الذي طوّره إلى مداه كان "و.جيمس" الأميركي (المتوفى١٩١٠) حيث يجب بمقتضى هذه الفلسفة ألا نعرف "حقيقة" فكرة ما، إلا بأنها القابلية فحسب، التي تمثلها، لحملنا على أن "نفعل" بشكل مفيد؛ أي مفيد بالنسبة للفرد، وبالنسبة للجماعة، وبالنسبة للكون بأجمعه...

وهذا ما يعني أنه ليس هناك "أخلاق" مصنوعة سلفاً، بل يوجد تجارب أخلاقية مفعولة فحسب، تتجلّى قيمتها بما تجلبه من دعم فعّال إلى الملحمة الكونية، حيث يتقرر مصير "النظام المستقبل" (هذا النظام الذي يصعب تعريفه، إلا إذا عرفناه بأنه ما يلائم إلى الحدّ الاقصى الفعالية والمبادهة والدافع الخلاق الإنساني. وهذه هي الحلقة المفرغة التي يدور فيها فكر "جيمس")[2].

وإذا أردنا أن نقيم هذه النظرية في القيم لا بدّ ان نقول: إن اندماج الإنسان بالواقع عن طريق الفعل، لا ريب مؤثر في وعيه.

ولكن السؤال: ما هو معيار المفيد، فهل هو السلام والأمن أم الرفاه والتقدم أم الحرية والانطلاق؟

ثم المفيد لمن، هل للبشرية؟ أم لي؟ أم لنا؟ ومن نحن؟ هل مواطنوا دولة؟ أم المنتمون إلى حزب؟ أم إلى قومية؟ وإذا تعارضت المصالح فما هو المعيار لمعرفة أكثرها نفعاً واهمية؟ هل العقل أم الوحي أم التاريخ (الأقدم هو الافضل) أم العرف (رأي الاكثرية)؟

إن نظرية وليم جيمس الوسيلية اكتشفت قيمة هامّة ولكنها تبقى ناقصة اذا لم تكتمل بسائر القيم المكتشفة من قبل سائر النظريات.

٤/ موريس بلونديل

١- المذاهب الأخلاقية الكبرى، ص ١٢٤.
٢- المصدر، ص١٢٥.

ويرى موريس بلونديل (المتوفى عام ١٩٤٩) أن قيمة القيم، الفاعلية التي تنتج من إدراك النقص في وجودنا. فان التفكير الأصيل، ليس سوى فاعلية؛ أي ذلك الانطلاق الذي يلازمه ادراك النقص، الذي تتسمّ به كل غاية محسوسة.

وهكذا فان الفاعلية وحدها فحسب، في سيرها الدائم وعدم اكتمالها أبداً، هي القادرة على أن تكشف لنا في أعماق ذاتنا عن تطلّب داخلي، أو تطلّع محايث، هو النداء إلى الله.. والاستسلام إلى الله، هو التلبية لهذا النداء[١].

واضح أن الجديد في نظرية بلونديل ليس سوى ربط تجارب الفرد بالتجارب البشرية التي تراكمت - كما نهر متدفّق - وأصبحت، في رأي هذا الفيلسوف (الكاثوليكية تعني الجمعية) ولكننا نقول: إن التجارب البشرية كثيرة ومتنوعّة، ولا بد أن يكون لدى كل فرد معايير لاختيار الأفضل منها والأهدى سبيلاً، ونرى أنها موجودة فعلاً في العقل المدعم بالوحي، ولَستُ أدري موقف (بلونديل) من هذه المعايير.

٥/ الوجودية

أما كير كيغارد (المتوفى ١٨٨٥) الذي اتّبعه الوجوديون بنسبة معينة، فقد رأى أن مصدر الالهام للقيم إنما هو القلق الداخلي للانسان، وأن قيمنا الأخلاقية (وبصورة عامة جميع منجزات "الثقافة" الإنسانية) معلوة علويّة لا متناهية بالقيمة الحقيقية الوحيدة: الايمان الخالص[٢].

وهكذا اتصفت الوجودية عند (كير كيغارد) بالايمان اللاعقلاني، واعتبر مصدر الأخلاق هو الله.

أما الوجودية الملحدة التي ترعرعت على يد (هايديغر وسارتر) فقد زعمت ان الوجود هو المصدر الوحيد للقيم.

١- المذاهب الأخلاقية الكبرى، ص ١٢٦.
٢- المصدر، ص ١٢٨.

وعندما ضاقت السبل بهم، لتحديد قيمة التعاون مع الآخرين، فقد عمد (سارتر) إلى جعل احترام حرية الآخرين قيمة هامّة أيضاً.

ولكن كيف يمكن تصور "أخلاق" إذن في مثل هذه الظروف؟... وباسم أيّ معيار يمكننا إقرار قيمة نعيّنها لكائن آخر هو بالتعريف (حسب سارتر) خالق حر للقيم؟

وهنا - في ظنّي - مشكلة "الكانتية" بكل صورها، ومنها الوجودية الملحدة، فاذا ألغينا الآخر (غير وجودي أنا) ينهار البناء الاجتماعي والأخلاقي ونصل إلى ذروة الفوضوية، وإذا اعترفنا بقيمة الآخر فما الفرق بينه وبين الوجود (الأحياء/ الجمادات و..) ما دامت موجودة وكيف نفرّق بين الإنسان وغيره؟

المذاهب الأخلاقية في الميزان

١/ خلاصة التأمل الأخلاقي اليوم

بعد تطواف شيق حول نظريات المدارس المختلفة في الأخلاق يطيب لنا الاستراحة والتحقق حول ما قطفناه من ثمرات التأمل الأخلاقي عند كبار الفلاسفة، فماذا نجد فيها؟

نجد إنها ثمرات متشابهة تهدف غاية سامية، هي الخروج من الشهوات العاجلة للذات، إلى رحاب (غاية سامية) ان اختلفوا فيها فانهم يتّفقون في ضرورتها.

انها حالة من التجاوز الذي لا يكتمل الذات إلا به، حالة من الحب والبحث عن المثل الأعلى عن الخلق الجديد للنفس (وحسب التعبير القرآني اقتحام العقبة).

لا ريب في وجود تطلّع في النفس نحو الأعلى، فهل هو صدى نداء علوي، يفرض الخلق الرفيع؟ أصحاب المذاهب العلوية في الأخلاق، قالوا بلى؛

فالإنسان بكل أبعاده المادية والمعنوية، قطرة في نهر متدفّق، أو ومضة نور في شلاّل ضوء باهر، وكل شيء فيه تعبير عن الكائنات، فليكن هذا التطلع صدى ذلك النداء الذي يحيط به من كل جانب. وهكذا يؤكدون النداء (العلوي) يمثل الأمر الفارض، بينما التطلّع الوجداني يمثل الضمير المسؤول (حسب التعبير القرآني: العقل أو النفس اللوّامة). وفي نظري أن الهوة تضيق بين فكرتي التطلع من العمق، والواجب من فوق، وعندما نهتدي - بتذكرة القرآن - نعرف أن الوحي يوقظ العقل، والعقل يصدق به. فالعقل هو الضمير المتطلع، والوحي هو الأمر الفارض.

٢/ المذاهب الأخلاقية تتكامل

هل خلق الكون من غير شيء؟ أم جاء صدفة من ضمير الغيب بلا سبب؟ إذاً فما هذا النظام الحكيم القائم فيه؟

وإذا كان الإنسان واحداً من الكائنات الذي يتفاعل مع العالم المحيط به، فما هي علاقته بها، هل يؤثّر فيها أم يتأثر بها، هل يصنعها أم تصنعه؟ وبالتالي هل يساهم في مصيره أم تقوده الطبيعة العمياء إلى حيث لا يدري؟

وأهم من ذلك، هل يعقل الإنسان شيئاً؟ أم إن كل شيء عليه غيب خفي؟ وإذا كان يعقل فمن قال إنّه يعقل حقاً؟

كل هذه الأسئلة هي التي تصدّت الفلسفة للإجابة عنها، وجاءت كل فلسفة ببضاعتها في هذه السوق النافقة.

ألف - ففريق كفر برب العالمين، أو قال: بأن ذي العرش عاجز، وأنّه قد فاضت عنه الخليقة، كما تفيض من العين الروافد، ومن دون وعي منه أو قدرة، وهكذا فقد فوّض إلى الخلق شؤونهم، فلا وحي ولا رسالة ولا أخلاق توحى ولا قيم تتنزّل على الناس من الأعلى.

وأكثر المذاهب الفلسفية تنتمي - بالتالي - إلى هذا الرأي، ثم تفرّقوا - بدورهم - في تفسير الأخلاق وتطبيقاتها أيّما اختلاف.

ولكن المؤمنين بالله الرحمن الرحيم، آمنوا بأن الله لم يتركهم سُدى، وأنّ رحمته لا تزال تتنزل عليهم، وأن قدرته محيطة بهم، وأنه قد أنزل عليهم رسالاته نوراً وضياءً، وأنها تهديهم إلى سبل السلام في أخلاقهم وقيم حياتهم، فكانت قاعدة الأخلاق عندهم الوحي.. ولا ريب أن الأديان السماوية تنتمي إلى ذلك، وإليها يرجع أيضاً بعض المذاهب الأخلاقية الكبرى؛ مثلاً الفيض الأفلاطوني، وعالم المُثُل عنده، والوجودية المؤمنة وآخرون..

باء - وحين يعود البشر إلى نفسه، ويستنطق ضميره، هل يجد في داخله ما ينطق ويتحدث من عقل أو إرادة أو عواطف؟ وهل يعبّر ذلك الناطق عن الإنسان أم عن الطبيعة المحيطة به؟.

١- فريق قالوا بلى؛ والعقل هو الناطق، وسمّاه البعض بالارادة (هيجل)، والآخر بالنيّة الحسنة (كانت)، وهو العقل عند أفلاطون وأرسطو. و. ولقد كانت هذه قاعدة الأخلاق عندهم.

٢- فريق قالوا: انه الأنا الحر الذي لا شيء يبرره (الوجودية عند سارتر)، وقاعدة الأخلاق عندهم تلك الحرية (وجودي).

جيم - وقال فريق: الضمير مرآة الحياة، وليس في الإنسان سوى انعكاسات لمتغيراتها، فلا شيء ثابت، بل كل شيء متطور. إذاً لكي ندرس الإنسان وجب علينا دراسة بيئته وظروفه، مادام الإنسان ابن هذه البيئة، ومتأثراً بتلك الظروف.

دال - هل للانسان دور في صنع نفسه أو العالم المحيط به؟ هل يساهم في حوادث الكون؟ أم إنه قد خطّت الأقدار على لوحة وجوده ما يجري عليه وإلى الأبد.

١- فريق قالوا: بأن الإنسان فاعل، وأن عليه رسالة، وأنه صاحب القرار الحاسم، وقاعدة الأخلاق عندهم الفاعلية.

٢- وفريق أنكروا ذلك.

هاء - وهكذا انقسمت المذاهب الأخلاقية إلى ثلاثة أنماط رئيسية:

المذاهب الايمانية التي جعلت الوحي قاعدة الأخلاق، ويلحق بهم المذاهب (العلوية) العقلية، والمذاهب الطبيعية، والمذاهب الفاعلية.

وكلمة الفصل في هذا الحقل؛ ان الله سبحانه محيط بكل شيء علماً وقدرة، وهو ليس بإله عاجز سبحانه كما قالت المجوسية (قالوا في تبرير للأخلاق: إن رب العرش يحتاج إلى قدرة الإنسان لكي يطرد أهريمن إله الشرّ)، أو كما قال وليم جيمز (قال: بأن الله سبحانه لم يكمل الخلق، والإنسان يكمل الخلق).

كلا؛ بل أوصى الرب بأصول الأخلاق (الوصايا) إلى رسله ومن خلالهم إلى البشرية، ولكنه فطر الإنسان على أحسن وجه. (فطرة الله التي فطر الناس عليها).

وأودع ضمير البشر عقلاً وارادة، وهذا العقل مصدر وحي الأخلاق أيضاً، بعد أن يذكّر به الرسول. وهكذا فالعقل ثاني مصادر الأخلاق الأساسية.

ولأن الإنسان ابن الطبيعة، وأنه يتأثر بها ويتفاعل معها، فان جزء من عاداته وسلوكياته وقيم حياته يستوحيها من هذه الطبيعة. وهكذا الطبيعة والعقل، يساهمان في صنع القيم الأخلاقية، أما الوحي فهو يهديه اليها.

وهكذا كانت مصادر الأخلاق ثلاثة؛ الوحي والعقل والطبيعة. إلا أن الوحي يذكّر بالعقل الذي يهيمن - بدوره - على الطبيعة ويختار من متاعها ما يشاء. فهو ليس ريشة وسط عواصفها الهوج، كما تصوّرت المذاهب الطبيعية أو العلمية الحديثة.

والإنسان لا يختار شيئاً بلا معيار كما تصورت الوجودية، والارادة الهيجلية أو النية الحسنة الكانتية، ليستا مصدر الأخلاق الوحيد.. لأن الطبيعة أيضاً ذات أثر، كما ان الوحي يهدي ويذكّر ويهذب النفس ويلقي بالأصول العامة. أما الفاعلية، فانها متأخرة بدرجة من الأخلاق. فالأخلاق ضياء، والفاعلية حركة. الأخلاق صراط، والفاعلية المسير عليه، وهي بالتالي هدف

الأخلاق وليس ذات الأخلاق. بلى؛ الأخلاق بلا فاعلية إطار بلا محتوى وحروف بلا معاني. ومن أراد وعي الحقائق بلا حركة، كان كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه.وحسب آية شريفة "والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا"[1].

وما يقودنا إلى الفاعلية، بصائر أخلاقية شتى.

أولاً: إن اندماج البشر بالحقيقة يتم بالتحرك في عمقها وتطويرها.

ثانياً: إن السعادة لا تتحقق إلا بالتواصل مع الحقيقة أخذاً (الطعام) أو عطاء (الذرية).

ثالثاً: أمام الإنسان فرص لا تنتهي للتكامل، وفي الحياة امكانات لا تحدّ للتطوير، ورسالة الإنسان التكامل. (وهذه أصدق فطرة في ذاته) وتطلّعه الدائم في التطوير.

وليس ذلك عن نقص في مشيئة الله سبحانه، أو قدرته المطلقة. ولكن لأنّه قد شاء الله أن يجعل الإنسان حراً يختار ما يشاء ويتحمل مسؤولية اختياره، ولأنه سخّر ما في الأرض لمصلحة الإنسان وأمَرهُ أن يستفيد منها في سبيل الخير، ولأنه حمّل البشر هذه الرسالة.

هكذا جاءت البصيرة الدينية جامعة لسائر الأبعاد الإيجابية للمذاهب الفلسفية ومهيمنة عليها جميعاً، بالإضافة إلى ما فيها من رؤى علمية لا يوجد أثر لها عند المذاهب الفلسفية.

٣/ جوهر الأخلاق

ما هي قيمة القيم، وجوهر الأخلاق، وأصل كل خير، وبالتالي أم الفضائل؟

قال أفلاطون تبعاً لسقراط: الأخلاق علم (وأراد به كل ما يتصل بالفكر).

وقال أبيقور: إنها المتعة (توازن اللذة).

وقالت المسيحية: إنها الحب.

١- العنكبوت/ ٦٩.

وقال زرادشت: إنها المسؤولية.

وقال كونفوشيوس: إنها البرّ بالآباء (ومنه الطاعة، والحدب الكلي).

وقالت الطاوية: إنها التبسيط (عدم التكلف) .

أما المذاهب الحديثة، فقال "كانت": إنها سيادة الغايات (وأن تجعل إرادتك متفقة مع ارادات الآخرين، وتحافظ على كرامة البشر).

وكير كغارد قال: الأخلاق قلق داخلي، وأصلها الايمان الخالص.

وقال توماس مور: إنها التماثل الرياضي (كما الرياضيات).

وقال هوبز: الاهتمام بالدوافع والمنفرات (كما الميكانيك).

وقال دي ميستر: إنها تحديد القيمة حسب المردود.

وقال متشنيكوف: إنها التضامن المنفعي.

وقال فرويد: إنها اطلاق الحرية الجنسية وفك عقدها.

وقال غويو: إنها قوة توسعيّة بخدمة الآخرين.

وقال نيتشه: إنها الحيوية الفردية (والحياة لمن غلب، انجيل الفاتحين).

وقال هيوم: إنها حساسية فيزيائية تصنعها التربية (الصالحة).

وقال راو: إنها الفاعلية (تجربة ذاتية).

وقال برغسون: إنها الاندفاع (الحيوية) الذي يقاوم به الإنسان جبر المادية وأصله من عند الله سبحانه.

وقال بلونديل: إنها الفاعلية الناشئة من وعي النقص في أنفسنا.

وقال سارتر: إنها ممارسة الحرية الذاتية شريطة أن تكتمل بممارسة الآخرين لحرياتهم.

وكلمة الفصل في معرفة أم القيم، وجوهر الأخلاق، وأم الفضائل؛ إنها الايمان. وأبسط تعريف له: تقبّل الحق كله، والتسليم له طوعاً، ويتشعّب من الايمان: الحب، العدل، والحياة، ومن كل شعبة تفيض قيم اخرى حسب التفصيل التالي:

ألف: الحب

أعظم تطلّع عند النفس تجاوزها، وقد فطرت النفس البشرية على أن رسالتها الأولى تتمثل في التكامل بها إلى حيث نفي ذاتها جزئياً أو حتى كلياً (الإيثار.. التضحية) لمصلحة ذات آخر.

وهذا مصدر حبّ الله سبحانه، والانجذاب إلى جماله وكماله، والبحث عن أيّة وسيلة للتقرب إليه زلفى. وتجتمع في الحب القيم التي ركزت عليها سائر المذاهب وبعبارات مختلفة، ونحن نشير إليها تباعاً.

فمن الحب الاحسان إلى الآخرين (الاديان السماوية)، والبّر بالآباء (كونفوشيوس)، والزهد والتبسيط (الطاوية)، وتربية الذات على الطهارة والتنسّك والعدل (فيثاغور)، وحب الله وحب الغير (المسيحية). ولعل هدف المذاهب الصوفية كان في البدء تعميق هذا الأصل في روح الإنسان، ولكنهم شطوا فيه إلى الحالة العدمية؛ فمثلاً تبدو الأخلاقية (عند البوذية) وسيلة تقنية مهمّتها تدمير الذات لكل ميل متمركز حول الفرد، وكل تطلع إلى امتلاك حياة شخصية حتى يصل المرء إلى (النيرفان) أو (العدل المحض - الوجود الأعلى)[1].

كما تفيض من هذه القيمة العيش من أجل الآخرين. (يقول كونت: الحب مبدأ، والنظام أساساً، والتقدم هدفاً)، ولذة الصداقة (أبيقور)، واللذة الأسمى الاخلاص للآخرين (النفعيّة)، وإشراك الآخرين في الخير (أخلاقيات أميركا)، وفاعلية العطاء وتجاوز الذات (برغسون)، والعمل المفيد للفرد وللمجتمع وللكون (وليم جيمس).

وجاء في الحديث الشريف: "وهل الدين إلا الحب".

وقال الله تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ**﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿**يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾[1].

١- المذاهب الأخلاقية الكبرى، ص ٦٩.
٢- آل عمران / ٣١.

وقال: ﴿**وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ**﴾[٢].

باء: العدل

ومعناه أن تقسط للناس حقوقهم، ولا تبخس منها شيئاً، وإعطاء كل جانب من الحياة حقه، وذلك كله انطلاقاً من قيمة الايمان. فمادام البشر مؤمناً بالله سبحانه، وبما خلق، وبكل حق في العالم، فهو معترف بحق الناس وحرمتهم، ملتزم سلفاً بالوفاء بهذا الحق، كما هو معترف بحق جسده وروحه وعقله. وبالنسبة إلى مختلف الحاجات تراه معترفاً بحقها كل بقدر؛ (مثلاً الطعام والشراب والسكنى والجنس والترفيه و..).

وهذه هي "العدالة" التي اعتبرها أفلاطون حاكمة على عالم المثل، ولا بدّ من تطبيقها على الأرض. واعتبرها أرسطو القيمة الاولى من قيمه الثلاث (بالإضافة إلى العقل والحب)، ولعلّها هي مراد أبيقور في الحياة المتوازنة، إذ أن التوازن بين سائر اللذات نوع من العدالة الفردية (الإعتدال في السلوك).

ويبدو ان هوبز اتّخذ من أبيقور هذه النظرة، حين دعا إلى ايجاد التوازن بين الشهوات الجزئية، كما جعلتها اليهودية الأصل الثاني (بعد طهارة القلب)، واعتبرتها المسيحية أقل الواجب، أما المذاهب الأخلاقية الحديثة فقد أشادت بها وإن اختلفت في تبريرها، فقد اعتقد كانت بـ(سيادة الغايات) وأن يجعل الإنسان إرادته متفقة مع ارادات الآخرين.

والتضامن المنفعي عند (متشنيكوف) والذي اعتبره ذروة السعادة، إنما هو جانب من جوانب العدالة. والنظرات السائدة في أميركا (الواقعية) تدعو إلى ايجاد توازن بين مختلف الحقوق والقيم (رسكو باوند مثلاً).

٣- المائدة / ٥٤.
٤- البقرة / ١٦٥.

أما القرآن الحكيم فقد اعتبر العدالة هدف الرسالات، حيث قال ربنا سبحانه: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾[1]. وقال عن العدالة حتى مع الاعداء: ﴿**يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى اَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**﴾[2].

جيم: الحياة

الايمان بالله سبحانه، وبأسمائه الحسنى، يثير في الإنسان تطلعه الفطري نحو الكمال، والتخلّق بصفات الرب، والتوسل بأسمائه إليه؛ وبالتالي يزيده اندفاعاً نحو التسامي. على أن حب الله وحب عباده يحفزه نحو العطاء أكثر فأكثر، كما أن العدالة تفتح الطريق أمامه للتحرك بفاعلية كبيرة.

وهذه الحيوية هي جوهر المذاهب الأخلاقية التي سُمّيت بالفاعلية، وأبرزها المزدكية (المجوسية) حيث تمحورت فلسفتها حول دور الإنسان في إعادة الكون إلى سابق صلاحه، وأن كل فعل من أفعالنا يمكنه أن يؤثّر في المعركة حيث الخير هو ما يخدم قضية (اهورامزدا)[3] إله الخير، وحتى عند الأبيقورية والمذاهب التي تشيد باللذة كتبرير للأخلاق، نجد اهتماماً بممارسة الحياة. أما في اليهودية فلعلّنا نجدها في وصيتها بالصحة العامة والخاصة. أما في المسيحية فلعلها تتجلّى في السياحة.

أما في الاسلام، فانها تظهر في صور شتّى أبرزها الجهاد (حيث قمة الفاعلية).

٤/ وسائل الى القيم

١- الحديد /.٢٥

٢- المائدة / ٨.

٣- المذاهب الأخلاقية الكبرى، ص ٦٦.

إهتمّت طائفة من المذاهب الاخلاقية ببعض الوسائل التي تؤدي الى القيم المثلى، واعتبرتها قيمة. وهي ذات فائدة ولكنها ليست هدفاً بذاتها، بل هي سبل ووسائل نحو تحقيق تلك الاهداف، ونذكر فيما يلي بعضها:

١- مثلاً حينما اعتبر "توماس مور" وحدة الشكل والتماثل الرياضي قيمة استلهاماً من علم الرياضيات، فانه كان - حسبما يبدو - يقترح وسيلة لحمل المجتمع على الاهداف السامية (ومنها مثلاً الاهتمام بالآخرين) من خلال وحدة الشكل.

٢- كذلك حين اعتبر (هيوم) الاخلاق حساسية فيزيائية، فانما كان يريد الاستفادة من هذه الحساسية في سبيل التربية، ولكن التربية على أيّ شيء؟ على القيم المثلى، فالتربية وسيلة وليست هدفاً.

٣- وكذلك (فرويد) حين زعم ان عقدة اوديب محور الحالات النفسية فانه كان يقترح وسيلة تربوية في ظنّه.

٤- كذلك (دي مستر) الذي أثار فكرة تحديد قيمة الجهد بمردوده فانه كان يقترح معياراً لتقييم الجهد.

وعموماً: فالعلم متأخّر عن الفلسفة، والذين استلهموا من الحقول المختلفة من العلم مذهباً اخلاقياً فقد كانوا يقترحون وسائل للاخلاق، وليس قيماً لها. بالرغم ان بعضهم كان يتصور انه يحدّد قيمة للاخلاق منتزعة من العلم، بينما العلم يكشف حقائق جزئية والقيمة نظرية عامة.

٥/ لماذا القيم الأخلاقية؟

حين نسعترض المذاهب الأخلاقية، نجدها تهدف إقناعنا بتلك القيم الواحدة مضموناً (بالرغم من تعدد التعبير عنها)، والتي لا تعدو ما سبق الحديث عنها آنفاً (الحب والعدل والحياة) وبعض الوسائل التي تساهم في تكريسها. ولكن هذه المذاهب تسلك نحو البرهان على تلك الأهداف (القيم) سبلاً شتى، تتلخص في طوائف ثلاث:

أولاً: ما يتصل بالذات البشرية، وهذا مذهب أفلاطون وأرسطو ومن اتبعه، حيث يجعل للأخلاق جذراً في ذات البشر (الحب والعقل أو الحالة الملائكية)، وإليه يرجع أيضاً مذهب أبيقور الذي يرى أن اللذة هي أساس الأخلاق ولكن يوسع في معناها إلى أن يصبح سعادة الجميع.

ثانياً: ما يرتبط بطبيعة الخلق مثل الفيثاغورية التي ترى أن الروح حبيسة الجسد ولا تخرج منه إلا بالأخلاق .

ثالثاً: الإيمان الذي يذهب كل الديانات إلى أنه مصدر الأخلاق، وهذا ما نجده في الإسلام، حيث القرآن الكريم يجعل الإيمان بالله وبأسمائه الحسنى، ذروة بناء القيم الرصين، وفي الآيات التالية بيان ذلك، حيث نجد صلة الايمان بأبعاد حياة البشر ومسؤوليته عن أفعاله، وحتى عن نيّاته أمام الرب المحيط به علماً، والمهيمن عليه قدرة، والذي إليه المصير. قال الله تعالى: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ * هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ * وَهُوَ اللّهُ فِي السَّماوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ * وَمَا تَأْتِيهِم مِنْ ءَايَةٍ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَآؤُاْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ**﴾[1].

وعلينا الإيمان بالله، لأنه خلق الكائنات، ولأنه خلقنا، ولأن إليه المصير بعد أجل مسمى، ولأنه يعلم ما لدينا من سر أو جهر أو عمل. (والإيمان بالله يتجلى في الإيمان بالحق) ومن يكذب بالحق سوف يجد خطأه عندما تأتيه أنباء ما كان به يستهزء. وفي الفصل القادم نقرء المزيد من البيان حول هذا الموضوع الذي يأتي خلاصة لتأملاتنا في فلسفة القيم.

القيم الأخلاقية في القرآن

١- الانعام /١-٥.

في هذا الفصل نقرء عن العبادة وكيف كانت هدف الخلقة ، وعن علاقة الإيمان بالتمسك بالقيم، وعن دعائم الإيمان وأبعاد الإيمان.

١/ العبادة غاية خلق الإنسان

قال الله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إلا لِيَعْبُدُونِ * مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ**﴾[١].

استلهاماً من هذه الآية الكريمة نعرف فلسفة القرآن في الحياة والهدف الأساسي لخلقه، وهي - حسبما يبدو لي فيما يتصل بالحياة الدنيا- تتلخّص فيما يلي: العالم خليقة الله سبحانه، والإنسان أكرم خلق الله تعالى في هذه الدنيا. وقد جعل القرآن الكريم عبادة الله، غاية خلقه، وهدف وجوده؛ فما هي العبادة؟ لكي نعرف أبعاد هذه الكلمة (التي هي القيمة الأسمى في هذه الآية) دعنا نتأمل في آفاق معنى الخلق، ثم في معنى العبادة.

الإنسان خَلقُ الله، ماذا تعني هذه الكلمة؟

الجواب:كلمة الخلق تعني أن الإنسان حق، وأنه قائم بالله سبحانه، والكائنات من حوله هي الأخرى حق وهي قائمة بإذن ربها.

ولأن الإنسان مخلوق فهو لا يزال ناقصاً، ويمكن أن يتكامل. وهكذا فإن العالم المحيط به لما يكتمل (والسماء خلقناها بأيد وإنا لموسعون)، ورحمته سبحانه لا تحد وعطاؤه ليس مقطوعاً، وأمام الإنسان فرص لا تحد لكي يتعالى. أما وسيلة تكامله وتعاليه فهي العبادة، لأنها صلة المخلوق بالخالق عبر الوسائل التي أمر بها (الصلاة – الدعاء - العمل الصالح).. وهي تستدِر رحمة الرب إليه. وهكذا أمر الله خلقه بعبادته ليزدادوا كمالاً وسمواً بالرزق والقوة، لأن الله سبحانه هو الرزاق ذو القوة.

٢/ حقيقة الايمان

١- الذاريات /٥٦-٥٨.

وعي الحقائق عقل، والعمل وفقها تقوى، وهما معاً ايمان. ومن هنا اتصلت القيم الأخلاقية السامية في السنّة الشريفة بكلمة العقل، حيث اعتبر له جنود من العلم والحلم والصبر والزهد و.. و..[1] ، بينما ارتبطت القيم في القرآن بكلمة الايمان. إذ القرآن الكريم يبيّن كافة أبعاد الحياة (وعياً وعملاً)، بينما السنة - التي تفسر الكتاب- قد تفصل بين وعي الحقائق وبين العمل بها، بهدف التبيان، على أن السنّة قد تبّين عدم انفصال التمسك بالقيم عن الإيمان.

وللإيمان درجات، لأنه كلمّا ازداد القلب تسليماً ازداد يقيناً وايماناً قلبياً، وكلما ازداد المرء تسليماً علمياً ازداد تقوى وتسليماً عملياً. وهكذا يتسامى الإيمان درجات، هي كالتالية، فيما نستلهم من النصوص:

١- الشهادة بالحق، والاعلان عن الإنتماء اليه، واشهار ذلك أمام الملأ، ومن ذلك امرنا الله بأن نقول كلمة التوحيد ونشهد بها. قال الله تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ** ﴾[2].

٢- مخالفة الهوى، حتى يتمّ التصديق بالحق بكل جوانح القلب، وطرد الوساوس والشكوك، وبالتالي جعل الهوى تابعاً للحق وليس العكس. ولعل ذلك يتم بالتزكية التي أمر الله بها، وقال: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾[3].

٣- اتّباع الحق عملياً بكل قناعة، وذلك هو الأداء الذي يتجلّى بعمل الصالحات، والذي يعقب الايمان في القرآن الكريم حيث يقول ربنا سبحانه: ﴿**الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَالِحاتِ**﴾.

٤- التوكل على الحي القيوم والذي يجعل عزيمة المؤمن قوية بالله الحق، حتى يستسهل المرء الصعاب ويقتحم غمار الحياة بكل شجاعة.

١- يراجع كتاب العقل في الجزء الأول من موسوعة بحار الأنوار.
٢- الإخْلاص/١-٤.
٣- الشَمس/ ٧-٨.

٥- تفويض الأمر إلى الله سبحانه، حيث يستقبل المرء مختلف الحوادث بالسكينة والرضا ودون أدنى اعتراض.

٣/ دعائم الايمان

كيف يعتمر القلب بالايمان؟ بكلمة واحدة؛ حين يُسقط الإنسان بعقله حجاب الزمان فيعيش عِبرَ الماضي، وعواقب المستقبل، يعيشهما بذات الوضوح الذي يعيش الحاضر. وحين يسقط حجاب الظاهر وينفذ ببصيرته إلى غيب الباطن، فاذا به لا ينظر إلى شيء حتى يتبصّر أوله وآخره وحكمته وعبرته. وحين يسقط حجاب الذات، فلا يمزج بين هوى نفسه وبصيرة قلبه، ولا بين أُمنياته وعلمه، ولا بين هدى عقله وبين وساوس الشيطان.

٤/ أبعاد الإيمان

حيث يكون الحق يكون الايمان. فالايمان يكون بكل الحق، إذ مادام الايمان هو التسليم للحق، فانه لا يكون لهذا التسليم أي معيار آخر غير الحق.

ولعلّ الكلمة القرآنية التالية تبين هذه الحقيقة، وهي "الايمان بآيات الله" في مقابل "الكفر بآيات الله أو التكذيب بها"، لأن كل حقيقة هي آية من آيات الله.

فالايمان بها يعني الايمان بكل حقيقة. وحين يُعبر القرآن بـ(آيات الله) بدل الحق، فانه يسلب من غير الله سبحانه صفة الذاتية، لكي لا يوهم التعبير معنى من معاني الشرك بالله. قال الله تعالى: ﴿**وَمَا تَأْتِيهِم مِنْ ءَايَةٍ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَآؤُاْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ**﴾[1].

والإيمان بآيات الله يتجلى في الإيمان بكل حق (السموات ، الأرض، الأحياء و.. و..)؛ ومن الحق الإنسان، فالإعتراف بوجود بني آدم على هذه الكرة وحقوقهم جزء من الإيمان بالحق. قال الله تعالى: ﴿**يَآ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾[2].

١- الأنعام /٤-٥.
٢- الحجرات/١٣

ومن الحق سنن الله في خلقه، والإيمان بها يعني التكيف معها. قال الله تعالى: ﴿**سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً**﴾[1].

ومن الحق رسالات الله، فالإيمان بها نابع من أن الحق حق في كل مكان. ومادام الحق هو معيار الإيمان (والاعتراف)، فلا يجوز أي تفريق بين حق وحق على أساس طائفي أو قبلي أو مصلحي أو ما أشبه. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كَلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِن رُسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**﴾[2]

٥/ الإنسان بين الإيمان والظلم

والظلم هو النقيض للإيمان، كما أنه الثمرة الخبيثة للكفر. فالشرك بالله ظلم عظيم، حيث يقول الله سبحانه (على لسان لقمان الحكيم): ﴿**يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾[3] وأي ظلم أعظم من إنكار حق الله.

ومن مظاهر الشرك الكفر بالقيادة الربانية وإتباع الطغاة وهذا الظلم سبب تدمير الحضارات، قال الله سبحانه ﴿**وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ**﴾[4].

ولعل الظلم يمثل الجانب العملي للكفر، كما أن الجانب العملي للإيمان يمثله العمل الصالح. قال الله سبحانه: ﴿**الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ**﴾[5]

القيم في فلسفة القانون

١- الفتح/٢٣
٢- البقرة/٢٨٥
٣- لقمان/١٣
٤- القصص/٥٩
٥- الانعام/٨٢

القانون وعاء القيم، والقيم غاية القانون، ولذلك لا يمكن أن يفصل بحث القيم عن بحث فلسفة القانون، لأن القيم هي في الحقيقة فلسفة القانون وروحه وهدفه. ومن هنا نأتي على بحث فلسفة القانون بعد أن بحثنا موضوع فلسفة القيم فيما سبق، ويتناول بحثنا هنا الأجابة عن الأسئلة التالية:

ما هو القانون؟ وما هو مصدر شرعيّته؟ وما هي غايته؟ وكل الأسئلة العريضة التي تتناول القضايا العامة حول القانون.

ولأننا نبحث عن جوهر القانون، وروحه وهدفه - لا جرم - نستعرض مختلف النظريات في فلسفته.

القانون الطبيعي

١/ ما هو القانون الطبيعي؟

إذا قلنا القانون الوضعي، فاننا نعني به ذلك القانون الذي وضعه المشرعون (أنّى كانوا) لينفذ على شعب معين في زمن معلوم. بينما حين نقول القانون الطبيعي فاننا نقصد ذلك القانون الّذي لم يشرعه البشر، وهو فوق قوانين البشر وموجود في طبيعة الأشياء وفي فطرة الإنسان، وانما ينبغي على الإنسان أن يسعى لاكتشافه ليطبقه على نفسه.

٢/ نقد القانون الطبيعي

القانون الطبيعي مرادف للقانون الأخلاقي، كما هو مرادف للايمان بعقل الإنسان كانسان، بعيداً عن الفوارق العرقية أو الطبقية أو حتى التفاضل العلمي. وبهذا يحقق القانون الطبيعي أعظم انجاز انساني. ومعروف إن الوحي الإلهي نزل على رسل الله سبحانه، لكي يبلور فطرة الإنسان ويعيده إلى عقله.

ولكن أين هذا القانون الطبيعي وكيف نكتشفه؟ المشكلة هنا، لأنه يتعرض - عادة- لعملية الخلط، فيسوء استخدامه، كما نجد عند (هوبز) الذي اعترف بالعقل الكلي (أو القانون الطبيعي)، ولكنه جعله متجلياً عند الدولة (عقل الدولة). وكذلك (هيجل) اعترف بالقانون الطبيعي ولكنه انتهى إلى تأليه الدولة، وهكذا المادية

التاريخية التي نجدها عند (كارل ماركس). وهكذا كان القانون الطبيعي مطية لأسوء ألوان الفلسفات القانونية، والتي جرت البشرية إلى كوارث فظيعة.

المذاهب الوضعية

ساهمت عوامل شتى في انتشار المذهب الوضعي الذي يعتبر اليوم المذهب الأساسي للحقوقيين في العالم وأبرز العوامل طغيان الفلسفة المادية وانتشار المذهب التاريخي وتقدم العلوم الإنسانية وبالذات علم الاجتماع، وسوف ندرس هذا المذهب بمدارسه المختلفة كالتاريخية، والنفعية والواقعية والديكتاتورية والفاشية والنازية والخالصة.

١/ الفلسفة الوضعية والمذاهب الوضعية

تنكر الفلسفة الوضعية المبادئ العامة، وإنما اهتمت بدراسة الظواهر في مجالي الزمان والمكان. وهكذا قادت هذه الفلسفة اتباعها إلى القانون الوضعي، الذي يُشرع ضمن مجالي الزمان والمكان؛ أي ذلك القانون الموجود في دولة معينة في عصر معين، والذي يمكن دراسته عن طريق الملاحظة المباشرة. وهكذا ولد المذهب الوضعي من لحظة انكار القانون الطبيعي، وقد انقسم إلى اتجاهين.

الأول: المذهب الصوري (الشكلي) الذي يعتبر القانون تعبيراً عن ارادة المشرع (وهو الدولة عادةً).

الثاني: المذهب الواقعي الذي يدرس محتوى القانون حسب العوامل المؤثرة فيه (اجتماعية - تاريخية - اقتصادية وما اشبه)[١].

وبالتالي انقسم المذهب الوضعي في القانون إلى عدة مدارس، أبرزها المدرسة الصوريّة والمدرسة التاريخية والمدرسة النفعية.

٢/ المدرسة التاريخية

١- للمزيد راجع النظرية العامة للقانون، ص ١١٠-١١١.

وحسب هذه النظرية، التي وجدت أنصاراً لها في بريطانيا وأميركا، فإن هناك ثلاث مراحل لولادة القاعدة القانونية:

١- العرف العام الذي يعكس الروح الوطنية، ويمثل المصدر الأساسي للقانون.

٢- علم القانون الذي هو منهج القضاة وعقائد خبراء القانون، وهو يكمِّل الأصول العرفية تكميلاً فنياً.

٣- القانون الذي يشرع رسمياً على أساس العرف وآراء العلماء[١].

ولكن هذه المدرسة تنطوي على نقطة سلبية هامة هي أنه :

اعتبر القانون عملاً لا ارادياً، ينبع من عمق المجتمع وبصورة تدريجية، وعلى المشرع أن يكتشفه كما يكتشف الفلاح نبع ماء من تحت الأرض. بينما الحقيقة إن القانون تشريع إرادي قائم على أساس العقل والارادة والمثل العليا، كما وأنه يتأثر بالظروف والضغوط والمتغيرات المختلفة.

ومن هنا فإن إلغاء سائر المؤثرات في وضع القانون، يعتبر خطأ كبيراً، إذ قد نجد أن القانون يؤثر في المجتمع، ويخلق عرفاً، وخلقاً اجتماعياً، لا العكس.

٣/ المدرسة النفعية (المصلحية)

تعتمد المدرسة النفعية على المنطق التجريبي الذي أسسه (بيكن)، وأنكر التحليل العقلي في معرفة الأشياء، واعتمد التجربة طريقاً وحيداً في بلوغ الحقائق، وكذلك في القيم أنكر وجود المبادئ المطلقة في الخير والشر.

وانعكس هذا المنطق في القانون، على صورة المدرسة النفعية والمدرسة الواقعية (البراجماتزم)، وهما متقاربتان جداً.

أما المدرسة النفعية، فقد زعمت أن عامة الناس يعتبرون مقياس الخير والشر، المصلحة والضرر، وعليه فيجب قياس القانون على الأسس التالية:

١- يجب قياس سلوك الإنسان على أساس النتائج المترتّبة عليه (من نفع أو ضرر) بالنسبة إليه أو إلى الآخرين.

٢- المصدر، ص٩٧.

٢- وهكذا القانون يجب أن يقاس على أساس نتائجه، بالنسبة إلى بناء المجتمع حالياً ومستقبلاً.

٣- ولكي نعرف النفع والضرر في نتائج القانون، يجب أن نقيس مدى اللذة والألم فيه، وأيهما (اللذة والتنعّم أو الالم والشقاء) هو الأكثر.

٤- وفي معيار اللذة والألم، يجب أن لا نهتم بأحد أكثر من غيره، بل نقيس ذلك على أساس عامة أبناء المجتمع[١].

وتتمثل نقطة الضعف في هذه المدرسة في عدم قدرتها على اقناع المؤمنين بها، على الاهتمام بالآخرين. فاذا كانت السعادة الشخصية مقياس الخير، واذا كانت اللذة مقياس السعادة، واذا كان هدف القانون هذا النوع من الخير الفردي المحدود، فأيّ تبرير يكون للدفاع عن القيم والتضحية من أجل الآخرين؟

بلى؛ هناك جانب مشرق في هذه النظرية، هو قياس نتائج القوانين وانعكاساتها على أوضاع الناس، ومدى مساهمتها في خيرهم وصلاح معايشهم، وقياس ذلك على أساس جمعي وليس على أسس فردية.

٤/ المدرسة الواقعية

الفيلسوف الأميركي المعروف (وليام جيمز) الذي اشتهر بتجديد المدرسة المعروفة بالواقعية (البراجماتيزم)، قال في تعريف هذه المدرسة: إنه إسم جديد لمناهج عتيقة للتفكر[٢].

وهو يرى أن مقياس تمييز الحق عن الباطل، هو النتائج الواقعية التي يورثها العمل. وهدف العلم هو هداية الإنسان إلى الانتفاع بالطبيعة، وتكييف البيئة مع حاجات البشر؛ فكلما نفعت حاجات الإنسان فهو حق، وكلما أضر بها فهو باطل.

وهو يرى أن الحق هو المصلحة المرتسمة في أذهاننا، والمصلحة هي الحق المتجسّد في الواقع[٣].

وللمدرسة الواقعية فوائد لا تنكر، منها ما يلي:

١- فلسفة القانون، ص ١٠٨.
١- فلسفة القانون، ص ١٢٠.
٢- المصدر، ص١٢١.

أولا: فهم المتغيرات فهماً عميقاً.
ثانياً: أخذ المصالح بنظر الإعتبار.
ثالثاً: طرح البحوث النظرية البحتة جانباً.
رابعاً: حذف الحواجز التي تفصل بين مختلف العلوم وبين القانون.
خامساً: اعطاء معيار لدراسة الأولويات في القانون.
ولكن للمدرسة النفعية نقاط ضعفها التي نلخصها فيما يلي:

إن المنطق الذرائعي الذي بشّر به (وليام جيمز)، وأكمله (جون ديوي)، يعتبر وريث المنطق الوضعي، الذي يتجاهل دور العقل والوجدان الأخلاقي والمبادئ التي لا يشك فيها أحد، وهو - إذ يركّز اهتمامه بالجوانب المتغيرة من حياة البشر - يغفل عن الثوابت التي هي الأخرى حقيقة. إنّ انكار القوانين الثابتة في الطبيعة (قانون الجاذبية مثلاً) يعتبر سفسطة وجهلاً، فكيف لا يكون كذلك إنكار وجود أنظمة اجتماعية ونفسية في حياة البشر (مثلاً حاجة البشر إلى النظام)، والمنطق الوضعي ينكر وجود ثوابت في حياة الإنسان؛ أليس هذا منطقاً غير علميّ؟

ثم إن هذه المدرسة ترى أهمية المصالح، ولكن دون أن تحدد ما هِي المعايير التي نوزن بها قيمة المصالح ونفضِّل بعضها على بعض. أضف إلى ذلك أن هذه المدرسة تجعل الأخلاق العليا غير مبررة، وبالتالي تعيد البشرية إلى الجاهلية.

٥/ المدرسة الديكتاتورية

بالرغم من أن المدرسة الارادية التي جعلت القانون تابعاً لمشيئة الحكام وأهوائهم، هذه المدرسة كانت منذ القدم، إلا أن فلسفة هيجل (١٧٧٠/١٨٣١) كانت أعتى سند لهذه المدرسة، وتبدأ هذه الفلسفة من التفريق بين الحرية وإتباع الأهواء الفردية. وهكذا يفسر الحرية بالنظام، لأنها لا تتحقق إلا بالدولة، ويزعم أنه لا يمكن التفريق بأية صورة، بين القانون والدولة، وبين السياسة والأخلاق، ومن هنا يمكن للحكومة أن تفدي الفرد لمصلحة المجموع[1].

١- فلسفة القانون، ص١٤١.

أما الفكرة العامة في نظرية هيجل - حسبما أرى - فهي بلورة روح الأمة، حيث يعتقد أن الحياة حركة تكاملية نحو الروّح المطلق، وأن كل أمّة تتفق حركتها مع تلك الحركة التكاملية العليا فإنها تتقدم وتتعالى على سائر الأمم، وحين تضعف حركة هذه الأمة تترك القيادة لغيرها.

والصراع القائم بين الأمم، ضرورة لتقدم تلك الروح العالمية، وانتصار أمّة على أخرى هو - في رأي هيجل - انتصار الحق على الباطل، ولأن الواقع هو الحق فإن النتيجة التي تترتّب على نظرياته هي أن القوة هي الحق.

وبما أن (هيجل) كان يرى أن الألمان هم الأمّة القريبة من الروح المطلقة، وأن الدولة فيها هي كل شيء، وأن قوّتها هي الحق، فان نظرية هيجل وجدت أوضح تطبيق لها في النازية العسكرية، وهذا يعتبر أكبر فضيحة لنظريته.

ونظرية الديكتاتورية الهيجيلية تجسدت أيضاً في سائر المذاهب الشيوعية وتطبيقاتها الفاضحة، وتبعتها الفاشية والنازية والمدرسة الخالصة التي تمجد جميعاً وحدة القانون والدولة، وهي عموماً نظرية خاطئة تماماً وللأسباب التالية:

أولاً: لأنها تجعل للدولة الحق في وضع القانون إحتياطاً. وثانياً: لا تهتم بالعوامل المؤثرة في وضع القانون. وثالثاً: تسن القانون بعيداً عن البيئة الاجتماعية ومتغيراتها. ورابعاً: تتنكر للقانون الفطري.

٦/ المدرسة الفاشية والنازية

ليست للمدرسة الفاشية قيمة علمية أو اساس فلسفي، حتى نفصّل القول في بيانها ونقدها، ولكنها تمثل ذات الخط العسكري الذي نجده عند كل الحكومات القمعية تحت غطاء من الالفاظ الفارغة (النازية: بإسم الشعب الممتاز - اليهودية: بإسم الشعب المختار - الماركسية: بإسم ديكتاتورية الطبقية، والمَلَكية المطلقة: بإسم ظل الله في الأرض).

ولكن الفاشية قد بلغت الذروة في الوقاحة، حيث اعلنت ان الدولة والامة حقيقة واحدة، وان الدولة وحدة اخلاقية وسياسية واقتصادية، وهي كل شيء، والفرد لا

شيء، وانها تتمثل في شخص الديكتاتور والذي يجسّد روح الأمّة. وما المجلس الّا اداة تقنين آرائه، والوزراء أدوات تنفيذية بيده، والحزب والنقابة، وسائل تدعيم مركزه.

والدولة وضعت للصراع مع سائر الدول التي تقاومها (أميركا، فرنسا، بريطانيا، دول الحلفاء ضدّ ايطاليا المتحدية لهم) والمدرسة النازية تشبه الى حدّ بعيد المدرسة الفاشية الا انها تقدس عنصراً معيّناً، وتسعى لجعله الاعلى، واستحالة او إبادة العناصر البشرية الأدنى أو المعادية (وهم غير الاروبيين وهكذا اليهود المعادين).

والماركسية تشبه الفاشية والنازية، في تقديس الدولة، ووضعها فوق النقد، الا انها تنتمي (ولو نظرياً) بالمدرسة الاجتماعية التي سوف نتحدث عنها- قريباً - إن شاء الله.

والتبرير الذي يمكن اقامته لظهور مثل هذه الدول الناشزة، والتي ليست بالقليلة عبر التاريخ وفي عصرنا الراهن (صدام في العراق والصهاينة في فلسطين و.. و..) هو إما إنتشار الفوضى واللامسؤولية في الامة، حتى تأتي الدولة الفاشية لملأ الفراغ، (ايطاليا) أو اشباع الشعب بالغرور والتطلّع لتأدية دور اكبر من طاقاتهم (اسرائيل - والمانيا النازية) أو إرهاب دولة كبرى يستفيد منه ديكتاتور ذكي تبريراً لتصرّفاته (صدام).

وانّى كان، فان المبادئ العقلية والوجدانية التي عرفناها سابقاً تدحض هذه التبريرات، وتكشف: ان السعادة والتقدم والنصر، لا تكون الا من حظّ الدول التي تخدم افراد الشعب وتعطيهم روح الكرامة والاستقلال وتنظّم طاقاتهم لتحقيق المبادئ السامية.

٧/ المدرسة الخالصة

لقد تابع بعض الفقهاء القانونيين نظريات (هيجل) في وحدة الدولة والقانون امثال "ايرينغ" و"لا باند" و"لينك" و"غيركة".

وخلاصة نظرياتهم هي ان الدولة ذات شخصية مستقلة، وهي مصدر القانون، ولها الحق في وضعه وفرضه. على اختلاف بينهم في ان الدولة هل يحقّ لها ان تتمرّد على القوانين التي تضعها، أو عليها ان تتقيّد بها. ولكنهم يشتركون في مقولة: ان القانون وضع للدولة وليست الدولة وضعت من أجل القانون[1].

ولكن النظرية التي ساهمت في اعطاء شخصية مستقلة للقانون، وحررّته من علاقاته بسائر الحقول المؤثرة فيه (الطبيعة - الدين - الفلسفة - التاريخ - المجتمع والاقتصاد) هي نظرية (كلسن) التي تسمى بالمدرسة الخالصة.

وبالرغم من ان نظريته ليست خالصة، لأنها تعتمد على خلفية علمية معينة، هي الفلسفة الوضعية، ولذلك لم تلق أذناً صاغية عند اكثر الحقوقيين من بعده. بالرغم من ذلك فان فيها نقاطاً ايجابية.

وتقوم نظريته على الاعتقاد بأن حقيقة القانون هي الإلتزام.؟ ويفرقّ بين ما هو كائن وما ينبغي ان يكون ويعتبر ما "ينبغي" هو القانون، ولكن أين يوجد الالتزام؟

إنما في الدولة لأنها المؤسسة الاجتماعية الاساسية التي يلتزم بها الناس عبر الميثاق أو الدستور. ويرى (كلسن) إن مسؤولية رجل القانون تتلخّص في وضع القانون المتناسق مع الدستور، والمتناغم مع سائر بنوده. فعلم القانون - كما علم الرياضيات - لا يهتّم بمحتوى القانون بل بشكله.

إن النقطة الايجابية في هذا المذهب: اهتمامه بالقانون من خلال خصيصة اساسية فيه، هو كونه اطاراً للنظام القائم أو قل: منظومة متناسقة من الالتزامات المفروضة على الناس بأمر سلطوي.

١- فلسفة القانون، ص١٦٥.

ولكن الانتقاد الكبير الذي يوجّه إليه؛ أنه يفصل إطار القانون عن محتواه، ثم ينكر الحق الطبيعي للإنسان قبل أن تكون هناك دولة أو نظام وقانون.

إن فصل القانون عن العوامل المؤثرة فيه يؤدي الى نتائج سلبية هي التالية:

أولاً: صحيح ان الدولة هي التي تضع القانون، ولكن صحيح ايضاً انها لا تضعه اعتباطاً، وإنما اعتماداً على معرفة مجمل الظروف المحيطة بالمجتمع، من ثقافة وعلاقات اجتماعية وسياسية وأعراف و. و.

ثانياً: الغاية المرجوّة من القانون تنظيم العلاقات الاجتماعية التي تتفاعل مع مؤثرات سياسية اقتصادية ثقافية وتاريخية، وغيرها، فكيف يمكن تنظيم العلاقات من دون الاهتمام بهذه العوامل المؤثرة فيها.

ثالثاً: هل يمكن تنفيذ القانون الذي لا ينبع من الظروف المحيطة، وهل يكتفي المشرّع بوضع القانون سواء نفذ أم لم ينفذ؟

رابعاً: كيف يمكن للقاضي ان يطبق القانون الصارم، ومن دون ملاحظة الظروف المحيطة وهل ذلك خدمة للحق ولغايات القانون[1].

خامساً: انه هذه النظرية قائمة على اساس غير متين هو انكار القانون الطبيعي وتلك المبادئ الخالدة التي يهدينا اليها العقل والوجدان.

المذهب الاجتماعي

في أواخر القرن التاسع عشر، اقترح (دوركايم) ثلاث قواعد تطبق على القانون:

ألف: ضرورة دراسة الظاهرة الاجتماعية بمنهج الملاحظة والتجربة، كما تدرس الظاهرة الطبيعية تماماً.

وبما أن القانون ظاهرة اجتماعية، فعلينا دراسته بهذا المنهج، حيث أن مصدر القانون هو العرف الذي يتكوّن عفوياً.

١- فلسفة القانون، ص١٧٨-١٧٩.

باء: الظاهرة الاجتماعية تأتي نتيجة ضغط المجتمع، وليس نتيجة تفكير فرد أو أفراد من أبنائه تفكيراً موضوعياً عقلائياً. والقانون أحد أبعاد الظاهرة الاجتماعية (إلى جانب الأخلاق والدّين واللغة والثقافة وما أشبه)، فهو يولد نتيجة الضغط.

جيم: أيّة فكرة أو ظاهرة أو اتجاه في المجتمع، يعتبر انعكاساً للروح الجماعية؛ أي لتلك الشخصية المستقلّة للمجتمع. والقانون - بدوره - هو قانون تلك الشخصية، وحسبما يقول باتيفول: ولكون كل مجتمع يعيش القانون، فعلم الاجتماع يؤدي - إذاً - إلى مشاهدة الظاهرة القانونية في قواعد تنظيم أيِّ تكتل بشري، سواء أكان الأمر يتعلّق بأضعف جمعية أو بأقوى دولة أو بالأسرة الدولية[1].

ولقد انعكس نشاط علم الاجتماع (الذي أسسه دوركايم) على أراء خبير قانوني فرنسي اسمه (هوريو) إلا أنه رأى أن للفرد أيضاً مبادراته. وهكذا لابد من مناقشة آراء (هوريو) عند دراسة المذهب الاجتماعي في القانون ، وأكبر مشكلة عنده هو أنه قيّد علم القانون ولم يفرق بين مجال علم الاجتماع ومجال القانون، حيث ان علم الاجتماع يدرس ما هو "قائم" بينما علم القانون يدرس ما "ينبغي" أن يكون. وهكذا انتقده "جيني" الخبير القانوني المعروف، لأنه لم يفرق بين الواقع (وهو مجال علم الاجتماع) والحقيقة (وهي مجال علم القانون) وأنه فقط كان يهتم بدراسة الظاهرة الاجتماعية دون التبصّر فيها[2].

بتعبير آخر؛ إذا جعلنا القانون مجرد ظاهرة اجتماعية، لا تبقى للفرد وبالذات للمشرع أية مسؤولية. ولنا إذاً أن نتساءل ما هو دور الفرد في حركة المجتمع؟ هل هو دور انفعالي سلبي، أم دور فاعل؟ وفي مجال القانون هل على رجل

١- فلسفة القانون، ص ٣٢.
٢- المصدر، ص٣٤.

القانون أن يناضل من أجل مبادئ سامية، أم انه يكتفي بتسجيل الظواهر الاجتماعية ويستنبط منها بعض القواعد القانونية؟

مشكلة أخرى في هذه المدرسة، الخلط بين العرف والقانون، وكأن العرف ذات شرعية مساوقة لشرعية القانون. كلا؛ العرف الاجتماعي لا يتمتع بصفة قانونية، إلا إذا وافق النصوص القانونية الموضوعة، أو إذا قام العرف بتفسير تلك النصوص. ذلك أن العرف ليس في درجة القانون، خصوصاً اليوم حيث تعقّدت العلاقات وتسارع تطورّها وكثرت وتشابكت الصراعات، مما يستدعي جهازاً متطوراً لإدارته يتمثل في الجهاز القانوني، ولا يمكن الاعتماد فيه على العرف، الذي ينقصه الوضوح والثبات والشرعية الكافية.

وإذا أردنا أن ننصف المدرسة الاجتماعية، لابد أن نقول: لعلّ المساهمة الفعّالة لعلم الاجتماع في التشريع القانوني، كانت في توصيتها بدراسة الظواهر الاجتماعية لاكتشاف القانون المناسب. ولا ريب إن تقدم علم الإحصاء والمسح الاجتماعي، وتطور وسائل مراقبة الظواهر الاجتماعية، كل ذلك ساهم في أهمية هذا البند، واليوم لم يعد أحد يجهل مدى علاقة التشريع بوعي حركة المجتمع، ومعرفة تطوّراته.

ثمة مشكلة أخرى في المدرسة الاجتماعية، تتمثل في أنه حسب المذهب الاجتماعي الذي يجعل القانون ظاهرة اجتماعية، يختلط القانون الحكومي مع قانون الجماعات غير الحكومية (جمعّيات سرّية - عصابات إجرامية). فاذا كان القانون عرفاً مرسماً، أو بلورة للعرف الاجتماعي، فان نظام العلاقة بين أبناء هذه الجمعيات، أو العصابات لا بدّ أن يعتبر قانوناً، كما يعتبر نظام الدولة الحاكمة قانوناً، مع إن هناك فرقاً أساسياً يفصل بينهما، هو إن أقصى عقوبة تفرضها الجمعية السرية تتمثل في اقصاء العضو المتمرد عن الجمعية، وحرمانه من الانتفاع بخيرات الجمعية. بينما الدولة، تملك قوانين متكاملة قد تتمثل في

استعادة الحق من المتمرد (غرامات، ديات)، وهكذا اعتبر البعض هذه النقطة ثغرة في المذهب الاجتماعي.

قيم التشريع

فيما سبق أشرنا إلى ثلاثة أنماط من المذاهب القانونية؛ المذاهب الطبيعية، والوضعية، والاجتماعية. وقد آن لنا أن ندرس قيم التشريع التي يسعى نحوها المشرع للقانون.

١/ لماذا البحث عن قيم التشريع؟

المدارس القانونية تختلف في أمور شتى، ولكنها تؤمن – إلا بعض المذاهب الشاذة منها- بضرورة البحث عن أهدافها، لأن المدرسة الإرادية والتي تجعل القانون تعبيراً عن إرادة المشرع تبحث عن أهدافه في التشريع. وأغلب المؤمنين بالمذهب الاجتماعي يرون البحث عن أهداف القانون مفيداً، لأن المجتمع الذي يميل إلى قانون معين يستهدف من ورائه شيئاً معيناً. أما المدرسة الطبيعية فإنها ترى المشرِّع يسعى نحو تطبيق المبادئ العليا على المتغيرات، وذلك عبر التشريع، بينما المدرسة النفعية تبحث عن المصلحة العامة التي هي هدف القانون. بلى؛ المدرسة الصورية لا ترى كبير فائدة في دراسة أهداف القانون، لأنه يثير الجدل العقيم.

وفيما يلي نبحث أولاً عن جدوائية البحث عن الأهداف السامية، ثم عن الاهتمام في القانون بالفرد أولاً أو بالمجتمع.

٢/ الأهداف القريبة أو المطلقة

رسكو باوند (وهو من الباحثين المعارضين في القانون) يرى البحث العميق عن الأهداف السامية للقانون بحثاً عقيماً. يقول عن ذلك: ولقد جهد الفلاسفة لاكتشاف طريقة تؤدي إلى معرفة الأهمية الذاتية والجوهرية للمصالح المختلفة، بحيث يُمكِّننا ذلك من وضع قاعدة مطلقة، نستطيع بموجبها أن نؤمن و(نحقق) سيادة المصالح ذات الأهمية والوزن الكبير، ولكنني متشكّك في إمكان التوصل

إلى حكم مطلق بهذا الشأن، فنحن نواجه - في هذا الصدد - قضية فلسفية سياسية واجتماعية أساسية[1].

ولكن يبدو أن هذا الكلام وسواه، لا يمكنه مواجهة الميل الفطري العنيف عند الإنسان، أي انسان في أي مكان ميله إلى معرفة الحقائق المطلقة والأهداف، ومن ثم تنظيم حياته وفقها. والاهداف البعيدة التي لا تعرف إلا ببحوث عميقة، تهدف وعي الحقائق الكبرى.

ثم إن إثارة هذه الاهداف لجدل كبير، تزيدنا اصراراً على التعمق فيها، لا إهمالها لأنها موضع اهتمام الناس، ولن يكون شيء كذلك إلا لأنه هام ومفيد.

٣/ أهداف القانون؛ الفرد أو المجتمع

هناك مذهبان رئيسيان في القانون يقول أحدهما أن الهدف الرئيسي للقانون الفرد، بينما يرى الآخر أنه المجتمع؟

ألف: المدرسة الفردية

تقول هذه المدرسة: إن مصدر الحق إرادة الإنسان، وأعظم قيمة هي حريته، والفرد يسبق المجموع، والقانون وضع لحمايته، ولا معنى لمجتمع لا يحمي حرية الفرد، وإنما يعيش الفرد ضمن المجموع بحريته، وهكذا يتنازل عن بعض حريته من أجل تحقيق هذا الهدف. فأساس بناء المجتمع، العقد الاجتماعي(تنازل الفرد عن بعض حريته مقابل تنازل الآخرين عن مثلها للوصول إلى هدف أفضل).

وكل القوانين تستمد شرعيتها من اعتراف الفرد بها، وحتى قوانين الارث والجنسية تستمد قوّتها من أنها تحظى باعتراف ضمني من قبل الفرد. وإنما القانون منظم للارادات الحرّة. وكما أن العقد ينظم علاقة فرد بفرد كذلك ينظم علاقة الفرد بالأمة.

نقد النظرية الفردية

١- مدخل إلى فلسفة القانون، ص٥٩.

انتقدت النظرية الفردية من أربعة منطلقات:

أولاً: منطلق النظرية المعاكسة لها، وهي أصالة المجتمع، حيث زعموا أن المجتمع وليس الفرد أساس القانون. وسوف ندرس هذه النظرية في فصل آت إن شاء الله.

ثانياً: منطلق تلاشي الفردية، حيث يقال صحيح أن الفرد أصل، وأن المجتمع تركيب من عدد من الأفراد، ولكن حقوق الآخرين المفروضة على الفرد كثيرة، مما تجعل الفردية تتلاشى في الحالة الاجتماعية.

ثالثاً: منطلق التشكيك في نظرية العقد، وذلك بالقول أن جوهر نظرية (الفردية) هي الفكرة التالية: ان العقد يعبّر عن الارادة، وأن الارادة تمثل الشرعية الوحيدة، وأن الحياة التي لا حرية فيها لا تسوى شيئاً.. وعليها أكثر من ملاحظة:

أ: من يقول إن العقد يعبر دوماً عن الارادة الحقيقية للإنسان، فالمضطر الذي ألجأته الظروف القاهرة لقبول عقد، تراه يتقبله ظاهراً، وقلبه يكرهه أشدّ الكراهية.

ب: بعكس ما يتصور بادئ الرأي، لا يقتصر العقد على طرفي المعاملة، بل المجتمع يتأثر سلباً أو إيجاباً في العقد، إذ عليه أن يتحمل نتائجه.

رابعاً: منطلق نسف قاعدة النظرية الفردية، اذ أن قاعدة النظرية الفردية من الناحية الفلسفية هي: الارادة الحرّة للانسان وأن لها القيمة العليا، ولكنها ليست كذلك. إذ أن العدالة قيمة أخرى لا يمكن الاستهانة بها.

فاذا تعارضت الحرية والعدالة، فان علينا التوفيق بينهما. ولا ريب أن العدالة لا تتحقق عبر الحرية وحدها، بل - هي الأخرى - بحاجة إلى قوانين خاصة.

باء: المدرسة الاجتماعية

عوامل شتّى ساهمت في تطرّف فلاسفة ومشرعين وسياسيين، منذ سقراط وافلاطون، حتى (كنت، وييرينغ، وهتلر) تطرفهم باتجاه المذهب الاجتماعي، والذي تجتمع تيّاراته على رفض المذهب الفردي، وعلى أن غاية القانون توفير سعادة المجتمع وتنظيم حياة الناس بصورة مشتركة.

وتلك العوامل - مجتمعة كانت أو مفردة - تدعم هذا المذهب بين الحين والآخر، ولذلك كانت أسهمه ترتفع عند توافرها ثم تهبط كلما تناقصت أو ضعفت، وهي التالية:

الأول: مساوئ المذهب الفردي، مثل الظلم الفاحش، وسوء توزيع الثروة، واستغلال المحرومين.. وهكذا. وكان هذا العامل، سبباً لتطرف الناس نحو الاشتراكية، التي هي غاية المذهب الاجتماعي في نهايات القرن التاسع عشر، وفي جميع البلاد التي تناولها التصنيع، بسبب سوء معاملة العمال، واتساع الفجوة بين طبقات المجتمع[1].

الثاني: انتشار الروح الوطنية في شعب بسبب احساس مهانة كبيرة، أو بسبب تطلّع كبير عندهم، كما نرى عند الشعب الألماني بعد الهزيمة التي مني بها في الحرب العالمية الأولى. فلما توجّه إليه هتلر باسم الجماعية، وطلب منهم التضحية بفرديتهم في سبيل الوطن لتحقيق النصر، استجابوا له طائعين أو مكرهين[2].

الثالث: المبالغة في الطهر الخلقي، ومحاولة التجرّد عن الذات للوصول إلى قمة الكمال، كما نجده عند كبار المتصوفة، وربما دعى هذا العامل المسيحية إلى مطالبة الناس بالذوبان في المجتمع.

الرابع: الخلط بين الدولة - باعتبارها حامية لحقوق الأفراد - وباعتبارها هي صاحبة حق التشريع.

نقد المدرسة الاجتماعية

إذا كان الهدف من وراء تبني المذهب الاجتماعي، إقامة العدالة ورفع الظلم بكل ألوانه، فإن من المشهود أن هذا الهدف لم يتحقق، بل انتشر الظلم الفاحش، في ظل المذهب الاجتماعي .

١- راجع فلسفة القانون، ص٨٥؛ وكذلك راجع فلسفه تاريخ، ص ٣٨٠.
٢- راجع فلسفة القانون، ص٩٣.

وإذا كان الهدف قيمة أخرى، كالأمن الوطني والتقدم الحضاري في مواجهة تحدّيات كبرى، فعلينا أن ندرس ثلاثة محددات قبل أن نقرر، أن متى يمكن أن نضحيّ بحرية الأفراد وحقوقهم الطبيعية، في سبيل تلك الأهداف.

ألف: أولوية تلك القيمة، حسب متغيرات الظروف، على الحرية الفردية؛ فمثلاً الأمن الوطني قيمة سامية تستحق التضحية بكل قيمة اخرى من أجلها، ولكن التضحية ستكون بحدود الضرورة.

أما التقدم الحضاري - الذي يتخذه البعض تبريراً للتضحية بحقوق الأفراد - فإنه يستحق ذلك في ظروف معيّنة دون غيرها. (عندما تواجه الأمة تحدّيات كبرى لولا الاستجابة لها، تتلاشى الأمة؛ وبالتالي عندما يصبح التقدم الحضاري ضرورة أمنية، فيعود إلى قيمة الأمن، والتي قلنا أنها تسبق كل قيمة).

باء: تحديد الضرورة الأمنية أو الضرورة الحضارية، إنما يتمّ عبر سلطة شرعية مقبولة عند الأمة. إذ من دون ذلك، تدعي كل سلطة أن الضرورة الأمنية تقتضي التضحية بحريات الأفراد، والاعتداء على حقوقهم الطبيعية.

جيم: يجب التأكد من عدم امكانية تحقيق القيمة - التي نسعى إليها - مع المحافظة على حقوق الأفراد، علماً بأن التأكد من هذا الأمر يعتبر أمراً صعباً.

وحسبما يقول (د. كاتوزيان): في المجتمع الذي تهدف كل القوانين فيه المحافظة على السلطة، لا نستطيع أن ننفي إمكانية تحول حقوق الإنسان فيه إلى لعبة لأهواء الطبقة الحاكمة. فاذا كنا نخشى في المجتمع الحر من اعتداء الشركات الكبرى والرأسماليين على حقوق الآخرين، مستخدمين ثرواتهم، أفلا يحق لنا أن نخشى مثل ذلك في مجتمع تحتكر السلطة كلّ القوى ووسائل الانتاج، وتملك أيضاً ناصية القانون؟[1]

جيم: المدارس الوسطى

١- فلسفة حقوق، ص ٣٨٧.

بعد فشل المذهب الاجتماعي بعد المذهب الفردي في توفير القيم العليا، التي ينشدها الإنسان بفطرته من العدالة والتقدم، شرع الخبراء في البحث عن مذهب جديد، يوفّر كرامة الفرد وحريته، وفي ذات الوقت يؤمن أكبر قدر ممكن من العدالة الاجتماعية. ولكن ما هو المعيار؟

فإذا لم يكن الفرد قيمة مطلقة ولا المجتمع، فما هي القيمة المطلقة؟

يبدو أن هناك ثلاثة مشاريع حلّ لهذه المعضلة:

أولاً: تبني المذهب الفردي بعد اصلاحه بزخم من القوانين التي تحدّ من سورته، وتهذبه، وتشبعه بالروح الاجتماعية. وهذا ما نجده في الدول الغربية.

ثانياً: تبني المذهب الاجتماعي، بعد تعديله ببعض الحريات الممنوحة، وتشجيع المبادرات الشخصية. وهذا ما نجده عند الزعماء الصينيين اليوم، كما ونقرأه عند بعض الأحزاب الشيوعية في الغرب (الحزب الشيوعي الايطالي مثلاً).

ثالثاً: البحث عن معيار ثالث، نقيّم به مصلحة الفرد، ومصلحة المجتمع، ونوازن بينهما. وهذا ما نجده عند "غورويج" الذي طرح مفهوم السعادة البشرية، أو عند (رسكو باوند)، الذي ابتدع مشروع الهندسة الاجتماعية.

وعند هذه النقطة تتصل بحوث القانون ببحوث القيم، والتي تعتبر الموضوع الرئيسي لهذا الجزء في الكتاب. فمن أجل أن نعرف المعيار المشترك بين المواطن (الفرد) والدولة (الممثلة للمجتمع)، لا بدّ أن نبحث عن معنى المعيار (القيمة) ومصدر شرعيته، ومن ثم تحديده بالضبط. وكل هذا البحث نجده في موضوع القيم كما في فلسفة المجتمع، وأيضاً في هذا القسم من بحوث فلسفة القانون.

من هنا دعنا نستعرض بعض النظريات الحديثة التي تسعى نحو اكتشاف المعيار الذي يجمع بين الفردية والاجتماعية، وهي التالية:

يرى عالم الاجتماع الفرنسي غورويج، أن هدف القانون تحقيق العدالة في اطار مجتمع معين[1]. بينما يرى الخبير الفرنسي روبيه، أن الغاية الأساسية للقانون، هي توفير النظام (الأمن). أما باوند، فإنه يرى أن القانون يقوم على أساس هدف محدد، وهدفه هندسة المجتمع، بإقامة توازن بين مصالح مختلف الفئات.

ونحن بدورنا قمنا بدراسة القيم (المصالح) الاجتماعية في] الجزء الرابع من موسوعة التشريع الإسلامي (وسيأتي إيجازه فيما بعد) ، ولكن هنا ينبغي أن نبحث عن أهم القيم التي بحثها فلاسفة القانون والعلاقة بينها، وهي الأمن والعدالة والخير العام.

٤/ الأمن والعدالة والخير العام

أ/ الأمن

دعنا نبحث عن هذه القيمة في عدة نقاط:

أولاً: الأمن، يعني نظاماً قائماً على قواعد ثابته، تؤمّن سلامة أبناء المجتمع، واحترام دمائهم وأموالهم وأعراضهم وحريتهم.

ثانياً: قيمة الأمن قد تبحث على صعيد الفلسفة العامة للحياة، والتي سبق الحديث عنها في فصل مضى وهناك تصبح أعلى أو في مستوى سائر القيم المثلى مثل الكرامة والحرية والتقدم، وقد تصبح في مستوى أدنى منها. ولكن الحديث هنا عن قيمة الأمن على صعيد فلسفة القانون والغاية منه، ولذلك فإنها أهم قيمة في هذا المستوى، لأن أهم غاية للقانون هو توفير الأمن.

ثالثاً: لكل قيمة درجات، وعلينا أن نقارن كل درجة من قيمة، بما يعادلها في ذات الدرجة من سائر القيم. فالأمن قد يكون أمناً وطنياً (يشمل كل أبناء المجتمع)، وهو أعلى درجات الأمن، فلا بد من قياسه بالكرامة الوطنية، أو بالتقدم الحضاري لكل الأمة.

١- فلسفة حقوق، ص ٣٩٤.

وقد نبحث عن الأمن في مستوى فريق من الناس، فلا بد من البحث عن قيمة التقدم في ذات المستوى. ومن الخطأ أن نبحث قيمة معينة في درجة أسمى مع قيمة في درجة أقل، فاذا سألنا هل حرية شخص أهم أم أمن الوطن؟ فالاجابة تكون بلا تردد: أمن الوطن. ولكن لا يعني ذلك أن الأمن أهم من الحرية دائماً.

وقد انتقد البعض اعطاء الأولوية للأمن، واعتبر ذلك اطاراً بلا محتوى، بل قال البعض إن النظام غير العادل ليس نظاماً وإنما مجرد فوضى[1] واضاف: وفي ذلك يكمن خطر برنامج الأمن، لأنها حسب باتيفول تتجاهل الاحترام الواجب نحو الفرد[2].

المجتمع بين الحرية والأمن

ولكي نعرف مدى صحة هذا النقد، نذكر بالحقائق التالية:

أولاً: أنّى كانت القمية العليا للحياة، فان الغاية الأسمى للقانون إقامة القسط. ولكن القسط لا يقوم من دون اشاعة الامن، وتحكيم النظام، واقامة علاقات ثابتة ومعروفة النتائج بين الناس. فأول غايات القانون هو الأمن (النظام)، والقانون الذي لا نظم فيه ليس قانوناً. بينما القانون الذي تنقصه العدالة يعتبر قانوناً جائراً، والقانون الجائر افضل من اللاقانون.

وجاء في حديث مأثور عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: "ظالم غشوم خير من فتنة تدوم".

ولكنه ليس الأمثل، وعلينا أن نبحث أبداً عن أمن عادل.

ثانياً: لاستقرار النظام درجات، يبدأ بمنع الفوضى، وينتهي بوضع قواعد قانونية لكل صغيرة وكبيرة من حياة البشر وحوادثها المتوقّعة. وعلينا أن ندرس - كما قلنا آنفاً - كل درجة من الاستقرار ونقيسها بسائر القيم. فأبسط درجات

١- فلسفة حقوق، ص ٣٩٤.
٢- المصدر.

الاستقرار (الأمن) تسبق القسط، ولكن الدرجات المتقدمة والعالية من الاستقرار لا تفضل على القسط.

ب/ العدالة

أول سؤال يطرح هنا ما هي العدالة؟ لقد قالوا العدالة إعطاء كل ذي حق حقه. ولكن هذا التفسير يبدو تفسيراً لفظياً، أكثر منه تفسيراً حقيقياً. إذ يعود السؤال ذاته: ما هي حقوق كل ذي حق؟

يبدو أن العدالة تعني المساواة في لحظة الانطلاق، حيث يبدأ التسابق نحو مكاسب الحياة، ثم يتمّ حساب حق كل سابق بقدر جهده.

وصفوة القول؛ لولا ان العدالة قيمة غير واضحة المعالم، فانه لا يشكّ أحد في أنها أهم القيم الإنسانية. والاختلاف في العدالة ينشأ بسببين:

الأول: بسبب اختلاف الظروف، إذ أن العدالة ليست دائماً واحدة في أي زمان ومكان، ولذلك فهي تصبح قيمة عامة يستلهم منها المشرع قانونه والقاضي حكمه.

الثاني: بسبب الاختلاف في معنى العدالة اختلافاً فلسفياً يتصل بعقائد كل أمة وثقافتها وتاريخها، وهذا الاختلاف لا يضر باتخاذها هدفاً مقدساً للحياة وللقانون.

ج/ التقدم

تسخير الطبيعة، واستعمار الأرض، والانتفاع بمواهب الله فيها، يعتبر هدفاً لكل بشر، وهذا ما نسميه اليوم بالتقدم.

وقد اعتبر الفلاسفة هذا الهدف قيمة أساسية، وقد ذكر به الوحي الإلهي. أما علماء القانون فقد اعتبره بعضهم أهم قيمة ينشدها القانون.

ويتصل تسخير الطبيعة (التقدم) بالجانب الاجتماعي من حياة البشر. فمنذ أن كان ثمة علاقة بين انسان وآخر، كان أحد أهم الروابط بينهما المصلحة المشتركة. ولكن المصلحة المشتركة قد لا تكون في تسخير الطبيعة، بل في

توفير الأمن أو الحرية أو أي شيء آخر. من هنا أفرد بعضهم لها عنواناً مستقلاً واعتبروها قيمة بالرغم من تداخلها مع قيمة (التقدم) تسخير الطبيعة.

د/ المصلحة المشتركة

وقد اعتبر البعض المصلحة العامة القيمة الأسمى، التي تجمع المصلحة الفردية والمصلحة الاجتماعية، وبالتالي اعتبر أفضل حلّ لمعضلة (الفرد أولاً، أو المجتمع أولاً).

وقد كانت فكرة الخير موجودة منذ عصر أقدم الفلاسفة، حيث أشار إليها (ارسطو)، واعتبرها العلة الغائية للحياة، وأشاد بها القديس (توما الاكويني)، وهي قريبة من المذهب التاريخي، بل والمذهب الطبيعي، بالرغم من عدم استثمارها من قبل رجال القانون بصورة كافية[1].

ولا ريب أن القرآن الكريم الذي يعتبر المصدر الوحيد للتشريع (بالاضافة إلى تفسيره من قبل السنّة الشريفة) قد ذكر بالخير، قال الله تعالى: ﴿**ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**﴾[2].

ولكي تتوضح أكثر فأكثر المصلحة العامة، وتتبلور رؤيتنا تجاهها ينبغي أن ندرسها عبر نقاط:

أولا: الحق بين الموضوعية والذاتية.

هل الحق حق لأنه حق عند الله سبحانه، وفي سنن الله التي قدرها في خلقه ويجريها بقوته وقدرته سبحانه، أم أن الحق حق لأن الناس يعتبرونه حقاً أو لأن ارادة المشرع (القانون) يعتبره كذلك؟

في بحوث سبقت قلنا إن الحق ظاهرة موضوعية، ولا تتصل بالذات البشرية. من هنا لا فرق بين أن نقول أن السماء والأرض والجبال والأحياء حق، وبين أن نقول ان حاجة الإنسان إلى الطعام والسكن والجنس والحرية حق. وهكذا يكون

١- راجع فلسفة القانون، ص ٩٩؛ وكذلك فلسفة حقوق، ص٤١٩.
٢- النساء/ ٥٩.

لكل فرد فرد حق خاص به، ولكن حين تجتمع جملة حقوق لأبناء المجتمع تصبح موضوعاً للقانون، لأنه ينظمها على أسس واضحة. وهكذا كانت حقوق الأفراد الطبيعية جزء من وجوداتهم، وامتداداً للإعتراف بهم (وهي كلها وقائع ثابته لا ريب فيها) وتتكوّن منها من حيث المجموع المصلحة العامة.. فالمصلحة العامة ليست حقيقة مختلفة عن مجموع حقوق الأفراد، فهي عدد ألمأة التي ليست سوى تعبير آخر لمأة عدد (١-٢-٣ إلى ١٠٠).

ثانياً: في الإنسان نزعتان؛ نزعة الذات ويمثلها حب الامتلاك وحب الخلود وسائر الشهوات، ونزعة التجاوز للذات ويمثلها حب الذرية والإحسان والايثار. وكلما زادت قوة هذه النزعة في المجتمع، كان المجتمع أكثر سلامة وأقرب إلى المدنية؛ ولأن في المجتمع فئات تغلب نزعاتهم الذاتية، بينما توجد فئات يحبذون التضحية والإيثار، فإن القانون يقوم بدور المنظم لمصالح المجتمع، أو بتعبير بعضهم يقوم بهندسة المصالح .

ثالثاً: تعتمد قيمة المصلحة العليا على التوازن بين كافة المصالح، وتحكيم أقصى حد ممكن من العدالة، وهذه هي البوتقة التي تنصهر فيها حقوق الناس جميعاً .

رابعاً: وحين يستتب الأمن ويسود القانون وتتوازن مصالح الناس، يتحرك قطار المجتمع نحو هدفه؛ فما هو هدفه؟ لا ريب أن المجتمعات مختلفة الأهداف، ولكن أبرز أهدافها التنمية والاستفادة من مواهب الله لعباده، وعند هذه النقطة تلتقي فلسفة هندسة المصالح مع بصيرة الغاية من الخلق والتي سوف نناقشها إن شاء الله لاحقاً.

بصائر في قيم التشريع

وفي نهاية بحوثنا هذه نسجل خلاصة تأملاتنا في الكتاب والسنة فيما يتصل ببحث فلسفة القانون ونتحدث عن حكمة خلق الله سبحانه للكائنات وعن ثوابت القيم ومتغيراتها، ثم ندرس القيم المتغيرة والاتجاه العام للمجتمع ومكوناته وحاجته الأهم وروحه وكيفية تكامل المذاهب القانونية وكيفية التعرف على القيم المتغيرة ومعايير أولوية القيم وكيفية معرفتها عند الشرع.

١/حكمة الخلق إطار القيم

الخليقة صنيعة الله سبحانه، الذي قدرها وأنشأها وصوَّرها وسوّاها وقدَّر أقواتها وأجرى فيها سنناً ثابتة.

والخلق عباد الله الذين لم يقطع عنهم رزقه ومواهبه، بل دعاهم إلى الاستزادة منها لأنه واسع العطاء.. وفطرهم على حب التكامل اليه، والتسامي إلى بعض اسمائه الحسنى..

فالخلق في زيادة، ونظام الخليقة في تكامل، ولا ينتهي عطاء الله سبحانه. ﴿**وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً**﴾[1].

وللانسان دور في تكامله؛ فكلما تطلع إلى الاعلى وسعى له سعيه، وفّقه الله إلى ذلك وهداه. وتلك هي أعظم أهداف الإنسان ان يتقرب إلى ربه باسمائه الحسنى، وأسماؤه هي قيم الجمال والكمال (معنوياً ومادياً) التي لا ينضب معينها.

واذا كان التعالي إلى الله (التقرب إليه زلفى باسمائه الحسنى) وإذا كان النمو في كافة الأبعاد في خط مستقيم وفي وجهة الله سبحانه، هدف كل البشر، فإن ذلك يكون غاية المجتمع الاسلامي، بعد أن تتحدد في قيم واضحة المعالم (السلام، القسط، العدل، استثمار الأرض، اكل الطيبات، عمل الصالحات، الدفاع عن الحق، القتال من اجل السمتضعفين، و. و.).

١- الاسراء/ ٢٠.

فالمجتمع الاسلامي يهدف التعالي (وتنمية ذاته في كل الأبعاد) بتحقيق أسماء الله الحسنى في حياته، وفي حياة كل فرد فرد من ابنائه. والتشريع الاسلامي مصبوغ بهذا الهدف العام، ولكنه لا يشذ عن أيّ قانون في الهدف الخاص به كتشريع وكقانون، ألا وهو القسط الذي يعني ألاّ يبخس حق أي ذي حق عبر فلسفة الحق التالية.

الإيمان بالحق صرح القيم

العقل يثق بذاته، وتلك الثقة من حقائق ذاته. وحين يكشف حقيقة لا يرتاب في صحة كشفه، فيؤمن بها، ويعترف بوجودها. وحين يعترف بذلك، يشرع في بناء صرح الحقوق الموضوعية؛ فالسموات حقيقة، وعقلي يكشفها لي ويجعلني أطمئن إلى وجودها، وهنا اعترف بها وأومن بأنها حق. وكذلك الأرض وما فيها من جماد ونبات وأحياء وبشر، وأنظمة طبيعية كلها حقائق لا ريب فيها، (لا أشك فيها، بل تطمئن نفسي بها طمأنينةً كافية) وبهذا الاطمئنان أعترف بها.

وهنا نتساءل ماذا يعني الاعتراف بهذه الحقائق (وحسب التعبير القرآني الايمان بها)؟

إنه يعني؛ أن أحدّد موقعي منها باعتبارها قائمة وثابتة، ولها امتدادها وأثرها عليّ. فاذا آمنت بوجود الشمس فاني أعترف بأنها تشرق عليّ، وأنها تؤثر فيّ، وانها ذات أنظمة تسير بها، وأنا شخصياً أتفاعل مع تلك الأنظمة (مثل قربها في الصيف وبعدها في الشتاء، وفائدة أشعتها حيناً وضررها حيناً آخر، وهكذا..).

إن هذا الاعتراف يعتبر بذرة الحق في أرض القانون التي تنمو وتنمو حتى تصبح شجرة باسقة، فللشمس عليّ حق، يتمثل في التكيف مع وجودها - مثلاً - اتعرض لأشعّتها عندما أنتفع بها، والابتعاد عنها عند التضرر بها.

وكما الشمس يفرض الاعتراف بها عليّ حقاً، كذلك الأرض وما فيها. فكل شيء موجود فوق هذا الكوكب يعتبر ذا حق، لأننا نعترف به، وبأنه موجود

ووجوده حق، فعلينا أن نتكيف مع هذا الموجود. مثلاً؛ الغابة موجودة وحقها الاعتراف بها، فقد نسخرها لمصلحتنا، وهذا حقها علينا، وقد نحافظ عليها وهذا ايضاً حقها علينا، لأن اعترافنا بها، يستدعي التكيف معها بصورة أو بأخرى.

وهكذا تصبح المحافظة على البيئة الكونية أحد أبعاد هذه الفلسفة، التي تشمل - بالطبع - البشر باعتباره الكائن الأقرب إلينا. فكل إنسان اعترف بوجوده فإني أعترف بحقه، فهو قائم يشغل حيزاً من الأرض (حق الاقامة) وتستمر حياته بالرزق، المأوى، والصحة (الحقوق الطبيعية)، وهو عاقل - كما أنا - فهو يتطلّع إلى المعرفة (حق العلم) وإلى التكامل المعنوي (فلا يجوز التعرض لشخصيته وعرضه).

وهكذا تأتي شرعية الحقوق - حسب هذه الفلسفة - ليس من منفعة الشيء للذات (أنا مثلاً) - ولكن من الاعتراف بوجوده كشيء موضوعي قائم بذاته.

على أن الاعتراف بالحقائق انفع للبشر من الاصطدام معها، وبالتالي ينتهي الايمان إلى خير الذات أيضاً.

وما دامت الحقوق معترف بها، فلا بدّ من تنظيمها؛ ليس لضرب بعضها ببعض، وإنما بهدف الوفاء بها جميعاً. وهذا التنظيم هو خاصة القانون، وذلك الوفاء هدفه. وهكذا نفرّق بين خاصة القانون وهدفه.

٢/ القيم بين الثوابت والمتغيرات

لكل مجتمع نمطان من القيم؛ الاولى (الأهداف العليا) وهي قيم انسانية ثابتة ومطلقة. والثانية (الأهداف القريبة) والتي تتصل بظروف هذا المجتمع أو ذاك والمتغيرات التي تطرء عليه، وهما معاً يشكلان روح المجتمع.

أ/ الأهداف العليا

ينطوي كل تشريع على مبادئ سامية (الأهداف العليا)، وبتلك النسبة يتفاعل القانون مع الأخلاق (بهذا المعنى) وتشكّل الأخلاق ضمانة تنفيذية له، بل وتعتبر معياراً لمدى استقامة القانون. فبالرغم من أن كل قانون وضعي خليط من

المبادئ، ومن الضرورات الحياتية، إلا أن الناس يحترمون القانون باعتباره حامياً للمبادئ، ويعتبرون الضرورات نوعاً من الاستثناء. وحسب باتيفول: الأواصر القائمة بين القانون والأخلاق تمارس تأثيراً حاسماً، إذ أنها تضفي على القانون الصفة اللازمة لاكتساب الصفة الشرعية[1].

ب/ الأهداف القريبة

في حديث آت نستعرض إن شاء الله معنى هذه القيم، والتي هي جملة أهداف محددة لمجتمع معين، وهي - عادة - مستوحاة من حاجات هذا المجتمع المادي وتطلعاته في ظروف خاصة.

ويبقى سؤال؛ ما هي علاقة النمطين من القيم ببعضها؟ الجواب؛ إن القيم الثابتة تقوم بدورين أساسيين في التشريع.

ألف - توجيه الجانب الثابت من حياة الإنسان نحو تحقيق تطلعاته السامية. فالإنسان يبحث عن الأمن والعدالة والتقدم، ويطمح للتقرب إلى الله سبحانه، والأخلاق الفاضلة. وهذه من ركائز البشر الفطرية التي لا تتغير، والقيم تتكفل بها.

باء - ضبط المتغيرات لكي لا تشط بحركة البشر. فمثلاً؛ الحرب من الحوادث المتغيرة، ولها دوافعها ووسائلها واستراتيجياتها وأساليبها، ولكن الحرب ذاتها لا تسوّغ إلا ضمن شروط معينة، وعند قيامها، لابد أن تضبط بكوابح وقوانين. فالمعايير التي تضبط حركة المجتمع عند الحرب، تخضع للقيم الثابتة، بينما استراتيجيات الحرب هي القيم المتغيرة.

٣/ دراسة القيم المتغيرة

وتختلف هذه القيم عبر أربعة مستويات:

ألف - مستوى الاتجاه العام للمجتمع، والذي يسميه البعض بالروح .

١- فلسفة القانون، ص١١٢.

باء - مستوى مكونات المجتمع الأساسية، من بيئية إلى ثقافية، إلى طبيعة الحكم فيه، وما إلى ذلك.

جيم - مستوى الحاجة الأهم التي يأتي القانون للوفاء بها، بالتالي المشاكل الحادة التي يعيشها الشعب.

دال - مستوى المحددات العلمية، وهو الذي اهتمت به المذاهب القانونية العلمية.

وتتداخل هذه المستويات على الأرض، ولكننا إنما نفصل بينها، ليتيسّر البحث عنها، وهكذا ندرسها الواحد تلوّ الآخر.

روح المجتمع

تتفاعل عوامل شتّى في ضمير مجتمع ما حتى تتبلور - لديه - قيمة أسمى تصبغ حياته كلها، فتصبح تلك القيمة خلاصة تجاربه التاريخية وثقافته وبيئته الطبيعية ومستواه الحضاري وما إليها، ويسمي بعضهم هذه القيمة بالروح فيقول "روح الحضارة"، ويعني بدراستها علم الحضارات، وفلسفة التاريخ، وفي بعد معين منها يقوم علم نفس الشعوب، بدراسته. وروح المجتمع تتجلى في ثلاثة مستويات: الإتجاه العام للمجتمع ومكونات المجتمع والحاجة الأهم له .

ألف- الاتجاه العام

لقد درس المؤرخ البريطاني المعروف "آرنولد توينبي" فلسفة التاريخ من زاوية التحدي والاستجابة له، وتوصل إلى نتائج هامّة أبرزها؛ أن الشعب الذي حقق حضارة لم يحققها نتيجة لمواهب بيولوجية عليا، أو بيئة جغرافية مناسبة، ولكن حصل عليها استجابه لتحدي موقف ذي صعوبة خاصة، استثاره لبذل جهد لم يقم به من قبل[1].

وهكذا يرى أن الأحوال الصعبة -أكثر من السهلة- هي التي تولّد هذه الأعمال المجيدة[2] (الحضارات).

١- مختصر دراسة التاريخ، ارنولد توينبي، ترجمة فؤاد محمد شبل، ج ٤، ص٢٠٥٨.
٢- المصدر، ص ٢٥٩.

وخلاصة الأفكار التي تُستخلص فيما يرتبط بروح المجتمع، هي التالية:

١- ان لكل مجتمع أو شعب روحاً ناشئة من مرحلة حضارية تتشكل من جملة التحديات الداخلية والخارجية، التي يواجهها في تلك المرحلة، وطريقة استجابته لها.

٢- إن هذه الروح تفرز قيماً تناسب تلك المرحلة.

٣- إن الرسالات الإلهية تأتي لتنقذ الحضارة البشرية والمجتمع الإنساني، وتنذره قبل دماره بسبب انحلاله الحضاري. وقد يستجيب البشر لذلك النداء الإلهي (مثل قوم النبي يونس عليه السلام) وقد لا يستجيبون (مثل قوم النبي نوح عليه السلام) فيهلكون.

٤- إن هذا التحدي وتلك المرحلة الحضارية يشكلان معاً محور القيم المتغيرة (الحياتية)، والتي تصبح -بدورها- مصدراً للتشريعات القانونية، وما لم أجده في كتابات توينبي، السبب الذي يجعل بعض الشعوب تستجيب للتحدي، بينما لا يستجيب له الآخرون. أو يستجيب هذا الشعب للتحدي في فترة ولا يستجيب له في فترة اخرى وقد توصّلت من خلال دراساتي إلى أنّ الفكرة الحضارية، التي عادة ما تكون وحياً الهياً أو قبساً من وحي، هي التي تهبط على أرض التحدي فتنبت الحضارة.

باء- مكونات المجتمع

ويبدو أن المؤلف الفرنسي المعروف "منتسكيو" كان يبحث عن هذه الروح في كتابه (روح الشرائع) الذي يرى البعض أنه كان أعظم كتاب فرنسي ألف في القرن الثامن عشر[١]. ولقد فتح باباً واسعاً على علاقة التشريع بطبيعة الظروف، وحاول أن يدرس المتغيرات التي تتدخل في وضع القوانين. ومن هنا سمّى كتابه بـ(الروح) لأنه كان يتصور أن للشرائع ظاهراً وباطناً، وباطنها روحها وقيمها، التي تختلف من شعب لآخر.

١- روح الشرائع، ج١، مقدمة المترجم.

ويتخذ مقياساً لمعرفة القيم يتمثل في قانون العقوبات، حيث يتبين أهمية القيم عند الأمم عادة عند وضع العقوبات؛ فكلما كانت القيمة اعظم والحاجة إليها أشد، كانت عقوبة تركها أكبر[1].

ويرى أن القوانين -في أوسع معناها- (يقصد ما يشمل القوانين الطبيعية) هي العلاقات الضرورية المشتقّة من طبيعة الأشياء[2].

ومن خلال نظرة خاطفة لكتاب (منتسكيو) الضخم، نصل إلى هذه النتيجة التي يريد اثباتها، ولقد وفق لذلك بنسبة كبيرة، هي أن هناك صلة قريبة بين وضع القوانين، وبين الأمور التالية:

١/ صلة التشريع بطبيعة الحكومة من جمهورية (على الطراز الروماني القديم) أو ملكية أو مستبدة. ويتحدث طويلاً عن القيم الأخلاقية التي تناسب شكل الحكومة (النظام السياسي) والتربية المناسبة لها. وكذلك القوانين التي تتلاءم وكل نوع منها. مثلاً؛ كيف يجب أن نزرع في نفوس الشعب في النظام الديمقراطي حبّ الجمهورية وحب المساواة، والقناعة؟ كما أنه يتحدث عن طريقة سن القوانين ومدى بساطتها وصراحتها في كل نظام سياسي، وما هي عوامل الفساد في كل من هذه الأنظمة؟

٢/ يبّين علاقة القوانين بوضع أنظمة الدفاع عن المجتمع، وكيفية تدبير السلامة في النظام الجمهوري أو الملكي، ويتحدث عن الحرب وعن الحرية في مختلف الأنظمة وصلة جباية الضرائب بالحرية.

٣/ صلة القوانين بطبيعة الاقليم، فيقول: إذا كان من الصحيح أن سجية النفس وأهواء القلب تختلفان إلى الغاية في مختلف الأقاليم، فان على القوانين أن تكون تابعة لاختلاف هذه الأهواء، واختلاف هذه السجايا[3].

١- يسرد منتسكيو أمثلة كبيرة في هذا الحقل في كتابه روح الشرائع مثلاً، راجع ص١٢٤، وص١٣٠، وكذلك ص ١٣٣، من الجزء الأول من الكتاب.
٢- روح الشرائع، ج١، ص١١.
٣- المصدر، ص٣٢٩.

ويقول: باختصار تسيطر على الناس أشياء كثيرة؛ الاقليم والدين والقوانين ومبادئ الحكومة وامثال الامور الماضية والعادات والأطوار، فيتألف من ذلك روح عامة تنشأ عنه، وعلى قدر ما تؤثر احدى هذه العلل تأثيراً اقوى من غيرها تذعن له الأخرى[1].

وبالرغم من الملاحظات التي أبدتها المناقشات الموضوعية لأفكار (منتسكيو) وبالذات فيما يتصل بنظرته السلبية تجاه الدين الاسلامي، وكذلك فيما يرتبط بمجمل نظرته إلى الدين. إلا أن محاولاته الجادة لفهم المتغيرات، التي تؤثر في وضع القوانين، تعتبر خطوة شجاعة، نحو إصلاح القوانين في العالم.

ولكن أفكاره التفصيلية تبدو اليوم غير كافية، وقد تجاوزها تقدّم العلم في كافة الحقول التي تناولها بالبحث.

جيم- الحاجة الأهم

حاول الخبير القانوني الأميركي (رسكو باوند) دراسة العوامل المؤثرة في القانون من خلال نظرة تاريخية، بعد أن افترض أن القانون يشرع استجابة لحاجة معينة في المجتمع، (وهي في – الحقيقة - أبرز قيمة يريدها المجتمع في ظرف معين). وهكذا يتناسب القانون وتلك الحاجة، ويرى أربع غايات للقانون حسب الظروف وهي:

١- المحافظة على الاستقرار في أبسط صوره.

٢- المحافظة على المؤسسات الاجتماعية.

٣- التأكيد على الذات والارادة الحرّة.

٤- الوفاء بالحاجات البشرية.

ولقد انتقد "د. كاتوزيان" تعميمات (باوند) وأحكامه الكاسحة، وقال: لا نستطيع قبول نتائج بحوث باوند التاريخية، التي استهدفت تحديد غاية القانون في

١- المصدر، ص ٤٣٥.

كل مرحلة، إلا بصورة نسبية. وأضاف: إن القضايا الاجتماعية والإنسانية أصعب (وأعقد) من أن نختصر العلاقات الناشئة منها بهذه السهولة[1].

ونستطيع أن نقول: القانون هو وسيلة يستخدمها حكماء كل أمة للوفاء بأهم حاجاتهم، ورفع الاشكاليات الحادة التي تعتريهم. ومن هنا يجب أن ننظر إلى القانون نظرة مرنة ولا نعتبره أمراً ثابتاً لا يتغير.

٤/ مفارقات بين مستويات الروح

باستثناء المستوى الرابع الذي سيأتي البحث عنه إن شاء الله وهو (المحددات العلمية)، فان كل هذه المستويات ترتبط بروح الشعب وبالأطر العامة لحركته. ولكنها تختلف فيما بينها ببعض المفارقات التي نتحدث عنها فيما يلي:

لقد تحدث (توينبي) عن التحدي الكبير الذي يتعرض له المجتمع، فيستجيب له بفعل استراتيجي في مستواه، وانما التحدي هو الذي يمس أمن المجتمع ويهدده (لولا الاستجابة له بتحد مضاد) بخطر الانقراض. ولكن (باوند) يتحدث عن بعض الاشكاليات التي تعتري المجتمع ولا تصل الى مستوى تهديد كيان المجتمع، بل الى ضعضعة استقراره، وتعريض بعض مصالحه للخطر، والتي يتصدّى لها العقلاء اما بحذف قوانين أو وضع اخرى. مثلاً مع الثورة الصناعية في الغرب والانطلاق الكبير الذي رافقه، برزت اشكالية القوانين الكابحة فحذفت واستبدل بها فلسفة جديدة للقانون، تؤكد على الملكية الخاصة، وتشجيع المبادرات الفردية.

ولنفترض مجتمعاً حراً تعرض لخطر تفشّي الامراض (الجنسية منها بالذات مثل الايدز وازدياد عدد الجرائم وانتشار روح الميوعة والتفكك وما اشبه) فان حكماء هذا المجتمع سوف يلجأون الى كهف المبادئ السامية التي تنقذهم من خطر الفناء، وذلك بالتأكيد على فلسفة الأمن والاستقرار، ووصاية القانون على الفرد. وهكذا اذا غطّ مجتمع في سبات، وأقعدته الانظمة البالية من الانطلاق

١- فلسفه ى حقوق، (باللغة الفارسية)، ص٤١٣.

والنشاط، واحاطت به أغلال التخلّف، هنالك يلجأ الحكماء الى مبدأ الحرية وتأكيد الذات، ويفكّون عنه الانظمة الاضافية، ويطلقون طاقاته في ميادين النشاط. كما فعل رسول الله محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بمجتمع الجزيرة العربية حيث قال الله سبحانه ﴿**وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالاَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ..**﴾[1].

المبادئ السامية كلها نافعة، ولكن التأكيد على بعضها في ظرف معين وجعل التشريع في خدمته، هو من مسؤولية الحكماء.

وبكلمة: القانون هو وسيلة يستخدمها حكماء كل امة للوفاء بأهم حاجاتهم، ورفع الاشكاليات الحادة التي تعتريهم. ومن هنا يجب ان ننظر الى القانون نظرة مرنة ولا نعتبره أمراً ثابتاً لا يتغير.

ويختلف مجال افكار منتسكيو عن ميدان نظرية باوند.

الف - فالاول كان يؤكد على ضرورة توفيق القانون مع البيئة الحضارية (الطبيعية، والثقافية، والدينية، والاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية) مما لها نوع من الاستمرارية، وتشبه افكاره الى حدّ ما نظرية التحدي عند توينبي اللهم الا في المستوى، فالمؤرخ البريطاني، (توينبي) يتناول حديثه حالة الاحساس بالخطر فقط (أي في ظروف الصراع) ويحدد الاتجاه العام للمجتمع، بينما الاستاذ الفرنسي (منتسكيو) يتحدث عن القضايا في الظروف الطبيعية.

باء - اما باوند فيبحث عن الاتجاه العام للقانون والاهداف الاهم له في ظرف معين، وانه يأتي لحلّ أي نوع من الاشكاليات الاجتماعية. فحديثه اقرب الى تطور المجتمع وطبيعة القانون الذي يحتاجه. وهكذا ينبغي دراسة كل هذه المتغيرات في حياة المجتمع عند وضع قانون معين - متغير التحدي - متغير الطبيعة - متغير الحاجة. وبقيت لنا كلمة اخيرة عن المذاهب القانونية وكيف يمكن لنا ان نستفيد منها بتكميل بعضها ببعض.

١- سورة الاعراف/ ١٥٧.

٥/ المذاهب القانونية تتكامل

عندما استعرضنا - في الفصول الماضية - المذاهب المختلفة في فلسفة القانون، رأينا مدى الاختلاف الكبير بينها، مما يدعو البعض إلى التساؤل: أفلا يدلّ هذا الاختلاف على الجهل بحقيقة القانون؟ والجواب: حقاً إن القانون صورة عن الإنسان، والإنسان لا يزال أكبر مجهول عند نفسه، ولكن اختلاف المذاهب القانونية ربما دلّ على تعمّق العلم في أغوار حياة البشر، حيث اختار كل مذهب جانباً من حياته فتعمق فيه. وإنما ضرب بعض المذاهب ببعضها، وإيجاد التضاد بينها هو الذي سبب في مثل هذا التساؤل. أما إذا أكملنا بعضها ببعض، استطعنا معرفة أبعاد حياة الإنسان، معرفة أفضل. فحين تحدّث مذهب عن دور الارادة في تشريع القانون (المذهب الارادي) لم يترك البحث عند هذا الحدّ، إنما تعمق في معنى الارادة وشرعيتها،[1] ومعنى التشريع، وبالتالي أعطانا صورة أوضح مما مضى عن هذا البعد من القانون. كذلك المذهب الصوري (كلسن مثلاً) طوّر نظرية مفيدة في علاقة بنود القانون ببعضها وهكذا المذاهب الاجتماعية، أغنت أفكارنا في علاقة القانون بتطور المجتمع، وهكذا.. فإذاً المشكلة ليست في تعدد المذاهب القانونية، بل في كيفية تجميعها، مما يثير السؤال التالي: كيف نكمّل المذاهب المختلفة ببعضها، حتى نحصل على النظرية الاقرب إلى الواقعية؟

لعلّ البصائر التالية تعطينا الاجابة عن ذلك:

ألف: في البدء نعرف أن للقانون مبادئ ثابتة، هي تلك القيم العليا التي تستوحى من العقل والوحي وتتناسب مع سنن الله (وتقديره وقانونه) في طبيعة الإنسان وفي الحياة والتي فطر كل انسان عليها ولا تختلف من عصر لآخر ولا من شعب لآخر. وقد بحث في ذلك المذهب الطبيعي، وتحدثنا عنه في بحوثنا السابقة.

١- راجع فلسفة كانت وفلسفة هيجل في ذلك مثلاً.

باء: ثم إن للقانون شكلاً (صورة) وجوهراً (محتوى). وصورة القانون هي تلك التشريعات التي تبدأ بالدستور، وتنتهي باللوائح، وتمرّ بالمواد القانونية. وهذه الصورة لا تصبح قانوناً، إلا بعد مروره بتشريع مشرع (وحي - أو حاكم - أو مجلس تشريعي). وعن صورة القانون وعلاقة بنوده ببعضه، وارادة المشرّع، يتحدث المذهب الصوري والارادي، ولا ريب في اهمية دور هذين المذهبين في سبر غور القانون وفقه أبعاده.

جيم: محتوى القانون يتكيف مع طبيعة الإنسان، والمؤثرات التي تؤثر فيه تنعكس على القانون الذي يشرع من أجله. ومعروف أن الإنسان عقل وارادة عليا، وأيضاً شهوات وأهواء، وحاجات مادية. والقانون الذي يلغي أحد جانبي حياته، يعتبر فاشلاً، ثم لأن الإنسان عقل، فهو يتطلّع إلى اخلاق فاضلة وقيم يتجاوز ذاته بها. ومن هنا ينبغي أن يكون القانون هادياً له إلى حياة أفضل، ولا يجوز أن يكون صورة طبق الاصل لواقعه أنّى كان. وكذلك لأن الإنسان منظومة من الحاجات يجب الاهتمام بحاجاته واحتواء نقاط ضعفه أيضاً .

دال: كما أن الإنسان يتأثر بتاريخه، وبتلك التراكمات من التجارب، ولذلك فإلغاء تاريخ البشر في القانون إلغاء لأصله. وهكذا نعلم بأهمية المذهب التاريخي والتجريبي.

هاء: والقانون يوضع من قبل دولة حاكمة، فلا يجوز إلغاء دورها وصبغتها التي يطبعها على مجريات القانون. وهذا محتوى المذهب السلطوي (هيجل ورسو).

ولكن السلطة ليست صاحبة الحق في تنفيذ اهوائها على الناس. وهنا علينا ألاّ نشتبه بين السلطة المنفِّذة للقانون وبين السلطة المشرّعة له. صحيح ان هناك تفاعلاً بينهما، وتأثيرات متبادلة، ولكن جوهر القانون ومحتواه يجب أن يكون بعيداً عن ميول السلطات وأهوائهم.

واو: وانما يوضع القانون من أجل المجتمع الإنساني، والمجتمع كتلة من الحاجات والتطلّعات، ويتطور المجتمع بين حين وآخر، وعلينا دراسة هذا المجتمع دراسة وافية تشمل مكوناته ومتغيراته معاً، حتى لا نضع قانوناً مخالفاً لمصالحه أو قيمه. وهكذا تجدنا وجهاً لوجه مع المذهب الاجتماعي والنفعي والواقعي، وبالتالي مع نظرية الهندسة الاجتماعية لرسكو باوند، التي - تبدو من حيث المجموع - نظرية واقعية تنسجم مع نظرية الحق التي بحثناها سابقاً، ولكنها عندما تتحول إلى تفاصيل قد لا تصلح إلا لتلك الفترة التي عاشها باوند من تطور المجتمع الاميركي الذي صيغت النظرية من أجله.

زاء: وسائل الانتاج، ومستوى التقدم الاقتصادي، ذات أثر بالغ على أغلب الناس، ويؤثر بالتالي على القانون، مما يحملنا على دراسة الحياة الاقتصادية وتفاعلها مع القانون.

حاء: وهكذا يرتبط اغلب حقول العلم بالقانون من خلال اهتمامها بحياة الإنسان، ودراسة متغيرات حياته، والأنظمة الطبيعية (السنن الإلهية) التي تجري عليها. ومن هنا فإن القانون السليم هو الذي يتواصل مع سائر العلوم الإنسانية، ويستفيد من كافة الخبراء، وذلك عبر شبكة واسعة من مراكز الدراسات القانونية ذات الصلة بالحقول المختلفة للعلوم (مركز لدراسة القانون من خلال تجارب علم الاجتماع، وآخر لدراسته من خلال تجارب ونظريات علم الاقتصاد، وهكذا).

٦/ كيف نعرف المتغيرات؟

إذا كانت معرفة المبادئ من اختصاص الدين (الوحي زائداً العقل) وما تسمّى بالحكمة العملية في الفلسفة، فان معرفة المتغيرات من اختصاص العلم، ولكن أيّ علم؟

البصائر التالية تبين الاجابة:

ألـف: فيمـا يتصـل بالتحـديات الحضـارية، فـإن العلمـاء والحكمـاء وكبـار المنظرين والقادة التاريخيين والمصلحين العظام هم مرجع تحديدها، شريطة أن يؤمن الناس بهم ويطيعوا أمرهم.

أما فيما يرتبط بطبيعة المجتمع والمؤثرات الحياتية فيه، فإن المرجع الأول فيها هم الناس أنفسهم عبر مجالس الشورى (البرلمان - الاحزاب - الجمعيات - المجالس البلدية والقروية وسائر القوى الاجتماعية).

باء: كذلك ينبغي دراسة الحاجات الأساسية، التي لابد للقانون أن يستجيب لهـا، ويمكـن اجـراء هـذه الدراسـة عبـر مراقبـة العـرف العـام فيمـا يتصـل بالتطورات الظاهرة. أما فيما يتصل بالمؤثرات الدقيقة، فلابد من دراستها من خلال مراكز دراسات متخصصة.

٧/ معايير الأولوية في القيم

توجد ثلاثة معايير لتقديم قيمة على اخرى:

١- النص.

٢- العقل.

٣- النظام الهرمي للقيم.

وفيما يلي نتحدث عن كل واحد منها باختصار.

أولاً: النص

حين يلغي الشارع الحكم الذي يلحق ضرراً بالغاً بالنفس أو يسبب حرجاً للإنسان، ويقول: ﴿**إلا ما اضطررتم**﴾، أو يقول: ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾[١]، أو يقول: ﴿**يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ**﴾[٢]. أو يقول على لسان النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (لا ضرر ولا ضرار)، حينئذ نعرف أن قيمة حفظ النفس أعظم من قيمة الأحكام الفرعية.

ثانياً: العقل

١- الحج/ ٧٨.

٢- البقرة/ ١٨٥.

وواضح أن العقل لا يحكم بعيداً عن الوحي، كما بيّنا في الجزء الأول من هذا الكتاب، وهو يحدد - فيما يبدو - معايير ثلاث للتعرف على الأولوية:

ألف: الأهمية الذاتية

فحفظ النفس أهم من حفظ المال، وحفظ المال أهم من الراحة، وهكذا.

والعرف يقوم ببلورة الرؤية العقلية في نظام الأولويات، وقد شرحنا دوره في الجزء الثاني من هذا الكتاب[1].

باء: الكمية

إذا كانت قيمتان متساويتان، فلا بد من قياس الكمية، وهي نوعان:

١- فقد يكون عدد الأفراد المتضرّرين أو المنتفعين بعمل معين أكثر، فنقدّم قضيتهم على غيرهم.

٢- وقد يكون نسبة الضرر أكثر أو نسبة المنفعة أكبر، فإن ذلك يجعلها مقدمة.

جيم: المصلحة الاقرب

العقل يحكم بأن الإنسان مسؤول عن نفسه أولاً وعن الآخرين حسب درجاتهم، وحسب مدى قربهم منه ثانياً.

ثالثاً: نظام الهرم

ويبدو لي أن هذا المعيار هو الأهم بين المعايير والأنفع، بالرغم من أنه بحاجة إلى بصيرة فقهية نافذة.

وخلاصة هذا المعيار؛ إن علينا أن نجعل دائماً القيمة الأقرب إلى قمة هرم القيم هو المقياس لمعرفة القيمة الأولى، وللتوضيح نضرب مثلين:

الف - الأمن قيمة سامية، ويحققها أكثر من وسيلة؛ مثلاً التجسس، السجن، الرقابة على الحدود، واعتقال المشتبه بهم والتحقيق معهم و. و. فإذا تعارضت هذه الوسائل مع بعضها، فكيف نعرف أيّها أفضل؟

١- التشريع الاسلامي، ج٢، ص٢٥٣-٢٥٩.

إنما بالقياس إلى مدى تحقق قيمة الأمن بهذه الوسيلة أو تلك، فأية وسيلة كانت أقرب إلى تحقيق هذه القيمة كانت أفضل.

باء - قيمة الأمن، وقيمة المصلحة (المنفعة)، وقيمة الحرية، كلها تحقق قيمة أسمى هي كرامة الإنسان فاذا تعارضت هذه القيم ولم نعرف أيّها أقرب (في وقت وزمان محدّدين) فعلينا أن نعود إلى القيمة الأسمى (الكرامة، أو الخير العام) ونقيس القيم الأخرى بها، فأيها كانت اقرب اليها أخذنا بها، والله العالم.

٨/ كيف نعرف الاولويات عند الشرع؟

هناك أكثر من وسيلة، لمعرفة الاولويات في الشريعة، وفيما يلي نستعرضها، مع التركيز على وسيلة واحدة منها:

أولاً: النصوص الخاصة؛ مثل النصوص التي دّلت على اهمية الدفاع واعتبارها اعظم من سائر القيم عند مداهمة الخطر.

ثانياً: الاستقراء؛ قد يحصل عند الفقيه من خلال الاستقراء، وعي بالخطوط العريضة عند الشرع، وبسلم الاولويات فيه، بالرغم من ان هذا الطريق محفوف بخطر تأثّر الفقيه بمسبقاته الذهنية، ان لم يعتمد على النصوص، كما ان الاستقراء لا يورث اليقين غالباً.

ثالثاً: النظام الهرمي؛ وقد سبق الحديث عنه آنفاً، وكشف النظام الهرمي للقيم، يتمّ بالتدبر في الآيات اكثر فأكثر.

رابعاً: نظام القيم في القرآن؛ حيث ان مراجعة السور القرآنية، ومحاولة كشف نظام القيم، وطريقة تدرّجها، قد تعطينا فكرة عن سلّم الأولويات.

الفصل الرابع

معالم الشخصية الإيمانية

تمهيد

من عرف الله باسمائه الحسنى، عرف سنن الله التي هي تجليات تلك الأسماء في الكائنات؛ ومن عرف سنن الله أوتي الحكمة، أو ليست الحكمة هي العمل بمقتضى تلك السنن؟ ومن أوتي الحكمة عرف الأحكام، التي أمر بها الدين، ومن عرف أحكام الدين كان فقيهاً.

ومن هنا كانت العلاقة وثيقة بين معرفة الله، وبين الفقه، وكانت العبادات أعظم أبواب الفقه، وكانت الغاية منها زيادة التقوى واليقين.

أنى نظرت رأيت آثار رحمة الله؛ فالله هو الرحمن الرحيم، والرحمة اسم من أسماء ربنا الحسنى. ولأن ربنا رحيم، فحاشاه أن يأخذ أهل الأرض بألوان العذاب، وتعالى من معاقبة الناس قبل أن يتم الحجة عليهم، وهو لا يدمر القرى حتى يبعث في أمها رسولاً نذيراً، وهذه هي سنة من سنن الله التي لن تجد لها تبديلاً.

ولكن أنى نظرت رأيت أيضاً آثار حكمة الله، ومدى حسن التدبير ودقة النظم فهو العليم الحكيم، وذلك اسم من أسمائه سبحانه.

ولأنه حكيم، فتعالى من أن يغفل عما يعمل الظالمون، وتلك هي الأخرى سنة من سننه النافذة. وإذا أمعنت النظر رأيت تلك السنة تجلياً لذلك الاسم.

وهكذا تجد آيات القرآن حافلة بأسماء الله وسننه، ولكن السنن – بدورها - معادن حكمة الله، فإذا كان الله رحيماً، فمن الحكمة التعرض لرحمته بالدعاء والعمل الصالح؛ وإذا كان لا يغفل عن الظالم، فمن الحكمة اجتناب سخطه..

وهكذا كانت الحكمة الجانب السلوكي لسنن الله، أو بتعبير أفضل؛ وعي سنن الله في الحياة العملية.

وأحكام الشريعة إن هي إلا حدود للحكمة البالغة التي أمر بها الله في القرآن.

وهكذا كان أول العلم معرفة الله، وكلما ازدادت المعرفة بالله إزداد الإنسان فقهاً وعلماً. فالفقه ميراث معرفة أسماء الله ، وسننه وحكمته؛ وكذلك كانت الصلة بالله سبحانه، المدخل الى سائر القيم السامية، والأهداف الرفيعة للأحكام الشرعية.

وإذا كانت العبادات فاتحة أبواب الفقه، فإن العلاقة بين العبد وربه العظيم هي روح العبادات؛ فهي الصلاة ، وهي هدف الصيام وغاية الحج، ومن أعظم حكم الزكاة والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتولي والتبري.

فالبحث عن حقائق الإيمان بالله، وأبعاد التقوى منه، وآفاق الحق ومحوريته للإيمان، ومعاني الطاعة لله وعبادته، وذكر الله والصلاة والدعاء والسجود والقنوت، وسبل الاستعانة بالله (من الاعتصام بالله والتوكل عليه، والاستعاذة به، وطلب رضوانه)، وآفاق التقرب إليه (مثل ذكره وشكره والإنابة إليه والاستغفار) وبالتالي لقاء الله سبحانه..

أقول: البحث عن هذه الآفاق، يعتبر فاتحة البحوث في قيم إيمانية أخرى، مثل سبل الهداية ووسائل الفلاح، أو مثل عوامل الضلال وأسباب الشقاء، والتي سنتحدث عنها فيما بعد إن شاء الله.

عن الإيمان؛ حقائقه وعلائمه

ما هو المنهج السليم لمعرفة الإيمان، ولمعرفة تلك الحقائق الكبرى التي نتعايشها وقليلاً ما نحيط بها علماً، مثل العلم، العقل، الروح، الوجود؟

الإجابة واحدة فيها جميعاً، وهي: معرفتها بعلاماتها، بآثارها في الواقع ، ذلك لأن الكلمات قد تحجبنا عن هذه الحقائق وتجعلنا نتخيل مفاهيم، ثم نزعم أنها هي تلك الحقائق.

فإذا عرفنا آثار الإيمان ثم تتبعنا تلك الآثار على أرض الواقع، وراجعنا الأمثلة الواقعية للإيمان، ورجعنا إلى أنفسنا وما يختلج في صدورنا من حقائق الإيمان، وهكذا إذا فعلنا ذلك المرة بعد الأخرى، فإننا نبلغ معاني الإيمان وبعض حقائقه.

فالإيمان هو روح في القلب يبعث الإنسان نحو التسليم للحق؛ إنه وقر في النفس يتجلى في العمل الصالح؛ إنه كلمة التقوى تتجلى في التقيد بحدود الله سبحانه، وإنه الرسوخ في العلم عندما يتجلى في التسليم النفسي للحق والإذعان به.

وهكذا جاء في الحديث المأثور عن أبي عبد الله الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: "إن للقلب أذنين؛ فإذا هم العبد بذنب قال له روح الإيمان: لا تفعل، وقال له الشيطان إفعل، وإذا كان على بطنها نزع منه روح الإيمان"[1].

ومن هنا كان علينا أن نتدبر ملياً في آثار الإيمان، وفي آياته وعلاماته، ونتخذ منها سبيلاً الى حقيقته التي قد نجدها في أنفسنا، ونتحسس ببردها على أفئدتنا، وسكينتها في قلوبنا، وعزيمتها في الانبعاث إلى عمل الخير، والاشتمال على المكارم.

١- الكافي، ج٢، ص٢٦٧؛ بحار الانوار، ج٦٩، ص١٩٨.

وحين نعود إلى القرآن الكريم الذي دارت – على رحى الإيمان- آياته، فسوف نجد التذكرة بالإيمان عبر التذكرة بآثاره وبصفات المؤمنين، أو ببيان آثار الكفر (الحالة المعاكسة للإيمان) وصفات الكافرين.

وعي حقيقة الإيمان

ووفق هذا المنهج القرآني نتابع وإياك – أيها القارئ الكريم- بحوثنا حول الإيمان حينما نتلوا آيات الله التي بينت حقائق الإيمان، وحقائق الكلمات التي تعبر عنه، مثل التقوى والصلاح وبيوت الإيمان والبيعة (بين العبد والرب عن طريق الإيمان الحق) وآفاق علامات المؤمنين التي هي تجليات الإيمان في حياة المؤمنين، نعرف أن الهدف منها - فيما يبدو- هو وعي حقيقة الإيمان وعياً عميقاً، وبعيداً عن الحجب النفسية. وعند إلقاء نظرة شمولية الى تلك الحقائق والعلامات الإيمانية نعرف أن اختلافها في ذكر بعض الحقائق دون غيرها، أو في بيان بعض العلامات دون سواها، إنما جاء تبعاً للسياق القرآني، وموضوعات السور القرآنية. وبالتالي لم يكن الهدف منها استقصاء حقائق الإيمان وعلاماته في موضع خاص، بل بيان ما يتناسب والسياق القرآني في تلك السورة فقط.

بلى؛ عندما نجمع هذه الآيات الى بعضها، نستوحي منها أبرز تلك العلامات أو تلك الحقائق.

ونحن بحول الله إستعرضنا بإسهاب وتفصيل في تضاعيف هذه الموسوعة ما نجملها هنا، من بيان حقائق الإيمان وعلاماته. أما هنا فالغاية من ذكرها بإجمال هو وعي الإيمان من خلالها، وهذه هي الغاية التي يبدو أن تلك الآيات تهدفها. وأنى كان، فعلينا - عند تلاوتها – الاهتمام بتلك الروح التي هي وراء هذه الحقائق (الإيمان)، وليس بتجلياتها أو علاماتها وتفاصيلها.

الحق محور الإيمان

والحق محور الإيمان، حيث أن الإيمان لا يتجزء بين حق وآخر، وأن ادعاء الإيمان باطل لمن لم يتسع إيمانه لكل حق، لأن الإيمان الحق هو الخروج من سجن الذات الى رحاب الحق، ومن معيارية الهوى الى معيارية الحق والهدى.

وهكذا نعرف أن (الحق) هو أصل القيم ومحور الإيمان، وأنه من عند الله، وأن الله هو حفيظ الحق (يحفظه بكلماته وبنصره)، وإن الحق هو محتوى كتاب الله ورسالات الأنبياء، وأن الحق أداة الخلق وغيرها من الموضوعات التي تدور حول (الحق).

التسليم قاعدة الإيمان

والتسليم قاعدة الإيمان. فلولا التسليم للحق تسليماً قلبياً وعملياً، كيف تكتمل حقيقة الإيمان في النفس؟ والتسليم هو لله أولاً وأخيراً، وكان النبي إبراهيم عليه السلام قدوة ومثلاً في التسليم، حيث سلم إبنه لله وأراد ذبحه بأمره. والتسليم للحق مظهر التسليم لله، وهو يعني رفض التقاليد والحميات؛ كما أن التسليم للرسول دليل التسليم لله، والتسليم للسنن الإلهية، ولقدر الله وقضائه دليل آخر على ذلك.

التقوى لباس الإيمان

والتقوى لباس الإيمان ومظهره، وأن الإيمان هو روح التقوى (الإيمان بالله واليوم الآخر وبالرسول) والدواعي التي تبعث على التقوى (ثواب الله للمتقين في الدنيا والآخرة، وخشية عقابه لغيرهم في الدنيا والآخرة).

عن الإيمان؛ معارجه وذراه

هدف المؤمن ابتغاء مرضاة الله، لأن قلبه مشكاة معرفة الله وحبه، فشوقه دائب الى التقرب الى الله.

إنك ترى المؤمن دائب الركوع والسجود ابتغاء مرضاة ربه، وشديد الحذر من أن يشتري سخطه برضا أحد من خلقه.

وابتغاء مرضاة الله، يجعل المؤمن على خط مستقيم، لأن الأهواء لا تميل به كل حين الى طرف.

والعبادة هي التسامي الى الله عبر سبيل قويم بالتخلص من الخضوع للجبت والطاغوت، واجتناب الأنداد والأولياء من دون الله، ثم الانسجام مع الكائنات في التسليم لرب العالمين، والطاعة التامة له ولرسله.

وهكذا تكون الطاعة أجلى مظاهر العبادة، وبالذات الطاعة لرسول الله، والانقياد التام لما يأمر به. وعادة تكون الطاعة في الأمن والخوف (في السلم والحرب)، وفي القضاء بين الناس ورد الاختلافات إليه، وفي الانقياد للرسول في الحقل السياسي والاقتصادي والثقافي.. وللأولياء الذين اصطفاهم الله من بعد الرسول..

وإذا اكتملت الطاعة والعبادة وابتغاء مرضاة الله، فان الحديث يحلو عن لقاء الله.

ووعي لقاء الله سبحانه يزيد المؤمن تقوى وورعاً، كما أن الكفر بلقاء الله يزيد المنافق طغياناً وكفراً.

وهناك علاقة وثيقة بين انتظار لقاء الله والهدى، وبينه وبين الصفات المثلى. كما أن عدم رجاء لقاء الله والكفر به أم المفاسد، لأنه يجعل الإنسان يستحب الحياة الدنيا.

وهكذا يتسامى المؤمن عبر درجات القرب حتى يبلغ أعلى ذرى الكمال.

الإيمان؛ ذكر وشكر

ذكر الله قيمة إيمانية، وهو ميراث وعي أسماء الله، ويبعث في القلوب سكينة، تحصنه من وساوس الشيطان، وعواصف الهوى، ولا يترك المؤمن

ذكر ربه أوَليس يستدر رحمة ربه؟ وحين يذكر الله المؤمن يتذكر نعمه التي تبدء بالخلق والرزق وتستمر مع الهدى والفلاح، كما يتذكر حال فقدانها، فلا يبطر بالنعمة، ويصبر عند فقد بعضها.

ومن آفاق ذكر الله تسبيحه؛ فما من ظاهرة تثيرهم أو حالة يتقلبون بها، أو خطيئة يرتكبونها.. إلا ويسبحون الله.

ومن آفاق ذكرهم قيامهم بالليل، حيث يتهجدون عندما تنام العيون، فيناجون ربهم ويتزودون بالتقوى واليقين.

ومن آفاق الذكر الاستغفار، الذي هو تحية الإنابة إليه بعد أن حجبتهم الذنوب عنه.

وعندما تبدو عظمة الخلق في قلب المؤمن، تتجلى عظمة الله فيصغر في أعينهم كل شيء.

وحمد الله على صفاته، وعند ذكر نعماءه، لكي لا تبطره.

والإخبات أسمى درجات الذكر؛ إنه خشوع القلب لذكر الله، وعلامته التسليم لله سبحانه.

الإيمان؛ دعاء وصلاة

لا يلبث التصديق والتسليم لله وللحق النازل من عنده أن يتحول الى صلة مباشرة بين العبد وربه سبحانه، عبر دعاء وصلاة، وسجود وقنوت. فالدعاء لغة الإيمان، التي بها يخاطب المؤمن ربه العزيز الرحيم، وهو مخ العبادة، وتعبير عن معرفة العبد بالله (وبما له من أسماء حسنى)، ومعرفته بذاته (وما يعتنيه من مراكز الذل والعجز) وهو مفتاح الرحمة الذي لا يهلك عبد معه.

أما الصلاة فهي رمز تعبد المؤمن، وشعار صدقه، وعمود الدين، ومحور أحكام الشريعة، ولحظة الشهادة بالحق، وقبلة الحضارة الإلهية؛ وهي علامة

الإيمان، وشرط الولاية الإلهية، والخضوع فيها من كمال الإيمان، وبها يستعين المؤمنون، ودليل الإخبات، وهي تقام في كل حال.

والسجود غاية الخضوع (وهو أحد أركان الصلاة)، أو ليست الخليقة ساجدة لربها طوعاً وكرهاً؟ وهو عبادة المؤمنين، ويخر المؤمنون ساجدين إذا تليت عليهم آيات ربهم، ويسجدون آناء الليل وأطراف النهار.

والقنوت –كما السجود- هو الذروة في الخضوع لرب العالمين، والسموات والأرض قانتة لربها. والقنوت (شدة الخضوع) مطلوب عند الصلاة، والنبي إبراهيم عليه السلام مثل للقنوت لله وهو من أبرز حقائق الإيمان، وتتجلى عند المؤمنات الصالحات، وعند التهجد في جوف الليل يقنت المؤمنون لربهم ساجدين وقائمين.

وهكذا تتم الصلة بين المؤمن وربه بالدعاء والصلاة والسجود والقنوت، وهي القيم المثلى التي ترسخ دعائم الإيمان في فؤاد المؤمن.

الإيمان؛ استغفار وتوبة

التوبة قيمة إيمانية، تبدأ بالندم وتمر عبر العزم على ترك المعصية، وتنتهي بإصلاح ما أفسده الذنب، والله سبحانه هو التوّاب على عباده، وتوبته شاملة.

ومن وسائل العبد لقبول التوبة استغفار الرسول للعبد.

ومن مظاهر التوبة الاستغفار. إذا تجلى اسم من أسماء الله في ضمير المؤمن، عرف مدى تقصيره في جنبه فاستغفره، فالله واحد أحد، وهو الذي أنشأنا من الأرض واستعمرنا فيها، فعلينا أن نستغفره وأحلى ساعات الاستغفار السحر، والاستغفار وصيّة الأنبياء عليهم السلام للأمم. والاستغفار في مواقع الصبر والشكر.

والاستغفار تحيّة العودة الى الرب، والإنابة إليه، والنبي صلى الله عليه وآله يستغفر للمؤمنين.

الإيمان؛ عزم وعصمة

فور تسليم النفس لله (أولى درجات الإيمان) يمتد حبل بينه وبين ربه عبر الدعاء والصلاة والتوبة والإستغفار والإنابة، ثم يصبغ سلوكه بصبغة الإيمان؛ فإرادته تستمد العزم من التوكل (فيصبح مقداماً)، وقوة حركته تستمد الاستقامة من الاعتصام بالله (فلا ينحرف)، ومواجهته للآخرين وللمشاكل تستمد القوة من الاستعانة بالله، وبالتالي يدرأ المخاطر بالاستعاذة بالله.

وهكذا التوكل على الله، يعني الانقطاع عمّا في أيدي الناس، حيث لا يتردد المؤمن في اتخاذ القرار الصحيح اعتماداً على الآخرين، (حيث أنه يقطع أمله في الناس) ويثق بربه، بقوته ورحمته ونصره، ويعتصم بدين الله (شرائعه وحكمه ووصاياه وسنته). والتوكل من ذرى الإيمان السامية، وهو كهف المؤمنين الذين يأوون إليه عند صراعهم مع الجاهلية. والتوكّل –إلى ذلك- تجل لأسماء الله في قلب المؤمن في لحظة اتخاذ القرار، وهو – بالتالي- ضراعة قلبية الى الله، ودعاء حقيقي بإنزال نصره.

أما الاعتصام بالله سبحانه فإنه قد يسبق التوكل، إذ أنه يحفظ المؤمن من الضلالة وبالذات عند الاختلاف، ويهديه الى الصراط القويم؛ وهو يكون بالرجوع الى كتاب الله، وإلى رسول الله.

ويحفظ الاعتصام العبد من كيد السماوات والأرض. والاستعانة بالله عز، لأنها تحفظ الإنسان من أن ينهار أمام المشاكل أو يذلّ نفسه أو ينحرف.

والاستعاذة بالله حصن المؤمن من همزات الشياطين. وهكذا يستعيذ المؤمن بالله عند تلاوة القرآن، حيث تهجم عليه الوساوس، وعند مواجهة الكفار والفاسقين.

وهكذا التوكل على الله أكثر ما يكون عند اتخاذ العزم، والاعتصام عند خشية الانحراف، والاستعانة به عند الإحساس بالضعف. أما الاستعاذة، فعند مواجهة الخطر مباشرة، والله العالم.

الفصل الخامس

ضياء الهدى

تمهيد

لقد خلق الله الكائنات ليفيض عليها من رحمته، وأمر البشر أن يعبدوه ليستغنوا بعبادته عن عبادة غيره، وبيّن لهم أن الغاية من عبادته الرحمة، ومن أبعاد الرحمة الهدى الذي يكمل سائر النعم، والهدى نعمة كبرى، وعلينا أن نتأمل في معناها ونعرف حقائقها(ومصاديقها) وما هو الميزان الذي نتعرف به عليها، وما هي الوسائل التي تحقق لنا الهدى، ثم ما هي الحجب التي تمنع ضياءه عنّا، وما هي مسؤولياتنا تجاه هذه النعمة التي لو لم نقم بها ضيعناها، وما هي الفوائد التي نجنيها بالهدى، وما الذي يجب على الناس حتى يؤدوا حق الهدى؟؟

بلى؛ الهدى ميراث صفاء القلب الذي يعني عدة صفات فيه، مثل السكينة والاستقامة وسعة الصدر واليقين، وهذه أسمى درجات صفاء القلب التي يتسامى إليها الإنسان بالهدى.

وفي المقابل رين القلب فاجعة كبرى على البشر، وهو نتيجة الغفلة عن الحقائق والعمى عنها والجهل بها وعدم التفقه فيها.

وهناك أمراض في القلب لو لم نحاربها ينحسر عنا ضياء الهدى، مثل التعجب من الحق (عدم استيعابه) والريب فيه والامتراء واتباع الظنون والتذبذب والتخاذل والتسرع والعجلة.

وإذا ترسخت أمراض القلب، فإنه يصاب بالفسق الذي تظهر آثاره في العصبية والطبقية والفخر واتباع الكبراء (أولي القوة والثروة)، ثم الاستكبار عن الحق والسقوط في الفتنة والتربص والغرور وتكذيب الحق واختلاق الإفك (الثقافة الخاطئة) وانغلاق الجوارح وثني الصدر.

إن هذه الأمراض الخطيرة التي تعتري القلب قد تتشابك حتى يصعب تمييزها عن بعضها، إلا أننا نسعى بإذن الله تعالى أن نستفيد من آيات الذكر ما يدلنا على علاماتها وآثارها وسبل علاجها، والله المستعان.

الهدى

أرأيت الذي يضل السبيل ثم يهتدي إليه، ماذا فقد أولاً ثم وجده؟ إنه الهدى. فمن أين يأتينا الهدى؟ إنه نور يشع من معدن الغيب على قلب البشر، وفرص الهدى متوافرة للناس جميعاً. إنه دعوة الى دار السلام، إنه وقر في القلب يصدقه السلوك وعلم الله ميزانه ومن عنده يبتغى، والتسليم لله تصديقه. أما وسائله فهي الكتاب والرسول وبيت الله ، والانذار والتذكرة وما في الخلق من آيات، وعلى الناس الاستجابة لكل تلك الوسائل. وأدوات الاستجابة هي الرشد واللب والاستماع والاهتداء، ومن وسائلها التسليم والاعتصام بالله واتباع رضوان الله وطاعة الرسول والجهاد وسمو الأخلاق.

أما حجب الهدى والتي يمنعه عن القلب، فقد يكون خطأ المنهج الفكري، وقد يكون رين الشهوات وقد يكون حجب الحميات والفسق والنفاق والكفر والاضلال.

وللهدى فرائض أولها مسؤولية الإنسان عن الاهتداء الى الحق بعد توافر شروطه وتتحقق بالاستماع الى داعي الهدى، وطلب الهدى من الله، كما

مواجهة الجبت والطاغوت، وألا يرتاب في الحق، بل يسلم لداعية الهدى تسليماً.

ومن مسؤوليات الهدى؛ ذكر الله وشكره ودعوة الناس إليه.. فلماذا الهدى؟ إن له العاقبة الحسنى؛ فالأمن من الضلال والشقاء، والأمان من الخوف والحزن، وتحقيق الغلبة والنصر على الأعداء، والحفظ من الفتن والتمتع بالطيب من القول (الذكر الحسن) وانشراح الصدر ، والفوز بالمغفرة وجنة الخلد، إنها عقبى الهدى .

ومن الناس من يستبدل بالهدى الضلالة، فيبيع الحق بثمن بخس، ويشتري العذاب بالمغفرة، ويخسر ثواب الله، ويتبع شهوات النفس.

إنهم يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون إنه من عند الله، ويكتمون الحق ويكفرون به، وعاقبة هؤلاء أنهم يضلون ويحبون الضلالة للآخرين ويصدون عن سبيل الله ويسارعون في الكفر. والله لا يزكيهم ولا ينظر إليهم، وإن لهم عذاباً عظيماً. وعلى العلماء أن يتجنبوا هذا المصير وذلك باستحفاظ الكتاب والشهادة عليه وخشية الله دون الناس، وألا يشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً (فيتحدوا إرهاب القوة وإغراء الثروة).

ومن الناس من يحرف الكلم عن مواضعه فيطبق الكلمة على غير مصداقها، ويوهم الناس أن أفكاره هي وحي الحق، ويجعل الرأي معياراً لقبول كتاب الله، ومن التحريف الإيمان ببعض الكتاب، وكتمان الحق ، وجعل الدين جملة أماني. وللتحريف أسبابه التي تتمثل في قسوة القلب والنفاق والكفر، وعاقبته اللعنة، وعدم تطهير القلب، والخزي في الدنيا، والعذاب العظيم في الآخرة.

صفاء القلب

يستهدف المؤمن صفاء القلب الذي يحصل عليه بالسكينة والاستقامة والصبر وسعة الصدر واليقين.

١/ القلب المطمئن من أهداف المؤمن بالله، والله يبعث الطمأنينة (والسكينة) في قلب المؤمن عند الهزاهز، وبذكره تطمئن القلوب. وإذا كان القلب مطمئناً فلا يغيره الكلام الباطل عند الاكراه، وبالصبر والتقوى أنزل الله السكينة على الرسول، والمؤمنين، وبتلاوة الكتاب وعند مواجهة الطاغوت والبراءة من أعداء الله والاستقامة تنزل السكينة.

٢/ الاستقامة نهج تقع في الفكر، فلا غلو ولا طغيان ولا اتباع للهوى، وبالعبادة يستقيم المؤمن وكذلك بالتسليم للرسول.

٣/ الصبر يحصل بالتطلع الى ثواب الله وبأمل النجاة ورؤية المستقبل قريباً واستذكار مصير الغابرين، وبالصبر يفقه المؤمنون سنن الرب، وعند مقارنة الدنيا بالآخرة يختار الصابرون الآخرة ويزدادون وعياً واستقامة.

٤/ بسعة الصدر يستقبل المؤمن الحق، ويدعو ربه أبداً بشرح الصدر، وبشرح الصدر يحصل المؤمن على الخشية.

ومن أهداف المؤمن ومن أهدافه اليقين الذي يطهر القلب من الريب ويشاهد به القلب الحقائق ويسلم لها، ويقابله الظنون والتخيلات.

٥/ واليقين هو الدرجة العليا بعد الإسلام والإيمان والتقوى، وعناصره التوكل على الله والتسليم له والرضا بقضائه والتفويض إليه، وصفات الكمال ناشئة من اليقين ، كما درجات الصبر ناشئة منه.

وبالبراءة من الشرك والكفر، وبالنظر في آيات الله (في الكتاب وفي الكائنات)، وبالعبادة والدعاء يرزق المؤمن اليقين، وعقبى اليقين الإمامة وتقبل العمل والروح والراحة.

رين القلب

١/ أرأيت الذي يلهو عن سلاحه في أثناء الحرب، إنه يغفل عما ينبغي أن يلتفت إليه. وقد يغفل الناس قبل النذر فيعذرون برحمة الله، والغفلة متجذرة في ذات البشر،، وبذكر الله يتخلص منها. ولا يعذر أحد إذا غفل بعد النذر ، وبالغفلة يتكبر الكفار، ومن شرح بالكفر صدره كان من الغافلين، الذين هم كالأنعام بل أضل سبيلاً.

ولا يجدر اتباع من أغفل الله قلبه، والله ينتقم ممن كذب بآيات الله وغفل عنها.

٢/ العمى هنا عمى البصيرة، وبفقد العلم والعقل تعمى البصيرة، ومن أنكر الوحي كان أعمى. وإنما الهدى من الله، فمن حرمه عميت بصيرته واستحب الحياة الدنيا. ومن أمن الفتنة عمى، ومن استهزء بالحق سلب نوره، وكذلك من كفر بعد الإيمان. والعمى مسؤولية الإنسان بعد إتمام الله حجته ، وإنما يهدي الله برسوله من يسمع آيات الله، وأعمى القلب يحشر أعمى، وعقبى عمى القلب قد يكون عذاب الاستيصال. وهكذا يحذر المؤمن العمى، ولا يخر على آيات الله أعمى وأصم .

٣/ والتفقه (فهم الحقائق) قيمة، وقد أمر الله طائفة من المؤمنين بالتفقه، ولكن الله قد يحجب قلوب قوم أن يفقهوا آيات الله، وأسباب ذلك الاعراض عن آيات الله ونسيان ما قدمت يداه (من الذنوب)؛ كذلك التقاعس عن الجهاد والكفر بعد الإيمان، وعقبى عدم الفقه جهنم والهزيمة والخوف والانصراف عن آيات الله .

٤/ والجهل يعني ترك الاستضاءة بنور العقل، والكفر بالله، واتباع الأماني (بدل العقل)، والاستهزاء بأحكام الدين، والفاحشة، والحسد، والمطالبة بتغيير سنن الله.

والجاهلية عصر الجهل الذي يستبدل بالعلم الظن، وبالتقوى الحمية، وبالعدل الأنظمة الجائرة. والإنسان جهول ظلوم (لولا رسالة الله)، وعلى المسلم أن يستبين سبله، ولا يعتمد أخبار الفاسق ولا يتبع ما ليس له به علم، فإذا ركب جهلاً بادر إلى التوبة، وعليه أن يعرض عن الجاهلين.

٥/ التعجب من الحق حالة شاذة تطرأ على القلب عند مواجهة حدث جديد، والعَجَبْ مطلوب حين ينتهي إلى التسليم ولكنه حين يؤدي الى السخرية من الحق (غير المألوف) يصبح حجاباً. وهكذا كانت ممارسة التعجب من قبل الكفار، وإنما يتبدد العجب من الوحي بالتدبر في أسماء الله الحسنى.

٦/ الريب هو الاختلاط بين الأمور المتشابهة ، والبشر مسؤول عن ارتيابه بسبب خور عزمه وتربصه وفتنته لذاته. وهكذا يرتاب المنافقون عند لقاء العدو، ويفتتن الكفار أنفسهم بالتشكيك في الرسالة ، وكذلك المنافقون جعلوا بنيانهم ريبة في قلوبهم وخافوا من حكم الرسول فارتابت قلوبهم.

وعلى المؤمن أن يبدد ريبه بالبحث عن حجة بالغة. (وهكذا يتحدى القرآن المرتابين بأن يأتوا بمثله).

والسؤال وسيلة إزالة الشك، والحقائق الكبرى لا ريب فيها، ولن يكون الارتياب فيها عذراً في الكفر بها، والقرآن يبدد الريب حين يذكر بالحقائق ويطهر القلوب من حجبها ويقيم الحجج.

ومن عرف ربه باسمائه لا يرتاب في كتابه المنزل الذي يصدق بالكتب الماضية، وإن الساعة لا ريب فيها (حيث تشهد بها حقائق الحياة). وإن من عوامل الريب الكفر بالوحي واتباع الآباء والبغي.

٧/ ومن الرين الامتراء وممارسة الشك في الحقائق، وعلى المؤمن أن يتحدى الامتراء بالتسليم للحق. والامتراء دليل ضعف الإيمان (كالإمتراء في ولادة النبي عيسى عليه السلام، أو في ضلالة المشركين)، وعقبى الامتراء العذاب كالذي نزل بقوم لوط.

٨/ والظن تخيل الشيء، ويتبع المشركون ما تخيلوه وسموه بأسماء، وعند الخوف يتعاظم الظنون كما عند الغرور بالنفس يظن الإنسان أنه ينتصر أو أن ماله لن يفنى. وقد اغتر الانس بالجن فظنوا أنهم لا يكذب على الله أحد.

وعلى المؤمنين أن يظنوا بأنفسهم خيراً ، وأن يحسنوا ظنهم بالله، بخلاف المنافقين الذين ظنوا أن الرسول لن يرجع إليهم، وبخلاف الكفار الذين ظنوا ان الله لا يعلم كثيراً مما يعملون، وبخلاف من ظن أن الله لا ينصر عباده أو لا يضيق على العاصي .

وغرور البشر بالدنيا يجعله يظن بعدم قيام الساعة، وهكذا استكبر فرعون وظن أنه لن يرجع الى ربه، ومن الظن اتهام الرسول بالسوء .

وحين يترك البشر هدى ربه يتبع ظنه الذي لا يغنيه عن الحق شيئاً. والظن قاعدة تفكير المشركين، وإن الظن المطلوب هو ظن اليقين وتصور قيام الإنسان لرب العالمين.

٩/ التذبذب هو التردد بين جهتي الحق والباطل دون أن ينتخب الإنسان الحق، وهو قريب من التربص، وهو سبب الضلالة .

١٠/ مضاء العزم يورث الإقدام، وهو ميراث التحريض. وأما خور العزيمة فهو يورث الهزيمة، وهو ميراث التخذيل، ومن مصاديقه كلمات سلبية يبثها المنافق في المعارك وإظهار الحسرة على التضحيات.

والملاحظ أن التذبذب والتخذيل يرجعان الى ضعف الإرادة، بينما الريب والامتراء واتباع الظن يرجع إلى ضعف البصيرة.

١١/ والعجلة ضد الصبر والأناة، وقد خُلِقَ الإنسان من عجل فلذلك تراه يستعجل العذاب، وكان الأحرى به أن يعتبر بمصير الغابرين ويستغفر ربه، وإذا ورد العذاب بساحته سأل ربه المهلة وهيهات، وعندما يُعْرَضُ على العذاب يقال له إن هذا هو الذي كنت تستعجل به.

والله غفور ذو أناة، يؤخر عنهم العذاب الى أجل لعلهم يستغفرون. وقد نهى ربنا عن الاستعجال بالوحي، فلا يحرك الرسول لسانه ليعجل به، بل ينتظر قضاء الوحي، (وهكذا علينا تجنب التسرع والاستعجال في التعلم وإصدار الحكم).

قسوة القلب

١/ قسوة القلب

القلب الذي لا يهتز لذكر الله ولا يتقبل النصح، هو القلب القاسي الذي يميل الى الفتنة والدعوات الباطلة ويستهويه الفسق، وقد استدرج بنو إسرائيل الى هاوية قسوة القلب بعد نقض الميثاق والاعتداء في السبت (عصيان الأمر) والتقاعس عن تطبيق الأوامر فقست قلوبهم حتى حرفوا كلام الله ونافقوا، واستدرج المنافقون الى الفسق عبر مراحل فتنة النفس (الخداع الذاتي) والتربص والارتياب والاغترار بالأماني واتباع الشيطان واتباع الغرور. وعقبى قسوة القلب اتباع فتنة الشيطان والبقاء في الضلال والويل، وعلاج قسوة القلب الخشوع لذكر الله.

٢/ التعصب

التعصب والتحزب (الاغترار بالعصبية أو بالحزب) من حجب الهدى. والتحزب وليد الحمية، وميراثه الفرح بما لديه (الانغلاق) والتكتل، وربما مواجهة القيادة الشرعية.

ومن صفات المشركين التفرق في الدين (والانقسام إلى أحزاب)، وبالإنابة الى الله سبحانه والتقوى وإقامة الصلاة ينجي الله المؤمنين من التحزبات التي قد تنتهي الى الكفر ببعض ما أمر الله. والمتحزب يفرح بما عنده، بينما المؤمن يفرح بما عند الله ، وإنما الهدى هدى الله (لا ما عند هذا أو ذاك)، والمتحزب يدعو الناس الى أفكاره ويتمنى ضلالة الناس.

وجند الأحزاب مهزوم كما هزمت ثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة، بالرغم من أنهم جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، وجزاؤهم عند الله عذاب أليم.

٣/ الطبقية

وهي تجمع قائم على محور الثروة، وهي عامل استعلاء واستكبار، وهي حجاب دون معرفة الحق وانتشار الهدى في الأرض؛ ولم يكن الأنبياء عليهم السلام يبشرون الناس بخزائن يملكونها في الأرض، ولا بازدراء الطبقات الأدنى ، ولا طالبوا الناس بأجر، وإنما دعوهم إلى الله واتباع وحيه.

٤/ الفخر

والفخر (والغرور بالدنيا) يمنع البشر من التسليم للحق، وهو ميراث حب الدنيا التي هي متاع الغرور (وسيلة الاغترار)، ويستعدي المتفاخر الناس على نفسه. ومن صفات المختال البخل وأمر الناس به، وكتمان نعم الله، والحزن بما فاته، والفرح بما آتاه الله، أعاذنا الله منه.

٥/ إتباع ذوي النفوذ

إتباع الكبراء يحجب القلب عن هدى الرب، ومن عصى رسول الله اتبع كل جبار عنيد ، ومن خرج عن حصن ولاية الله وقع في هاوية ولاية الجبارين الذين أمرهم ليس برشيد، وإنما هم في غي ويصدون عن سبيل الله.

وغداً يجادل التابعون كبراءهم ولكن عبثاً لأنهم جميعاً في النار ، وسبب اتباعهم لهم أنهم أحبوهم كحب الله سبحانه، بينما كان المؤمنون أشد حباً لله (فكان أماناً لهم من عبادة الطاغوت).

وتشتد حسرتهم يوم القيامة. إذ تراهم يلقون بالوم على الليل والنهار (حيث استرسلوا في اتباع الانداد من دون الله).

٦/ الاستكبار

إذا كانت صفة الكبر ذاتية عند الانسان، فإن تحسسه بها تكبر، وسلوكه وفقها إستكبار، وانكار التوحيد تعالياً عليه إستكبار، ومنه الكفر بما آمن به المؤمنون (من التوحيد والرسالة). وهكذا يتحدى المستكبر آيات الله (التي تهدي للحق)، ويجرم (بحق أولياء الله). فهذا فرعون وملؤه إستكبروا لما جاءهم موسى عليه السلام بآيات الله، وكذلك اليهود من بعدهم إستبكروا لما بعث الله محمدا صلى الله عليه وآله، ولم يسلموا لشهادة شاهد منهم على مثله .

وقد يطالب المستكبر بالنذير، ولكنه يستكبر إذا جاءه. ولم يكن كفر المستكبر لنقص في الآيات ، ولذلك يقال له يوم القيامة ، إنه قد جاءته آيات الله فاستكبر عنها .

وسبب الاستكبار، ذلك الكبر الذي في النفس ، والذي دواءه الاستعاذة بالله .

والايمان بالآخرة سكينة ، بينما الذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة ، وهم مستكبرون، وهم على طريق إبليس الذي استكبر ولم يسجد لآدم ، وقال أنا خير منه ، واعتز بأنه من نار وآدم من طين.

وعلامة المستكبر ؛ التولي عن الحق حين يتلى عليه ، والاعراض عنه ، والمعاندة على الجحود. وقد يحرف كلمات الله استكباراً ، ويصد عن سبيل الله ، ويمارس العتو ويهدد الدعاة الى الله . ومن أمثلة ذلك ، استكبار بني اسرائيل ، وتكذيبهم الأنبياء وقتلهم .

وعاقبة المستكبر الدمار، فقارون (الذي استكبر بثروته)، وفرعون (المستكبر بسلطته)، وهامان (المستكبر بدهائه) ، هم عبر ومثلات . كما عاد التي استكبرت بغير حق ، دمر الله قراهم وتركهم أحاديث. وابليس أول المستكبرين ، كانت عاقبته الصغار واللعنة . والله لا يحب المستكبرين، ولا يفتح لهم أبواب السماء ، ولا يدخلون الجنة ويعذبهم عذاباً أليماً. ولأن المستكبر يتعالى عن الحق ، فان الله يعذبه عذاب الهون ، ويدخله جهنم داخراً. وعلى الانسان أن يواجه حالة الاستكبار في نفسه بمعرفة مواقع الضعف في نفسه ، والدعاء الى الله، وأنْ يعلم أنَّ الله يسجد له ما في السموات

والارض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون، بل لا يستحسر الملائكة عن عبادته ولا يستكبرون. وكذلك عباد الله المكرمون ، أنهم يسبحون له بالليل والنهار . وكذلك المؤمنون تساموا الى درجة التسليم ، فاذا ذكر الله خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم ، ولم يستكبروا. وكذلك في طائفة القسيسين والرهبان ، من هم يسلمون للحق ولا يستكبرون .

٧/ الفتنة

تعددت آفاق كلمة الفتنة ، حتى كادت تختصر منظومة متكاملة من بصائر الوحي في حياة البشر، من خلال التدبر في الكتاب نستوحي ؛ أن تطورات الحياة تستخرج باطن البشر ، وتوفر له الفرصة لاصلاح ذاته . وقد تكون الفتنة نعمة أو نقمة أو آية مبصرة أو ارهاب سلطة طاغية .

والأموال والأولاد فتنة ، وكل خير وشر فتنة . فاذا خول الله عبده نعمة اغتر بها وترك الدعاء ، بينما هي فتنة. ولقد أرسل الله ثمود بالناقة آية مبصرة ، وكانت فتنة لهم (ليعلموا كذبهم بطلب الآيات). أما الطغاة ، فقد فتنوا المؤمنين (بارهابهم) ، بل حكم الطاغوت بذاته فتنة يجب الجهاد من أجل ازالته .

وتحيط بالبشر الفتنة ، وعليه أن يديم الحذر منها . والايمان هو الحصن المنيع ضد الفتنة، وإذا حسب البشر أن لا فتنة تصيبه ، سقط فيها ، لأنه يصاب بالعمى والصمم . والشهادة على استمرار الفتنة ، أنها تصيب الناس كل عام مرة أو مرتين .

ومن آفاق الفتنة ابتلاء الناس ببعضهم ، فلما اختار الرب رسله من الناس أنفسهم ، فتنهم بالتسليم لهم. أليس التسليم لبشر مثلهم أشد صعوبة ؟ ثم جعلهم كسائر الناس يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، (ليكون أبلغ في الفتنة) .

وفتن المؤمنين بالظالمين كما بالكافرين ، وكان من دعاء المؤمنين ألاّ يجعلهم فتنة لهؤلاء أو أولئك . والأموال والأولاد فتنة كما الأزواج ، ومن الناس من يفتتن بالحرمان من الأولاد . والرخاء فتنة (وحتى الأمن) والحكم الصالح فتنة (كما يبدو) ، والسلطة - وبالذات القضاء بين الناس - فتنة لأهلها . ووساوس النفس وتسولاتها وأمنياتها فتنة ، كما تغرير الشيطان . وخشية الكفار فتنة ، كما ارهابهم وسلطة الطغاة فتنة ، وعلى

المسلمين الجهاد حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله . والرسل يتعرضون لفتنة الناس (من خلال الضغط حتى يغيروا بعض الدين) ، والله تعالى يثبت أنبياءه (عليهم السلام) من فتنتهم، ولقد حذر الله نبيه من الاستجابة لتلك الفتنة . والمؤمنون يتحدون فتن الأعداء بالهجرة والجهاد والصبر .

ومن أجل مقاومة فتنة الارهاب ، يجب على المؤمن أن لا يجعل عذاب الله كفتنة الناس. (وليعلم أن عذاب الله أشد وأبقى) ، فليصبر على هذه الفتنة لمواجهة تلك الفتنة .

والفتن المضلة هي التي يأفكها شياطين الانس والجن بين الحين والآخر ، مثل العجل الذي ابتدعه السامري ، ولقد حذر النبي هارون عليه السلام من تلك الفتنة بني اسرائيل؛ وكذلك اشاعة وفاة النبي بعد الهزيمة التي مني المسلمون بها في أحد، كانت فتنة.

وكان المنافقون يستأذنون الرسول في الانصراف عن المعركة ، ويسألونه ألاّ يفتنهم ، في الوقت الذي كان فرارهم من المعركة بذاته فتنة سقطوا فيها. ومكر ثمود بالنبي صالح كان فتنة ، حيث تقاسموا على قتله.

ومن الفتن اتباع ما تشابه من الآيات لخداع الذات ، ولتأويل الآيات المتشابهة (لخدمة أهدافهم) . وفي يوم القيامة يحلف الكفار أنهم لم يكونوا مشركين ، (وهذا نوع من فتنة الذات فيما يبدو) . ويبحث المنافقون عن الفتنة أنى وجدوها سقطوا فيها ، (لأن نفوسهم مريضة) .

ولما اختار النبي موسى عليه السلام من قومه سبعين رجلا لميقات الله ثم أخذتهم الرجفة ، بيّن النبي أن ذلك فتنة لأولئك القوم (حيث عرضهم لوضع ابتلى به ما في دخيلة نفوسهم). ولما أنبأ الله تعالى عن عدة ملائكة العذاب أنهم تسعة عشر قال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾. ومن ذلك ما يلقيه الشيطان ضد كلمات الوحي ، حيث يمتحن الله بها الناس . فالمؤمنون يزدادون يقيناً وتسليماً ، بينما مرضى القلوب

يسقطون في الفتنة. وكذلك رؤيا رسول الله صلى الله عليه وآله، والتي عبرت بما يجري بعده صلى الله عليه وآله كانت فتنة .

٨/ التربص

التربص والتردد وانتظار المستقبل والتعامل مع الواقع لا الحق من علامات الشك ، بينما الاقدام والعزم من علامات الايمان واليقين. وقد تربص الكفار بالنبي ريب المنون ، وآخرون تربصوا به حتى حين ، (حيث يكشف واقعه بزعمهم). والمنافقون سألوا المؤمنين في يوم القيامة أن ينظروا حتى يقتبسوا من نورهم، ونادوهم ألم نكن معكم، فلماذا اختلفنا ؟ فاجابهم المؤمنون: بلى ؛ ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم .

ولعل تربصهم وانتظارهم كان لحين معرفة الغالب ، فإن كان للمؤمنين الفتح قالوا : ألم نكن معكم؟ وطالبوا بنصيبهم ، وإن كان للكافرين قالوا : ألم نستحوذ عليكم ، ونمنعكم من المؤمنين . ومع ذلك فانهم كانوا يتمنون أن تدور الدائرة على المؤمنين .

ولمعالجة مرض التربص يذكر الله عباده بعقبى التربص ، وبأن العاقبة للمتقين . فحتى لو استشهدوا فانها لهم إحدى الحسنيين، وأن الرسول (الذي تربصوا به) سوف ينتصر عليهم باذن الله ، وسوف يكشف الزمان صدق المؤمنين .

٩/ الغرور

للانسان حاجات وتطلعات ، ولتحقيقها سبل ؛ وابليس يغره عن تلك السبل ويغويه . ومنذ أول غواية أضل ابليس آدم وزوجه ، فدلاهما بغرور ، حتى ذاقا الشجرة التي زعم أنها شجرة الخلد وملك لا يبلى.

والتأمل في قصة آدم واغواء ابليس ، يدلنا على جملة بصائر :

أولاً/ إن النعم الالهية هي السابغة ، وانما النهي عن أشياء محددة .

ثانياً/ يستخدم ابليس الوسوسة سبيلاً الى الغواية .

ثالثاً/ التقوى تصون البشر عن ظهور سوءاته من حرص وغضب .

رابعاً/ أثار ابليس غريزتي حب الملك والخلود في آدم وزوجه، ودلاهما بغرور الى الوسيلة الخاطئة لتحقيقهما.

خامساً/ اعتمد القسم بالله في الاغواء ، واستفاد من غريزة الدين عند البشر بذلك .

سادساً/ التحصن ضد غرور الشيطان ، إنما يتم بهدى الله ومعرفة عداوة ابليس .

والشيطان يثير البشر بصوته ، ويرهبه بقوته ، ويفسد عليه نظام الاقتصاد والتربية ، ويعده ويمنيه ، وتلك وسائل تدليسه. ولعل أخطر وسائل اغوائه ، الأماني التي تتخذ مظاهر شتى ؛ فمنها أمنية دخول الجنة بلا عمل، بل بالانتماء الساذج ، وأمنية النجاة من العذاب إلا أياماً معدودة (كما عند اليهود) ، وأمنية الامتناع عن العذاب بشفاعة الشركاء والأنداد .

ومن علامات الغرور ، أن صاحبه يتخذ الدين لهواً ولعباً . (فيتخذ الدين سبيلاً الى شهواته ، وغطاءاً لأخطائه). وعلينا أن ندع مثل هذا المغرور بالدنيا ، الذي يتخذ آيات الله هزواً (فيفسرها برأيه ويحرفها عن مواضعها) . ومن علائم المغرورين بالدنيا، أن بعضهم يوحي الى بعض زخرف القول ؛ كالوعود الكاذبة، والأماني، والأفكار السلبية.

ولكي يحذر البشر من الغرور ، عليه أن يذكر الله ذكراً كثيراً ، ويتذكر الساعة ويشفق منها .وإذا كانت وسيلة الغرور الأماني والعلاقات ، فليتذكر المؤمن أن وعد الله حق ، وان العلاقات الدنيوية لا تنفع هناك شيئا. وعلى الانسان ألاّ يغتر بقوة الظالمين في الحياة الدنيا، فإن تقلبهم في البلاد محدود، ومأواهم جهنم . وقد تقلبت في البلاد الأمم التي كذبت بالرسل، فأين هم الآن؟ لقد أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، فكيف كان عقاب.

ولقد زين الشيطان للمنافقين أعمالهم ، وغرهم بأنه معهم ، وأنه لا غالب لهم ، ولكنه نكص على عقبيه عند المواجهة. ثم أن المنافقين (المغرورين بالشيطان حتى النخاع) تراهم يتهمون المؤمنين بالغرور، وبالذات عند الابتلاء وزلزلة النفوس، يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض: ما وعدنا الله بالنصر إلا غروراً .

١٠/ التكذيب

حين لا يعترف الإنسان بالحق إذا جاءه ، فإنه مكذب به . ولعل التكذيب بالحق ، هو جذر الكذب والافتراء. ولكلمة التكذيب آفاقها ؛ فالتكذيب أحد أبعاد الكفر ، وهو مناقض للايمان . وإنما المكذب هو الذي توافرت آيات الحق لديه فكذب بها . فمحور التكذيب الحق ، وهو من أشد الظلم ، كما الافتراء .

والتكذيب بآيات الله ، دليل على التكذيب بالحق ، الذي تدل عليه تلك الآيات ، كما الجدال في تلك الآيات يصرف البشر الى متاهات الضلال ، سواء آيات الله في الخليقة أو في الكتاب ، (ومن ذلك التكذيب بتأويل تلك الآيات). وهكذا الخوض في آيات الله، والحديث فيها من دون علم ، أو اللعب والاستهزاء بها، والتكذيب بآلاء الرحمن (دون التسليم لها بالاعتراف بها، والشكر لها، وأداء حقوقها)، إنه محور أساسي للتكذيب عند الكافرين .

من محاور التكذيب بالحق في الكتاب ثلاثة؛ التكذيب بآيات الله ، وبرسله ، وبنعمه . أما التكذيب بآياته، فانه ظلم فاحش . أوليس حق الآيات يفرض عليك الايمان بها ؟ فالتكذيب نكران لذلك الحق المفروض ، وهو ظلم . ومن كذب بآيات الله فقد خسر نصيبه من الكتاب وضيَّع فرصته في الهداية، فاذا انتهى أجله اعترف بأنه قد ضل عنه ما أشرك به ربه ، (واعتمد عليه في التكذيب) ، وشهد على نفسه بالكفر:

١- وحقيقة التكذيب بآيات الله الاعراض عنها، وإذا كانت آيات الله مبصرة (ناقة صالح - عصى موسى)، فإن الكفر بها يقتضي عذاب الدمار .

٢- والتكذيب بآيات الله ينشأ من أسباب ، أبرزها :

الأول / الكفر ؛ فالكافرون يكذبون بآيات الله .

الثاني / العمه والصمم البكم الذين هم في ظلمات (الجهل) يكذبون بآيات الله ، وقد أضلهم الله .

الثالث / الاستكبار الذي يمنع البشر من التسليم للحق ، الذي تهدي إليه الآيات .

الرابع / المصلحة ، (حيث يجعل البعض رزقه في التكذيب) .

الخامس / اتباع الهوى .

السادس / سبق التكذيب؛ فمن كذب بآيات الله من قبل (وربما في عالم الذر)، يقتضي أن يكذب بها في الدنيا.

السابع / اجتراح السيئات؛ فان عاقبة الذين يسيئون ، أسوء عاقبة ، وهي التكذيب بآيات الله .

٣- وعقبى التكذيب ؛ أن لهم عذاباً مهيناً ، وأنهم لا تفتح لهم أبواب السماء ، ولا يدخلون الجنة، وأنه تحبط سائر أعمالهم (حتى الصالحة – ظاهراً، لأن شرط الايمان مفقود) ، وان الله يقطع دابر المكذبين بآيات الله، فلا يبقى لهم ذكر حسن، وأنه ينتقم من الذين يكذبون بآيات الله (بأن يرسل عليهم عذاباً ودماراً) . وكانت القرى المكذبة قد دمرت ، فكيف كان نكير الله تعالى ؟ وهكذا يصبح المكذب مثل سوء لكل معتبر ، ويستدرجه الله من حيث لا يعلم ، حيث يهلكه بذنوبه ، وعاقبته الخسران، حيث يأخذه الله أخذ عزيز مقتدر كما أغرق فرعون وملأه في اليم . وحتى قبل القيامة ، يحشر الله من كل أمة فوجاً ، ليحاكموا ويفتضحوا .

٤- ويوم القيامة يحضر الله المكذبين، فهم يومئذ من أصحاب الجحيم ، خالدين فيها ، وطعامهم من زقوم. وقبل العذاب يحاكمون ، ويقال لهم : ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ؟ وحتى جهنم تسألهم: ألم يأتكم نذير ؟ قالوا بلى؛ قد جاءنا نذير ، فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء ، ويبلغون ذروة الندامة حين يتمنون العودة الى الدنيا ، فلا يكذبون بآيات الله .

٥- وتتلو علينا آيات الذكر عبرة التاريخ ، لنعرف عاقبة المكذبين . فلقد كذب الطغاة الذين كانت جهنم لهم مرصاداً ، لابثين فيها أحقاباً . وقد كذبت قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون واخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تبع ، كل كذب الرسل فحق وعيد الله عليهم . (قد اشتركوا في التكذيب ، فعمهم العذاب) .

٦- وتكذيب الرسل عاقبته هي عاقبة تكذيب الآيات ، وقد ذكّرنا الله تعالى بتلك العاقبة ، وكيف أن الله تعالى قد أنجى الرسل ودمر المكذبين . وبالرغم من تنوع الهلاك ، إلا أن النتيجة واحدة ؛ الدمار والذكر السيء (اللعنة) . وكل العواقب السوئى التي لحقت بالمكذبين آيات ، ولكن الناس لا يؤمنون .

٧- والله تعالى يبين عقبى المكذبين ، لكي نعتبر بها . ولذلك فإنه سبحانه يقرن بين تكذيب هذه الأمة، وتكذيب الأمم السابقة ، فيقول مثلا : ﴿**وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُم**﴾. في آيات كثيرة يرفع الحواجز النفسية التي قد تجعل البعض لا يعتبر من مصير

الغابرين، فإنهم لم يكونوا أضعف منكم، بل كثيراً ما كانوا أقوى. وإذا كنا لا نعرف عنهم شيئاً، فتلك آثارهم مبثوثة على الأرض ، فسيروا في الارض لتنظروا إليها. ولعل في تلك الآثار ما تدل على أن تكذيبهم استمر لحين الانتقام منهم ، (مما يدل على أن الانتقام كان بسبب التكذيب) . وايضا ان العذاب فاجأهم ، فلم يستطيعوا له رداً .

٨- ثم إن الحياة تضيق بالمكذبين ، حيث أنهم يتيسرون للعسرى ، حتى يدخلون ناراً لا يموت أحدهم فيها ولا يحيى .

٩- في سورة المرسلات تكررت هذه الآية : ﴿**وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ**﴾. ولعل الحكمة في ذلك ، أن أكثر الناس يزعمون أن التكذيب بالحق يبرر لهم ترك العمل به ، بينما يزيدهم مسؤولية. فالويل لهم (بكل معانيه من العذاب في الدنيا والآخرة) . ففي يوم الفصل، ويل للمكذبين . والهلاك ينتظر المجرمين ، فويل للمكذبين . وهذا الانسان الذي خلق من ماء مهين ويل له إذا كذب ، فويل للمكذبين . وهذا الانسان الذي وفر له الله النعم السابغة ثم يكذب ، فويل للمكذبين . وهذا البشر الذي يحتاج في حياته الى الله ، ويل له حين يكذب ، فويل للمكذبين . ويفسر القرآن بعض الويل للمكذبين في صورة ظل ذي ثلاث شعب ، لا ظليل ولا يغني من اللهب، إنها ترمي بشرر كالقصر ، كأنه جمالت صفر .

ولأن المكذب يبرر تكذيبه بشيء، فلا يتفكر أنه يوم القيامة يؤذن له ليعتذر. كلا؛ بل له الويل.

ولعل المكذب يزعم أنه قادر على مواجهة آثار تكذيبه بقوة أو بفرار أو بشفيع . كلا ؛ لا يمكن أن يكيد ، بل له الويل .

والمتقون في ظلال وعيون ، بينما الويل للمكذبين ، وإن تمتعهم في الدنيا بتكذيبهم لا يسوى شيئاً، إذا قورن بعقاب الآخرة الشديد .

ومن أبعاد تكذيبهم ؛ أنهم لا يركعون لله ، ويكذبون بيوم الدين ، وأن سبب تكذيبهم هو أنهم من الآثمين المعتدين ، وأنهم إذا تتلى عليهم آيات الله قالوا أساطير الأولين ، وأنهم قد ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون .

١١/ الإفك

الإفك هو االكذبات الكبيرة ، والضلالات البعيدة ، والشبهات المعقدة التي يستخدمها الشيطـان وأولياؤه من أئمة الضلالة في مواجهة بصائر الوحي النيرة ، وحقائق الرسالة الظاهرة ، لعلهم يخدعون البشر عنها ، وتراهم قد ينجحون فعلاً في مكرهم .

وهكذا الإفك ليس كل كذبة ، بل تلك الكذبات الكبرى التي يختلقها الكفار لمواجهة الحقائق الكبرى (توحيد الله - الرسالة - النشور) ولعل منها الثقافات الجاهلية والشركية والسلبية.

وكلما بعث الله رسولاً، أثار كوامن العقل ، وأيقظ الضمائر الغافلة ، اختلق شياطين الجن والانس إفكا كبيراً لمواجهة تحدي الرسالة؛ (بالسحر العظيم حاربوا المعاجز الكبرى لموسى عليه السلام مثلاً) .

على الانسان أن يزداد حذراً من الإفك المختلق ، وليعلم أن تجاوز عقبة الإفك (وما يختلقه الأعداء من شبهات معقدة) ، هو السبيل الى رحاب الحق ، وإلا فإنه يؤفك عن الحق فيمن أفك ، ويوقع في الضلالات الكبرى التي وقعت البشرية فيها . من تلك الضلا لات ، اختلاق الولد لله الواحد سبحانه ، وصناعة الأوثان ، ودعم الثقافة الوثنية بفلسفات بررها وغر البشر بها .

وبهزة ضمير ، وبيقظة وجدان ، وبنفضة إيمان ؛ يتجاوز العقل السليم عقبة الإفك ، وشبكات الفلسفات الباطلة، واشراك الكذبات التي أحاطت بها . تجاوز ذاتك ، ومحيطك ، وأفكارك المتراكمة على قلبك ، وانظر الى الحقائق مباشرة وبلا حجب، ألا ترى آيات الله في خلق السماوات والأرض ، وتسخير الشمس والقمر ، وآثار رحمته في تدبير الخلق ، حيث جعل لك الليل سكناً والنهار مبصراً ، وأنت لا تشكره ، وهو يتفضل عليك دائماً؟

ألا ترى الحياة حين تبزغ من ضمير حبة أو نواة ، كذلك الحـياة التي تتواصل عبر الأحياء ، وحركة الليل والنهار ، وحسن التقدير فيهما ، أليس ذلك يهديك الى الرب العزيز العليم ؟

فالى متى تبقى في متاهات الإفك ، وتترك رحاب النور الذي يتجلى في ضميرك ، من آيات الخلقة مباشرة ، بلا أية حجب أو تعقيدات ؟ وكلما تفتحت بصيرتك بنور الخالق ، واتصل وجدانك بالحقائق مباشرة ، كلما قدرت على تجاوز ألوان الإفك ، بالرغم مما فيها من زخرفة وأمتعة الغرور ، وأدوات الخداع . وهكذا كلما تعرضت لشبهة فاستعذ بالله ، وعد الى نمير الإيمان ، وطهر قلبك من درن الغفلة ، هناك تبدو لك الحقائق أكثر فأكثر .

وتحبك الحركات المعارضة للرسالة شبهة ، وتشيعها في المجتمع المدني ، و تتهم زوجة الرسول بالزنا. (وتصنع مثلها الطغاة ضد الدعاة أبداً) ، ويمتحن المؤمنون بالرسول والرسالة بذلك . فهل يحصنهم إيمانهم من الخوض في الإفك ، أم ينهارون ؟ وإذا كان إيمان الفرد بالرسول عن بصيرة ، استطاع أن يتحدى ذلك الإفك الخطير .

١٢/ انغلاق الجوارح

بسبب سقوط الإنسان في مهاوي الضلالة والعمى، وبعد إحاطة الرين به ، يختم على قلب البشر ، فلا يسمع ولا يعقل (وتلك من أسفل دركات الكفر) .

إنغلاق القلب يعني سلب النور منه نهائياً ، وإذا سلب الله نوره فمن يأتيه بنور ؟ لا أحد. وهكذا فلن يهتدي إذا أبداً.

وما يقتضي الطبع على القلب فانه أقسام ، (يجمعها الكفر النظري والعملي) . فالذنوب التي يكتسبها البشر ترين على قلبه حتى تحيط بأطرافه ، والاعتداء على الآخرين يغلق القلب ، كما اتباع الهوى واتخاذه إلهاً، والنفاق والتكبر والتجبر والكفر (بعد الإيمان) والاعراض عن آيات الله والجدال فيها ، وهكذا التخلف عن القتال وبالذات عند الأغنياء .

١٣/ ثني الصدر

مما يمنع نور الهدى عن العقل، أن يطوي الانسان صدره ، فيضمر في طيه شيئاً ويظهر شيئاً غيره، فمثلاً يضمر الكفر ويظهر الايمان ، أو يضمر الاعتراف بالحق (الذي يشهد عليه وجدانه) ولكنه لايعترف به ظاهراً .. إنه ثني الصدر وعطفه حتى يصبح الصدر (القلب) ذا وجهين ؛ وجه للباطن ، ووجه للظاهر . وهو عمل مشين ،

وهدفه الاستخفاء من الله (والتظاهر بغير ما يضمر) ، ولكن هل يخفى على الله شيء؟ كلا؛ لأنه محيط علماً بالناس . وفي اللحظات التي يختلون الى أنفسهم ، عندما تغشاهم وتسترهم ملابسهم وثيابهم ، ويكشفون أسرارهم ، هناك يحيط الله علماً بهم ، ويعلم سرهم ونجواهم .. قال الله تعال : ﴿**أَلاَ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُور**﴾ (هود/٥)

ونستوحي من الآية ؛ إن ثني الصدر وعطفه على بعضه (وجعله طبقات) ، وعدم الصراحة والبساطة، إنه قيمة مضادة للهدى .

١٤/ الإكراه على الدين

الإكراه حمل الشخص على ما لا يرتضيه . والمجتمع الجاهلي قائم على أساس الإكراه ، بينما المجتمع المؤمن يقوم على أساس من التبيين .

ولم يستخدم الرسل الإكراه لحمل الناس على الرسالة ، والله تعالى لم يكره الناس على اتباع الهدى ، فهل يكرههم الرسول أو الدعاة الرساليون ؟

وهكذا هي علاقة الانسان بالانسان ، ينبغي أن تقوم على أساس الاقناع والاحسان ، لا الإكراه والإتباع . فالأب يقنع أبناءه على سيرته ، والولد يحسن الى والديه ، والناس يأمر بعضهم بعضاً بالمعروف وينهاه عن المنكر ، ولا إكراه في الدين . والولاية علاقة إيمانية بين الراعي والرعية ، وأمر الناس شورى بينهم، والطاعة نابعة من القناعة ، وما سوى ذلك حالة ثانوية .

الفصل السادس

بصائر العلم

تمهيد

غاية الخلق الرحمة الإلهية التي وسعت كل شيء، فقال ربنا سبحانه: ﴿**إِلاَّ مَن رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾ (هود/١١٩).

وأول كلمة نزلت في كتاب ربنا "بسم الله الرحمن الرحيم". وإذا كانت سورة العلق أول سورة نزلت على قلب الرسول، فإن كلمة إقرء كانت بدايتها، وذكرت بنعمة العلم.

فما هي نعمة العلم، وما هي حقائقها (ومصاديقها) وقيمتها ومعيارها؟ أوليس العلم نور يكشف به الله للبشر الحقائق، فما هي الحقائق التي يكشف (محاورها)، ثم ما هي مصادر العلم التي تلهمنا هذا النور (العقل، العلم، الكتاب)، وما هي الحجب التي تمنع نور العلم عنا (الغرور الكبر)؟؟

وما هي المناهج السليمة للوصول الى نور العلم، والتي تطمئن إليها النفس حتى يصبح العلم حجة من الله على عباده؟.

وفوائد العلم كثيرة فما هي؟ ومسؤولياته كثيرة فما هي؟

هذه منظومة من الأسئلة التي نلتمس اجاباتها من الكتاب والسنة التي تبلور عقولنا وذلك في الباب الأول من الجزء السادس من هذه الموسوعة، بينما نسعى في الباب الثاني أن نستفيد من السبيل المؤدي الى العلم، مثل النظر الى نعم الله والسماع والاستجابة (للحق) والاستذكار والتفكر والتبصر والاعتبار والحذر والرشد والتثبت (بالقرآن) والتبصر (ووضوح الرؤية) .

وهذه المناهج التي تضيء درب العلم أمامنا، تؤدي بنا الى التعقل والحكمة، بل الى توسم المستقبل.

وهكذا نعرف أن الشريعة الغراء بناء متين يصدق بعضها بعضاً، وأن كتابها المجيد شفاء لما في الصدور.

وفي الباب الثالث الذي سميناه بميثاق العلم نستعرض مسؤوليات العلماء من الأمر بالمعروف وبيان الحق والشهادة به والصدق (في القول والعمل).

وفي النهاية يقال الجهل والضلال، العلم والهدى؛ كما يقال التضليل والتعليم. ومن دون معرفة مكر الشيطان وأوليائه في حجب البشر عن العلم، نبقى معرضين لخطر التضليل، ومحاوره كتمان العلم والخيانة فيه والخداع والبهتان والافتراء على الله الذي قد يكون بتحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله وقد يكون بالغلو في الدين (وبالذات في أصول الدين)، وقد يتمثل في الصد عن سبيل الله.

وقد يساهم الإنسان في تضليل نفسه، وذلك بالتسويف (كما والتربص والتذبذب) وقد يكون بالوسوسة التي هي من الشيطان.

العلم

ما هي كلمة العلم؟

كيف نهتدي الى معنى كلمة العلم؟ دعنا نبدء من أمس الحاجات الينا الطعام والشراب والجنس والسكن، كيف يحصل لنا العلم بمواضعها، وكيف نستبين شيئاً بشهادة العدول الذين نثق بهم؟ وهكذا العلم الذي يكشف لنا الحق واضحاً والذي يقابله حالة السكر والغفلة.

ومثل آخر: العلم بالمواقيت؛ بالأهلة (بالطلوع والغروب)، كيف يضيء لنا الدرب؟

هذا قبس من نور العلم، وقد يتنامى العلم الى درجة علم اليقين ثم حق اليقين حتى يبلغ مستوى عين اليقين رزقنا الله سبحانه.

حقائق العلم

والصلة بين العلم والإيمان، أن العلم من رحمة الله على البشر، وما الرسل إلا نذر، وعلينا أن نطلب من الله المزيد من العلم، أورأيت كيف يعطي الرب الإنسان علماً من بعد جهل ثم يرده إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئا؟ وهكذا العلم كما نور الشمس يقذفه الله في قلب من يشاء.

قيمة العلم

والعلم بأسماء الله وصفاته وآياته، أشرف الحقائق التي يكشفها الله للإنسان بنور العلم. فالسماوات التي خلقهن الله سبعاً، ومن الأرض خلق مثلهن يهدينا الله بها الى العلم بأسمى القدرة والنعم الذين تجليا في خلقه سبحانه، وآلاء الله علينا دليل على وحدانيته فهو وليس غيره الذي ﴿**أَنْزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً**﴾ (البقرة/٢٢) فكيف نجعل لله أنداد اً من دونه؟!

وكما آيات الله في الخلق كذلك آياته في الكتب تهدف هداية الناس إلى العلم بوحدانية الله سبحانه. وحتى أحكام الشريعة (مثل الحج وانتخاب موقع الكعبة) تهدينا الى معرفة الله، وأنه بكل شيء عليم. وبعض الآيات التاريخية التي تجلت فيها قدرة الرب (مثل قصة أصحاب الكهف العجيبة) كانت هدى للإنسان الى معرفة اسم الله، (وأنّه صادق الوعد).

وهكذا تجلت رحمة الله سبحانه لعباده أن عرّفهم باسمائه الحسنى ليزدادوا إيماناً ويقيناً.

وكما معرفة الله واسمائه، كذلك معرفة الرسالة ومعرفة حقيقة المسؤولية (الجزاء) أنها من أشرف موضوعات العلم التي ذكرت بها آيات الوحي.

وأما قيمة العلم وفائدته، فهي أولاً بأن العالم يكون مطاعاً في قومه وحتى في أهله القريبين، والملك من حق العلماء، والعلم زين للإنسان منذ أن يكون غلاماً.

معيار العلم

أولاً: علم الله

لأن علم البشر من عند الله ولأن الله سبحانه علام الغيوب وعنده أم الكتاب، فإن معيار الحق هو علم الله .

ثانياً: اليقين

شدة اليقين بالعلم التي تجعل العالم على استعداد للتضحية بنفسه وبأعز الناس عنده (بالإبتهال) دليل صدقه.

ثالثاً: التهجد

ومن صفات العلماء بالله والأخرة، تهجدهم بالليل كما قال ربنا سبحانه: **﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَآئِماً يَحْذَرُ الاَخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَيَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُواْ الاَلْبَابِ﴾**(الزمر/٩)

محاور العلم

أولاً: أسماء الله

العلم بالله وباسمائه الحسنى وسننه في خلقه، أسمى محاور العلم وموضوعاته. قال الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لآ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ (محمد/١٩)

وقال النبي صلى الله عليه وآله: "التوحيد نصف الدين"[١].

والعلم بأن الله نعم المولى ونعم النصير، يعكس روح التوحيد عند المؤمن. قال الله تعالى: ﴿**وإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ مَوْلاَكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ**﴾ (الانفال/٤٠)

والعلم بأن الله شديد العقاب، ينمي التقوى. قال الله تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاتُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ (الانفال/٢٥)

ثانياً: العلم بسنن الله

فالله يحيى الأرض بعد موتها ، وإنه سبحانه قد أعطى البشر حرية القرار ، وإن الله مع المتقين ، وإن الفاسقين ظالمون وإنهم يتبعون أهوائهم، وإن الله لا يهدي الفاسقين، وإن مصير المنافق النار، وإن الأموال والأولاد فتنة . هذه من سنن الله التي لابد أن نعلم بها يقيناً.

ثالثاً: العلم بالآخرة

والعلم بالآخرة وأن البشر يحشرون إلى ربهم ليجازيهم على أعمالهم، هذا العلم ينمي فيهم روح التقوى، ويحفظهم من تجاوز حدودهم، والاعتداء على حقوق الآخرين. قال الله سبحانه: ﴿**نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ مُلاَقُوهُ وَبَشّرِ المؤمِنِينَ**﴾ (البقرة/٢٢٣)

رابعاً: العلم بالرسالة والرسول

١- نور الثقلين ،ج٥، ص٣٩، الرواية رقم ٥١.

العلم بالرسالة وبالرسول ضرورة ايمانية، لأنه يجعلنا واثقين من سلامة طريقنا. قال الله تعالى: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ**﴾(الحجرات/٧)

خامساً: العلم بحقيقة الدنيا

وقد أمر الله تعالى بالعلم بحقيقة الدنيا وما فيها من تحولات، إذ قال الله تعالى: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الاَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَراً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الأَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَآ إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾(الحديد/٢٠)

سادساً: العلم بالأحكام

والتفقه في الدين، والعلم بالأحكام، والسؤال من أهل الذكر لمعرفتها ضرورة، ويعتبر من أنفع المعارف. قال الله تعالى: ﴿**فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُم لاَ تَعْلَمُونَ**﴾(النحل/٤٣)

هذه أهم المحاور التي نجد علمها ضرورياً وفي مقابل هذا العلم يقع الاهتمام بالسحر والشعوذة وادعاء الغيب وادعاء النبوة بالباطل والافتراء على الله سبحانه إن كل أولئك من اشد المحرمات.

مصادر العلم

١/ العقل وموهبة العلم

لقد أودع الله قلب البشر نور العلم، وعلّمه بالتعلم (بالبينات وبالقلم) كما علّمه بالإستفتاء والسؤال وبالإستنباط (والتفقه)، وهداه الى الحقائق بنور العقل

عبر تذكيره بآياته في خلقه ليتعلم ما ينفعه. ولكن هذا العقل يحاط بحجب الظلام ومن دون اختراقها لا تتم المعرفة.

٢/ ضرورة اختراق حجب العلم

إن القلب المحاط بالخوف والشهوات ، كيف ينفذ اليه ضياء المعرفة؟ من هنا فمن يخشى الناس لا يسعى نحو معرفة الحق ، خشية أن يخالف ما عليه أكثر الناس؛ والقلب الزائغ الذي تحيط به شهوات الهوى ، لا يرى الحقائق، لأنه إنما يسعى لتحقيق ما يصبو إليه من الرغبات الجامحة .

وكذلك من يتبع سبيل الجاهلين لا يدرك غايته ، كالذي يبغي في الأرض بغير حق ، إنه يتردد في ظلام ظلمه، فأنى له العيش في بحبوحة النور ؟

والقاعدون عن الجهاد يبررون خذلانهم ، ويخدعون انفسهم بأفكار سلبية تصبح حجباً كثيفة أمام ضوء عقولهم فلا يبصرون الحق ؛ كالذين يجادلون في الحق بعدما جاءهم بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير. إنهم يدورون في ظلام تقاليدهم وضلالات آبائهم .

ومن استغنى بظاهر الأمور ، خفيت عليه حقائقها ؛ كمن يفتري على الله الكذب ، إنه يطبع على قلبه ويضله الله تعالى كالمنافق أو المستكبر . نعوذ بالله من كل هذه الحجب التي تمنع نور العلم ، وتكرس الظلام والضلال ؛ والله المستعان .

٣/ تحدي غرور العلم

جهل البشر - كما ضعفه وفقره - انما هو من ذاته ، وغروره بالعلم نابع من جهله . ذلك أن علم الانسان بأنه جاهل، درجة من المعرفة . أرأيت لو كنت قد نسيت شيئاً ، ولكنك كنت تتذكر أنك نسيت، فإنك عالم بنسبة معنية . أما لو نسيته نسياً منسياً ، فلم تتذكر أنك قد نسيت شيئاً ، فإن نسيانك أشد من ذلك .

الجاهل ، العالم بجهله ، أخف ضرراً من الجاهل به، المغرور بالعلم . ومن أجل كسر طوق الجهل عن قلب الانسان ، لابد أن يذكر أولاً بأنه جاهل ، حتى يبحث عن العلم . وفيما يلي نتلو معاً ما نستفيد من الآيات التي تذكر بجهل البشر في الأبعاد المختلفة.

أولاً/ الجهل (والغرور) هو فقدان العلم بالخالق، ومنه ينشأ الشرك به، وعبادة الأنداد، والافتراء عليه.

ثانياً/ الجهل بالآخرة ، متى تقع الساعة وكيف ، وأساساً هل هناك دار بعد هذه الحياة ؟ كل تلك أسئلة حائرة عند البشر (إلا من هداه الله) ، ومن ذلك الجهل بالمفارقات بين الدنيا والآخرة .

ثالثاً/ الجهل بسنن الله في خلقه ، كسنة المسؤولية والجزاء ، وسنة الزوجية في كل شيء .

رابعاً/ الجهل بالوحي وقدرة الله على انزال الآيات ، كالجهل بالملأ الأعلى .

خامساً/ الجهل بالغيب (الذي لا يعلمه إلا الله) .

سادساً/ الجهل بكثير من حوادث التاريخ .

سابعاً/ الجهل بالنفس (وعدم معرفة سفاهتها) .

ثامناً/ الجهل بالكتاب (واتخاذه أماني وظنون) .

تاسعاً/ الجهل بحدود الله (التي أنزلها في كتابه) .

عاشراً/ الجهل بالعدو .

ومن الغرور الكبر والتحزب ، ومنه الاتكال على المال والاغترار بالعلم . وسوف يتحطم المغرور على صخرة الحقيقة عندما يواجهه عذاب الله . وهنالك سيعلم الكفار لمن عقبى الدار ، كما ان الظالمين سيعلمون أي منقلب ينقلبون . ومن صفات المغرور ، انه يجادل بغير علم ، ويضل بهواه .

مناهج العلم

الآيات التي توحي بالمناهج السليمة لتلقي المعرفة كثيرة ، ونستطيع أن نتلوها في هذا الحقل عبر كافة الفصول تقريباً. فمعرفة العلم ، ووعي الجهل ، واكتشاف الحجب التي تمنعه ومنهج تجاوزها، وآيات العلم وعلامات العلماء، والتعرف على الحجة العلمية وفائدة العلم ومسؤولية العلماء توحي بمناهج عظيمة الفائدة في حقل العلم والتعلم.

ولكننا هنا نذكر ما لم نذكره في سائر الحقول من المناهج المستوحاة من الآيات الكريمة .

أولاً/عدم التكذيب بما لم يحط الفرد علماً به، فان التكذيب المسبق يجعل الحصول على العلم صعباً ، بل ومحالاً.

ثانياً/ التقيد بالعلم ، وعدم التحرك ولا خطوة واحدة من دون العلم .

ثالثاً/ التسليم للعلم ، وعدم التمرد عليه .

رابعاً/ الأناة ، وعدم العجلة أوالتسرع .

خامساً/ تطهير القلب من الزيغ .

سادساً/ عدم اتباع الجاهل أو طاعته .

حجة العلم

نستفيد من الآيات القرآنية ؛ إن على البشر اتباع العلم والسعي وراءه في أمور دينه ودنياه . فالايمان بالله سبحانه واسمائه الحسنى ، وأنه يعلم ما في السماء والأرض ، وأن وعده حق ، وأنه لا سمي له سبحانه ؛ كل ذلك محاور العلم الضروري . كما أن دين الله يجب ان يكون مصوناً عن الجهل ، فلا يجوز القول على الله بما لا يعلم.

وتطبيق دين الله وأحكامه على الناس يجب أن يتبع منهج العلم؛ فالعلم بالصادق والكاذب ، والعلم بالآباء ومعرفة النساء المهاجرات بعد امتحانهن ؛ كل ذلك من موارد تطبيق الأحكام بمنهج علمي .

وكذلك الاحتجاج في الدين ينبغي أن يكون بعلم، (وعدم الاحتجاج فيما لا علم للمرء به) . ولا ينبغي الجدل في قضاء الله ، لأنه لا علم للمخلوق فيه . وعلى الانسان ألا يخضع للعواطف الشخصية في مقابل العلم ، مثل كراهية القتال الذي قد يكون خيراً له .

وإذا اعوز الانسان العلم ، فما يمنعه من السؤال من أهل الذكر (العارفين بالبينات والزبر) ؟

والاعتراف بالجهل وسيلة التعلم والسؤال . وقد ذكر الكتاب بني آدم بأنهم لا يعلمون عن الله ما يعلمه الأنبياء، وأنهم لا يعلمون فيم يمكن أن ينشأهم ربهم بعد أن يبدل أمثالهم . وأنهم لا يعلمون حقائـق العلاقات بين الزوجين ، كما لا يعلمون فوائد القتال وكيف انه قد يكون خيـراً بالرغم من كراهة البشر له كما لا يعلم المسلمون كل اعدائهم . (وهكذا ينبغي أن يعترف الانسان بجهله حتى يتعلم) .

والعلم قيمة الاتباع ، فلا اتباع لمن لا علم له ولا هدى، حتى ولو كان أحد والديك أو من آبائك السابقين . وإذا جاهدك والداك على أن تشرك بالله سبحانه (شركاً عملياً باتباع من لا تملك برهاناً على أن الله أمرك باتباعه) فلا يجوز اطاعتهما .

وهكذا يرفض المؤمن ضغط المجتمع الجاهلي الذي يدعوه الى اتباع من لا يعلم أن الله تعالى أذن باتباعه، (فيكون اتباعه من دون سلطان من عند الله تعالى شركاً) .

والعلم مسؤولية ، وعلى الانسان أن يتبع علمه الذي يدله على أحكام دينه . فلا يجوز أكل أموال الناس بالإثم وهو يعلم، ولا يجوز خيانة الأمانة وهو يعلم، ولا يجوز أن يجعل لله أنداداً وهو يعلم ، ولا أن يلبس الحق بالباطل وهو يعلم ، ولا أن يقول على الله الكذب وهو يعلم .

فائدة العلم

وعي آيات الله في خلقه، وآياته في كتابه ، وسننه في عباده ، وحدود شرعه .. وأنها جميعاً قد صرفت وفصلت لقوم يعلمون، كل ذلك من فوائد العلم .

ومن فوائده ، وعي الأمثال التي يضربها ربنا سبحانه ، والنجاة من فوائد العلم ، كما أن الخشية من الله ميراث العلم، وأن الله قد رفع العلماء وفضلهم ، وقد سخر الله الطبيعة للعلماء.

حق العلم

العلم - كأية نعمة إلهية - أمانة ؛ والأمانة تفرض جملة واجبات :

الأول : ذكر الله وشكره ، والعلم باسمائه الحسنى ، والسجود له (بخوعاً وخضوعاً) .

الثاني : السؤال عند الجهل ، وعدم الاعتراض على العالم إذا جهل الانسان شيئاً .

الثالث : اسداء الخدمة للجاهل .

الرابع : الايمان (والتصديق) بما علم (بالشهادة عليه والانتماء إليه) .

الخامس : تحمل العلم (والعمل به) والاستقامة على الحق ، برغم اختلاف الناس فيه، وتجنب الهوى (الذي يتجه ضد العلم وهداه) .

السادس : الشـهادة بالعلم ، وتجنب كتمانه ، (بل الانباء به عند الحاجة) والجدال به (عند الحاجة).

ضياء العلم

النظر إلى نعم الله

النظر بداية المسيرة العلمية عند البشر ، وهي مطية التجربة ، وأمر القرآن به في ثلاثة أبعاد؛ النظر في مظاهر الحياة ، وفي ملكوت السماوات والأرض ، وفي سنن الأولين (وهذه الثلاث هي؛ آفاق التجربة الأساسية، علم الحياة ، وعلم الطبيعة ، والعلوم الانسانية) .

وأسمى أهداف النظر الوعي والحكمة ، فاذا عرفت كيف خلق اللـه السماوات والأرض وكيف بدء الخلق، عرفت لماذا خلقت ، وكيف انتهت حياة الغابرين عندما ضلوا عن السبيل .

والطبيعة مدرسة الحياة الأولى ، بينما التاريخ وآثار الأولين هي المدرسة الحضارية التي تراكمت فيها تجارب البشر.

أهم غاية يسعى إليها البشر عندما يبنـي حضارته هي، كيف يقي نفسه من الهلاك ، ولكنه يضل الطريق فيظن أنه عبر المزيد من القوة يحافظ على كيانه ، بينما القوة لا تنفع المجرمين .

و خمس بصائر أساسية نستوحيها من قصص الأمم الغابرة التي يخبرنا عنهم كتاب الله تعالى؛ أولاً: مدى قوة الامم. ثانياً : أنهم أثاروا الأرض فعمروها بالزراعة والبناء. ثالثاً : أنهم كانوا مذنبين. رابعاً : أن قوتهم الظاهرة التي زعموا أنها تمنعهم من عاقبة ذنوبهم، أنها لم تحفظهم من أمر الله لما جاءهم. خامسا : إن عقبى كل كافر ذات المصير .

التكذيب والاستهزاء بالنذر والحقائق التي ذكروا بها ثم الشرك والتسليم للطغاة ، وبالتالي الجريمـة واكتساب الذنوب ، هذه كانت طائفة من الضلالات التي دمر اللـه بها حضارة الأولين .

النظر المطلوب هو الذي يهدف النفاذ الى عمق التاريخ ، حيث السنن الالهية الجارية في المجتمعات، والذي يستخدم الوسائل التالية :

ألف/ السير في الأرض للبحث عن آثار الغابرين فيها .

باء/ النظر في الآثار لمعرفة نهايات الأمم.

جيم/ التأمل العقلي لمعرفة أسباب دمارهم.

السماع

١/ قلب البشر محاط بالغفلة والنسيان ، وبالتذكرة يتبصر . والسماع وسيلة التذكرة، وفي الأرض آيات مبصرات يلهو عنهـا القلب وإنما بالذكرى ينتبه إليها ، والسماع طريق الذكرى .

٢/ السماع والاستماع والاستجابة والطاعة هي مراحل التذكرة ، وإنما تتحقق فائدة السماع حقا بطي كل هذه المراحل ، ومن دون التذكرة بالسماع فلا سماع .

٣/ والتذكر بالسماع لا يتم من دون العقل والايمان ، والتسليم ، والشهادة (تحمل المسؤوليــة) .

٤/ حجب السماع، لهو القلب وغفلته ، وانشغاله بالدنيا (اللعب) ، الإعراض والتحدي ، الاصرار والاستكبار ، ختم اللـه على القلب (بسبب التكذيب أو الذنوب) .

الإستجابة

١/ الإستجابة من قيم الهدى ، وتأتي بعد السماع ، وحقيقتها تجاوز الغفلة ، وتحدي كبر الذات ، من أجل قبول دعوة الرسول .

٢/ والإستجابة ايمان وتسليم ، والتزام بما فرض الله من اقامة الصلاة ، وتحكيم الشورى، والانفاق مما رزق اللـه ، والانتصار ضد البغي .

٣/ والاستجابة تعني الحياة، لأن دعوة الرسول إنما هي الى ما يحيي البشر (قلبه بالهدى ، وعيشه بالفلاح ، وآخرته بالفوز). وأبرز القيم الحياتية طاعة الله وطاعة الرسول (وأولي الأمر)، وإنما الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم الذين يستجيبون للولاية .

٤/ وعاقبة الذين يستجيبون هي المغفرة والرشاد والأجر العظيم .

٥/ أما الذين لا يستجيبون ، فإنما ذلك اتباعاً لهواهم ، وعاقبتهم العذاب الذي لا يستطيع له رداً (ولو افتدى ما في الأرض جميعاً)، وأنه لا يعجز اللـه شيئاً .

الاستذكار

التذكرة إثارة الفطرة من الغفلة ، ولأن اللـه تعالى قد فطر الناس على معرفته ، وأودع في القلب نوراً يهتدي به الانسان الى الحقائق ، فإن الرسل بعثوا ليذكروه بها .

وآيات اللـه فـي الكتاب ، والتـي تثير قلب البشر الى آيات اللـه فـي الكائنات هي وسائل تذكرة البشر .

ويضرب اللـه الأمثال للذكرى ، وينبه البشر الى مدى التمايز بين الأعمى والأصم ، وبين البصير والسميع (مثلا) كما يذكره بما ذرء في الأرض ، واختلاف ألوانه ، وأنه له ما في السماوات والأرض (فهو الحاكم فيهما)، وأنه قدر الموت بين البشر، وأنه

قادر على ان يبدل أمثالهم، وأنه وسع كل شيء علماً، وأنه لا شفيع إلا من بعد إذنه فلابد أن تخلص العبادة له، وانه لا يجير منه أحد، وأنه الهادي لا هادي سواه، كل تلك الاثارات تذكرة وأن عمر البشر في الدنيا يكفيه فرصة للتذكرة، وأنه يأتيه النذير .

وكما حقيقة التوحيد (وجملة المعارف الالهية) كذلك أصول الشريعة مودعة في فطرة البشر وعقله ، فمن عرف اللـه بأسمائه الحسنى عرف تلك الأصول، وأن الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، وألاّ يقرب أحد مال اليتيم إلاّ باللتي هي أحسن، كما يأمر بالقسط في المكيال والميزان ، والعدل في القول ، والوفاء بالعهد ، وهكذا سائر بصائر الكتاب وآياته وبيناته ذكرى لمن تذكر .

وأولوا الألباب هم الذين يستفيدون من التذكرة، لأنهم يثيرون كوامن عقولهم بآيات الله، ولذلك فان التفكر هو مفتاح التذكر.

وللتذكرة شروط أهمها توفيق اللـه والتقوى ، وخشية الله ، وأن تكون للانسان أذن واعية فيريد التذكرة بها، وألا تكون لديه مواقف مسبقة من التذكرة، وأن يكون مستعداً للشهادة على الحق . والمذكر يختار الذين يخافون وعيد اللـه لابلاغهم ، ويترك الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا. وعاقبة الذين ينسون ما ذكروا به الاستدراج، ثم يأخذهم اللـه بغتة فاذا هم مبلسون .

التفكر

بالتفكر يثير الانسان ركائزه العقلية ، ويقلب خزائن معلوماته ، ويكمل بعضها ببعض ، وكل آيات اللـه في خلقه تستدعي التفكر لنطل على الغيب من نافذة الشهود .

وقد اوصانا ربنا بالتفكر في خلق السموات والارض وما فيها من آيات الصنع والتقدير، لنعرف ربنا وأسماءه الحسنى، وأنه ما خلق الخلق باطلا ، وأنه لن يتركهم سدى ، ولنعرف عظيم نعمه علينا ؛ كيف سخر لنا ما في الأرض، وكيف أوحى الى النحل يسقينا من بطونها شرابا فيه شفاء ، وكيف جعل من أزواجنا سكنا لنا ، وكيف قدر بين النوم والموت ..

وأمرنا بأن نتفكر في الرسول ، وأنه لن يكون إلا نذيراً ، ونتفكر في آيات الكتاب ، وأنها لو نزلت على الجبال لتصدعت .

وأوصانا بالتفكر في الحياة الدنيا ، وأنها زائلة ، وكيف يهدينا الفكر الى حياة بعدها لن تزول ، فنعمل لها . وضرب لنا أمثلة من الاخلاص في الصدقات ، ومن عالِمٍ انسلخ من علمه فاتبعه الشيطان ، ومن حرمة الخمر والميسر ، ثم أمرنا بالتفكر حتى تنفذ بصيرتنا الى هذه الوصايا والأحكام السلوكية .

التبصر

من أهم خصائص المؤمنين أنهم على بصيرة من أمرهم وأنهم يعلنون عن ذلك للناس ، والسبيل الى ذلك رفع غشاوة الشيطان والتذكر .

والانسان - أنى كان - قد أوتي بصيرة بنفسه، ولعله قادر على أن يطور هذه البصيرة حتى ينظر الى العالم من خلالها، ولعل التسليم لأمر اللـه والايمان باللـه هو وسيلة التبصر.

العبرة والإعتبار

الإعتبار نقلة فكرية من معلومة بينة الى حقيقة كانت مجهولة؛ فمن أبصر ظاهرة وجمـد عليها فهو كمن لم يبصرها لأنه لم يعتبر بها ، انما الذي فكر فيها وعبر منها الى غيرها كان مبصراً ومعتبراً .

وأولوا الألباب هم الذين يفكرون في الظواهر الكونية وما وراءَها من سنن وآيات ، ويتفكرون في الحوادث التاريخية ، ويعتبرون بقصص الماضين ، وكيف جرت فيهم سنة الله في نصر عباده وتدمير بناء الظالمين .

والحوادث التي تقع في حياتنا تحمل العبر الكثيرة ، من هزيمة ظالم أوكافر ، وانتصار مظلوم أو مستضعف ، ومن دمار المجرمين .

والخشية وصفاء القلب والتفكر شروط العبرة التي فيها علم مستحدث، وعزيمة جديدة ، وبصيرة نافذة .

الحذر

الحذر؛ هو التحفظ من الخطر، واول الحذر الخشية من اللـه واتقاء غضبه، (بالورع والاجتهاد). والتهجد بالليل خشية الآخرة، ورجاء رحمة اللـه من مصاديق الحذر. ومن مصاديق الحذر اتقاء الفتنة الآتية من وساوس كل شيطان من الجن او الانس ، فقد يأتيك الشيطان عن طريق كافر أو منافق ، أو حتى عن طريق زوجتك وأبنائك أو أقرب أخلائك ، فلا تغفل .

ومن أبرز مسؤوليات الفقهاء تحذير الناس من عذاب اللـه تعالى . ولكي تكون حذراً من الفتن ، عليك أن تجعل خط الرسول وأهل بيته والتابعين لهم معياراً فتستجيب لدعواتهم .

وينبغي الحذر من العدو والانتباه الى حركاتهم وعدم الغفلة عنهم . وهكذا يتمتع المؤمن بنشاط ذهني دائب ، فلا يغفل ولا يهمل ولا يسترسل ، وإنما هو فطن حذر متيقظ .

الرشد

إذا بلغ الطفل النكاح فقد اكتمل جسمه ونال الرشد البدني، وإذا عرف ما ينفعه أو يضره ، وما هو حسن أو قبيح عقلاً وعرفاً وعرف كيف يدير شؤونه الاجتماعية (من بيع وشراء مثلاً) فقد اكتملت قدراته العقلية ، ونال الرشد الطبيعي، وإذا عرف كيف يعيش حميداً بحكمة وسداد فقد اكتملت مروءته ، وبلغ الرشد الأخلاقي (الايماني). فللرشد معاني ثلاثة ..

وهكذا الرشد ضد الصغر ، وضد الغي ، كما أنه يقابل السفه .

وأساس الرشد الأخلاقي الايمان بالله، والاستجابة للرسول والوحي والتسليم له، ولمن أمر بالتسليم له واتباعه، وان يطهر القلب من الحميات الجاهلية، ويعتمر بحب الايمان، وبكراهية الكفر والفسوق والعصيان.

والرشد من عند اللـه ، وينمو بالذكر ، وتطهير القلب من الكبر ، وقبول الحق ، وقبول كل آية من آيات الله (وعدم الاعراض عنها) واتباع الصالحين .

تثبيت الفؤاد بالقرآن

من قيم الهدى الثبات ، ولغوياً يكون الثبات عن المحو وعن التحول وعن التزلزل ، ويثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ، والكلمة الطيبة التي هي عيبة الايمان ، وخزانة المعرفة. وكذلك يثبتهم الله بالنصر على اعدائهم وينزل الملائكة ليربط بهم على قلوبهم .

وهناك جملة حقائق يثبت اللـه تعالى من أجلها قلوب المؤمنين، وهي الاستغفار، وتلقي الوحي على مكث، والانتصار لله ولدينه القويم ، والتضرع الى اللـه (بالثبات وعدم الزيغ)، وانفاق المال ، وطاعة الرسول في ساعة العسرة أو في الواجبات المستصعبة ، والوفاء بالمواثيق .

ومن عوامل التزلزل؛ الذنوب، وبالذات خطيئة نقض الميثاق، والاستعلاء (بعض المؤمنين على بعضهم)، ومعصية الرسول.

وضوح الرؤية (البصيرة)

البصيرة قيمة إيمانية ، وتعني مشاهدة الحق واتباعه، وعدم اتباع الأهواء، والسبيل إليها تطهير القلب من الوساوس ، واختراق حجب الشهوات والعصبيات .

وقد أعطى الله الانسان بصيرة بنفسه لتكون حجة عليه، حيث يميز بين الأعذار الباطلة والصحيحة التي يلقيها.

ومن أعظم فوائد البصيرة الالهية هذه ، قدرة التمييز بين الدين الفطري الذي يدعو الى اللـه والقيم الحق ، وبين الدين المصطنع الذي يختلقه البعض ليخدم أهدافه ومصالحه. وهكذا فإن من يفعل ذلك يعلم أنه إنما يتبع باطلاً وليس دين اللـه الحق .

الاستبشار بآيات الله

من علامات حب المؤمن لله ولكتابه المبين وعطشه الى زيادة اليقين ، أنه يستبشر بالقرآن ، وتلك قيمة إيمانية، الفرح بما آتاه اللـه من نعم .

الكافر والمنافق يخشى أن تنزل سورة أو آية تخالف مصالحه وأهواءه ، فهو لا يفرح بنعمة الوحي، أما المؤمن فقد تجاوز ذاته ، وبلغ درجة كافية من التسليم للحق يجعله يفرح بكل ما ينزل من عند ربه .

التعقل

تحمل آيات الذكر من يشاء الى آفاق الحقائق حتى يشاهدها، ويشعر ببرد اليقين بها في قلبه. وهكذا حين تذكرنا الآيات بالعقل تصفه بعلاماته ، وصفات من يعقل أولا يعقل، حتى يكتشف العقل نفسه ، إذ النور يدل على ذاته بذاته بعد تذكرة الوحي به ، وذلك لمن يشاء أن يَذَّكَّر دون أن يماري في الحقيقة .

فالعاقل الذي يستمع القول فيتبع أحسنه ، بينما غير العاقل الذي لا يستمع بل لا يسمع وكأنه الصم البكم ، واذا دعي الى الحق اتخذه هزواً ، وتراه يردد ما يقوله الآخرون دون انتخاب أحسنه ، ويقتحم فيما يهلكه ، وينكر ما يعرفه العقلاء ، ولا يضع الناس مواضعهم، ولا يحترم قيادته الإلهية ، ولا يعرف صديقه من عدوه ، فترى بأسه شديد ضد جماعته ، ويتلو الكتاب ويأمر به ثم يخالفه الى غيره ، ويختلق ديناً ثم يفتريه على ربه ، ويعبد من دون الله ما لا ينفعه ولا يضره .

والعاقل يتذكر ويعلم إن ما أنزل من الوحي هو من عند اللـه تعالى ويوفي بالميثاق ، ويدرء بالحسنة السيئة ، ويعرف قيمة الحكمة الإلهية، ويتذكر بها ، ويسلم لما نزل من الوحي محكمه ومتشابهه، ويعرف قيمة العلم والعلماء ، ويعرف قيمة الكتاب وأهله، فتراه يتذكر بآيات القرآن بعد التدبر فيها .

أما الذين لا يعقلون فانهم شر الدواب ، لأنهم يقولون سمعنا وهم لا يسمعون ، ويتخذون أهواءهم آلهتهم ، فهم كالانعام وأضل سبيلاً، ويعترفون بأن اللـه هو الذي أنزل من السماء ماءً وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ، ثم يكفرون، وترى بعضهم يسمع كلام اللـه ثم يحرفه .

وإنما ذكر الوحي بالآيات لقوم يعقلون ، فهم ينتفعون بآية الشمس ويهتدون بها الى ربهم ، وبآية الدورة الحياتية للنبات وما أسبغ اللـه بها على الانسان من نعم، وإذا مروا بآية في الأرض مثل آثار القرى الظالمة التي دمرت اعتبروا بها أو إذا ركبوا البحار

وسارت بهم السفن في أمواجها تذكروا ربهم - قدرته ورحمته - ، وإذا نظروا الى آفاق السماوات وشاهدوا حركة الأفلاك استوعبوا حكمة الخلقة وأسرارها .

وقلب العاقل كما زيت صاف يتقد عندما يمسه نور الوحي، وأول ما يتذكر به التفكر في أطوار خلقه منذ أن كان نطفة في قرار مكين حتى أصبح شيخاً كبيراً، وبلغ أجله المسمى، وعرف أن تطورات حياته آية عبوديته لربه . ثم ينظر الى آيات اللـه في الارض كيف يحييها اللـه من بعد موتها، فيتقد مصباح عقله بتذكرة الوحي .

وحقائق الايمان هي محور تذكرة الوحي، ووعي العقل. فالتوحيد يذكر به القرآن؛ مثل: هل أنت ومن تملكه سواء فيما أعطاك الرب ؟ فكيف يكون اللـه الخالق ومن خلقه سواءاً في تدبير الكائنات ؟ والرسالة يستوعبها العقل من خلال تذكرة الوحي بأن الرسول لم ينطق خلال عمره السابق بالقرآن ، وأنه لا يطالبهم بأجر فكيف لا يكون رسولاً؟ والايمان بالآخرة يعقله المرء من خلال تأمله في الدنيا التي ليست هي إلاّ لهو ولعب ، فكيف تكون هي الغاية؟ وهكذا يثير الوحي ذخائر العقل حتى يشهد الحقائق الايمانية شهود عيان .

ولله في خلقه سنن جارية يعرفها العقل بالنظر في تاريخ الغابرين، وإنما يذكر الوحي عقل البشر بما مضى من تاريخهم ، ويذكر القرآن بقصة الذين أضلهم الشيطان ويحذرهم من عبادته ، وينبه العقول بمدى عداوته للانسان.

إنما أصول الشريعة مرتكزات عقلية، والوحي يستنطق البشر فيها، فكلما بَيَّنَ حكمة أو أمر بوصية نبه الانسان الى عقله. فقد حذر الوحي عن الشرك، وقتل الأولاد ، والفواحش ، وقتل النفس التي حرم الله، كما أمر ببر الوالدين ، ثم ختمه بقوله تعالى : **﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾** (الانعام / ١٥١) .

وأمر اللـه بجملة وصايا فيما يتصل بالعلاقات الأسرية والاجتماعية، ثم ختم الكلام بقوله تعالى:**﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾** (النور /٦١) .

وهكذا كان من حكم الوحي تنمية العقل . والتقوى ميراث العقل ، وأمر الرب تعالى بها أولي الألباب، لأنهم يعقلون. ومن هنا كانت حسرة أهل النار أنهم ما كانوا يعقلون،

وكان الجهل سبب ضلالة الكفار بسبب اتباعهم الآباء ، وكان الرجس (واللعنة) من نصيب الذين لا يعقلون .

الحكمة

جملة القيم التي ينتظم بها الحكم الصحيح (والقضاء العدل)، هي الحكمة، وهي توحيد اللـه ، وبناء الأسرة، والاقتصاد في المعيشة ، وحرمة القتل والزنا وشريعة القصاص ، وحرمة المال ، واحترام العهد ، والقسط في الميزان، والامانة العلمية ، وحرمة العلو في الارض .

ومنها أداء حقوق الوالدين ، والاحساس بالمسؤولية، وإقامة الصلاة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والصبر في الصعاب ، وعدم التعرض للناس واستعدائهم ، والقصد في المشي .

واذا كان الكتاب جملة الحقائق والبصائر، فإن الحكمة هي فقه الكتاب، وتعقله ومعرفته، بحيث يصدر الأحكام الصحيحة منه ، وبحيث ينظم العيش على أساسه ، ويدبر متغيرات الحياة وفق تعاليمه .

وقد فسرت السنة الشريفة الحكمة بأنها مخالفة للهوى، وأنها أجزل حظوظ العقل، وأنها الفهم والعقل، وأنها ضياء المعرفة وميراث التقوى وثمرة الصدق ، وفي حديث إن الحكماء من الأنبياء والأوصياء .

التوسم

التوسم أن تلتقط عينك وبصيرتك آيات الحقيقة التي تخفى على الآخرين ، وذلك بخرق حجب الهوى والعصبية ، والنظر في الأمور بنور اللـه الذي تزيده االتقوى وتجليه بصائر الوحي .

تكاملية الشريعة

تكاملية الشريعة تدعونا الى منهجية تكاملية ، لا تحذف شيئاً لحساب شيء آخر ، بل تبحث عن مجال كل شيء بقدر حقه ومصدر تكاملية الشريعة :

ألف/ إنها تدعو الى خير الدنيا والآخرة .

باء / إنها تثير كل مصادر المعرفة عند البشر من الفطرة والعقل والوحي .

جيم / تقيم كل شيء على أساس الحق؛ فالدنيا تعطى حقها، وللآخرة النصيب الآخر .

دال / يتطلع المؤمنون الى خير الدنيا والآخرة ، ويعطي الاسلام الانسان القوة الكافية لتحقيق السعادة في كل الحقول باذن اللـه تعالى .

هاء / وهو دين متين قد حذفت عنه الزوائد، التي اختلقتها النفوس المريضة او اقتضتها الظروف الخاصة.

الإسلام

الإسلام هو التسليم لله وحده ، وهو دين الله من قبل ومن بعد ، وهو الحنفية البيضاء التي لا شرك فيها ، وهو فوق العصبيات الدينية والعرقية وكل الحميات الجاهلية ، وهو الشهادة على الناس (والتي ذروتها الجهاد في سبيل الله) .

والأنبياء أسلموا لله (فنالوا درجة الشهادة على سائر الناس)، والإسلام دين الفطرة البشرية التي لا تبديل لخلق اللـه فيها ، وهو الدين القيم الذي لا يقبل اللـه غيره .

الكتاب السماوي

كتاب اللـه أعظم ينبوع للمعرفة ، وهو حق لا ريب فيه، لأنه كتاب حق ينطق عن آيات اللـه في الخليقة، فهو عنوانها ودليلها . والذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه منزل من اللـه بالحق ، ففيه من تجليات نور الرب ما يجعل بعض الناس يبصرون حقيقة نزوله من عند اللـه. وبه يطهر اللـه النفس من حجبها ومن شكها وريبها ، ويثير العقل ودفائنه ، حتى تلامس النفس الحقيقة بنور اللـه (العقل، والكتاب). ويسلك العقل الى السنن الحق سبيل القصص والأمثال، فإذا به يهتدي الى الحق ، فيكون الكتاب لذوي العقول هدى ورحمة .

وصفات الكتاب انه مبين يعرب بوضوح عن الحقائق، وأنه مبارك ينمي مواهب البشر الروحية والجسمية وفي كل أفق، وأنه يصدق الكتب الإلهية السابقة، وأنه نور ينجي البشر من ظلمة كبره وغروره ، ومن ظلمة غفلته ونسيانه ، ومن ظلمة جهله وعناده ، ويشفي غفلته بالتذكرة ، وجهله بالتبصرة ، وحميته بالتزكية .

وبالانصات والاستماع ثم الدراسة والتدبر، ثم أخذ ما فيه بقوة وحزم، وانتخاب أحسن ما فيه، ثم استحفاظه والشهادة به ، بكل ذلك يؤدي المؤمن بعض حق الكتاب عليه .

وهناك من يحرف كتاب ربه؛ إما بتفسيره وتحريف مواضعه، وإما بلوي اللسان به حتى يحسب الناس أنه من كتاب الله وما هو من كتاب الله، وإما بكتابة نص ونسبته الى الله افتراء عليه ، وإما بجعله عضين والايمان ببعضه والكفر بالبعض الآخر. وأياً كان التحريف، فانه يتسبب في قسوة القلب بالخزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب .

القرآن شفاء القلوب

لكي يستشفي المسلم بالقرآن، فيكون رحمة له، فعليه أن يحذر الظلم (قليله وكثيره، ظاهره وباطنه). فالظلم حجاب بينه وبين روح الكتاب المبين .

والتسليم للقرآن (محكمه ومتشابه، تفسيره وتأويله، ظاهره وباطنه) ومعرفة أنه من عند الله سبحانه، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، كل ذلك شرط الانتفاع بالقرآن من قبل المجتمع (حيث يفصلون به ما اختلفوا به ، ويرجعون إليه فيما أشتبه عليهم من أمر ، وينشطون به ارادتهم لمواجهة الأخطاء والمشاكل). وهكذا القرآن الحكيم هدى من الضلالة، وشفاء من الحجب التي تمنع شعاع العلم عن القلب .

ميثاق العلم

الأمر بالمعروف

فطرة الانسان قد انطوت على القيم المثلى التي لا يختلف البشر في أصولها العامة، وهي الميزان الذي يتحاكمون إليها ، وهي - أيضا - حجة الله على خلقه؛ أسودهم وأبيضهم، عالمهم وجاهلهم ، وهي - بالتالي - محور احكام الشريعة الغراء. وهكذا المعروف هو الذي يتقبله ويستجيب له الانسان بفطرته السليمة، وهو الذي تتفق عليه - عادة - مصلحة الناس جميعاً (لا مصالح طائفة أو فرد منهم فقط) .

وقد جاءت هذه الكلمة بمشتقاتها المختلفة (عرف - معروف - أعراف) بصورة مكررة وفي سياقات مختلفة في سور القرآن ، لكي تهدينا الى تلك الحقيقة الواحدة ، وهي الفطرة البشرية النقية التي هي الدين القيم ، وهي فطرة الله التي فطر الناس عليها جميعاً .

والمعروف محور أحكام الشريعة الغراء؛ فالعلاقة الزوجية (المعاشرة بالمعروف)، ورزق الأولاد بالمعروف، والوصية للوالدين والأقربين بالمعروف ، والأكل من مال القاصر بالمعروف .

والأمر بالمعروف من أبرز سمات الأمة الاسلامية كما النهي عن المنكر ، أوليس المعروف هو محور تعاونهم وشعار حضارتهم وقاعدة بنيانهم ، فالأمر به يزيدهم تماسكاً وتعاوناً، ويعطي لحضارتهم دفعة جديدة ، ولبنيانهم قوة ومتانة .

بيان الحق وتفصيله

الفصل هو الإبانة ، وفصل الجنود عن المدينة أو العير ؛ ابتعادهما عنها ، والفصال هو الفطام (لأن الصبي يفصل عن محالب أمه)، والفصيل الفريق من الناس الذين يتميزون عن غيرهم (ويفصلون عنهم). وهكذا الله يفصل بين الناس يوم القيامة (ويفرق بين المحق والمبطل)، كما انه سبحانه يحكم بينهم في الدنيا بالفصل (ليعرف الحق واضحاً) ويوم القيامة يوم الفصل لأنه يوم إبانة الحق عن الباطل .

والقرآن قول فصل (لأنه يبين الحق عن الباطل) وقد فصل الله فيه ما حرّم على البشر (حتى تميز كاملاً عن الحلال)، وهكذا يفصل ربنا الآيات. وتفصيل القرآن قائم على علم ، وقد فصلت آيات الله في الخليقة لقوم يعلمون ، كما فصلت لهم آيات القرآن (مثلاً ان الله لم يحرم زينته لعباده ، وان العلاقة مع المشركين انما تتحول اذا تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة) . وكذلك فصلت آيات القرآن لقوم يذكرون (فأحد أركان العلم التذكر)، ولقوم يفقهون (الفقه درجة من درجات العلم)، ولقوم يتفكرون (والتفكر من دعائم المعرفة) .

وكما الفصل كذلك البيان (وهو - فيما يبدو - إبانة الحق وفصله عن الباطل)، فان الله تعالى يبين الآيات للناس لعلهم يتفكرون ولعلهم يعقلون. (فالتفكر كما العقل والهدى واليقين والتقوى والرجوع الى الله تعالى، كل ذلك من أهداف البيان في القرآن حسب الآيات) ، ومن يعقل ينتفع بالبيان ، بل البيان جاء لقوم يعقلون ولقوم يوقنون .

ونستفيد من كل ذلك بصيرتين :

الأولى/ إن فصل الحق عن الباطل (والحلال عن الحرام ، والهدى عن الضلال، وهكذا..) هدف من أهداف الكتاب .

الثانية/ علينا أيضاً أن نجتهد في سبيل تحقيق هذا الهدف بالتفكر والتذكر، لأن الذين يتذكرون ويتفكرون ويفقهون ويعقلون ويعلمون (وبالتالي يستفيدون من مواهب الله تعالى لهم من أسباب الوعي والفهم) هم الذين يتلقون تفصيل القرآن وبيانه. (فالقرآن إثارة للعقل، ووسيلة للتذكر والتفكر، وبيان لمن يعلم ويفقه، وبالتالي سبيل لسعي الانسان، ونور لحركته) .

والقرآن تفصيل الكتاب ، والله أنزل الكتاب مفصلاً وفيه تفصيل كل شيء ، وكل شيء فصله الله تفصيلاً (ولذلك فهو) لا ريب فيه، وما كان أن يفترى من دون الله .

وبالتدبر في هذه الحقيقة نتبصر بأن علينا أن نستنطق القرآن ، وأن نستبين به الحقائق ، ونجلي به قلوبنا من الغل واصر الحميات وأغلال الجاهلية، فإذا زكت القلوب ، وتفتحت البصائر ، واستثار العقل، وزهر مصباح العقل عرف البشر تفصيل كل شيء من الكتاب بتوفيق الله تعالى.

وقد أمر الله بالتبين في الأمر العسكري (وفي كل أمر)، وألا يقفو ما ليس به علم ، ويعي مسؤولية جوارحه (كل ذلك من أجل أن يحس البشر بالحاجة الى العلم ، وأنه من أشد ضرورات حياته، ومن أهم مسؤولياته) .

الشهادة على الحق

تنقسم وثيقة الشهادة الى شعبتين؛ الأولى عن الشهادة على الانسان بالحق ، الثانية عن شهادة الانسان على الحق. فالشهادة على الانسان تفرض مسؤولية الانسان ، وبالشهادة منه على الحق تنجز هذه المسؤولية. فالانسان مسؤول، ولكن لماذا ؟ لأنه محاط بالشهادة. فالله شاهد عليه وكفى بالله شاهداً وشهيداً ، والرسول شاهد عليه وشهيد ، والعلماء شهداء على الناس ، بل الانسان شاهد على نفسه منذ يوم الميثاق ، وهو يشهد على نفسه بالحق في الدنيا أحيانا وجوارحه تشهد عليه يوم القيامة . تلك هي أبعاد الشهادة على الانسان ، وتلك هي أبعاد المسؤولية أيضاً.

الصدق

الصدق حقيقة، والكذب واقع؛ ولكل منهما علائمهما، من عرفها عرف الصادق عن الكاذب؛ وتتعاكس هذه العلامات ، فمن لم يكن صادقاً فهو كاذب .

ألف/ علامة الصادق أنه يتحدى، بينما الكاذب لا يستجيب للتحدي. فقد كذب الكفار بالوحي، وتحداهم القرآن بأن يأتوا بما هو أهدى منه أو بمثله، أو حتى بإثارة من علم إن كانوا صادقين، واذا لم يستجيبوا لتلك التحديات تبين أنهم كانوا كاذبين .

وكذلك الملائكة حين تساءلوا عن حكمة خلق آدم، عرض عليهم الرب تعالى (أنواراً) وأمرهم بأن ينبئوا عن اسمائهم ، فاعترفوا بالقصور وسبحوا ربهم .

فليس الصدق ادعاء ولا تمنياً ، بل هو تعبير عن علم أو هدى، فمن لم يكن لديه من ذلك شيء فكيف يكون صادقاً .

باء / الصادق فعله دليل قوله ، فلما اقترح اليهود للتصديق بالرسالة آية معينة (قربان تأكله النار)، فضحهم الوحي بأنهم لم يؤمنوا من قبل بذات الآية الالهية المقترحة ، وكذبوا بالرسول الذي جاء بها . وعندما ادعى الأحبار أنهم أولياء الله، طالبهم الوحي بتمني الموت وبَيَّنَ أنهم أحرص الناس على حياة .

وهكذا المنافقون قعدوا وزعموا أن الشهداء لو أطاعوهم ما قتلوا ، فتحداهم الكتاب بأن يدفعوا عن أنفسهم الموت، وكذلك الكفار طالبهم الوحي أن يرجعوا أرواح الموتى إن كانوا غير مدينين ..

كذلك الصدق بحاجة الى برهان من فعل المتحدث، ولا يكفي التمني والادعاء .

جيم / والشهداء هم أيضاً برهان الصدق ، فمن عجز عن تقديم الشهداء على صدقه أنّى له الادعاء .

دال / وعلامة الصادق أنه يصدق بالحق لما تتوافر البينات، بينما الكاذب يعاجز؛ فمثلاً ترى الكفار يطالبون الرسل بأن يأتوا بآبائهم أو يأتيهم الله بعذاب أو يسقط كسفاً عليهم من السماء، فلما استجاب لهم الرب سبحانه بحكمته في بعض الآيات كفروا ، فقد كفرت ثمود بالناقة وآل فرعون كفروا بالعصى الذي صار ثعباناً .

هاء / والصدق صفة كما الكذب ، والصدق يتبع صفات الخير، بينما الكذب يتبع صفات الشر؛ فمن صدق في الميثاق والعهد والوعد ، وكان مدخله صدقاً ومخرجه صدقاً ، وكان له لسان صدق في الآخرين، فهو الصادق. وجزاء الصادقين مغفرة وأجر عظيم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً.

والصدِّيق هو الذي يؤمن بالله والرسل واليوم الآخر (وبالتالي يصدق بالحق كله) ، وقد كانت مريم صديقة إذ أحصنت فرجها وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ، وكان إبراهيم صِدّيقاً إذ عارض أباه وقومه في عبادتهم الأصنام ، ودعا أباه لاتباعه ليهديه صراطاً مستقيماً، وكذلك سمى القرآن يوسف وادريس صِدّيقاً، ولعل أبرز مافي الصدِّيق بعد التصديق الاخبات والصبر على الأذى الشديد في جنب الله، والله العالم .

التضليل

الكتمان

الكتمان هو حجب الحق متعمداً، وقد نهى الله النساء من كتمان ما في أرحامهن، وقد أخرج الله ما كانت بنو اسرائيل تكتمه من جريمة القتل التي وقعت بين صفوفهم. ومن الكتمان النفاق ، حيث يظهر المنافق غير ما يضمره ، ومنه ما يفعله البخلاء من كتمان فضل الله عليهم .

ومن سبل الكتمان تلبيس الحق بالباطل ، وكان ذلك من عادة بني اسرائيل ، كما كانوا يكتمون الحق بعد العلم وقد نهى الله تعالى أهل الكتاب من ذلك .

وقد أخذ الله ميثاق العلماء ببيان الكتاب، ونهاهم عن كتمانه، ولكن اهل الكتاب نبذوا ذلك الميثاق واشتروا به ثمنا قليلاً (بارضاء الطغاة والمترفين) .

ويجوز الكتمان لمصلحة دينية غالبة، ولكن يجب اظهار الحق عند اقتضاء مصلحة الرسالة كما فعل مؤمن آل فرعون .

وعقبى كتمان الحق لعنة الله، ولعنة اللاعنين. ويوم القيامة يود الذين كفروا بالله وعصوا الرسول (وكتموا الحق) لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً .

الخيانة

الخيانة؛ هي التقصير في أداء الحقوق، فحق العين الغض عما لا يجوز النظر اليه ، وخائنة الأعين هي التي تتلصص إليه، وهكذا لا يجوز مد العين الى أزواج الآخرين، وقد اعتصم الصديق يوسف عليه السلام من خيانة العزيز في زوجته. وحق بيت الزوجية صيانة السر، وقد خانت زوجتا النبيين الصالحين نوح ولوط عليهما السلام هذه الأمانة (فافشتا الرسالة) .

وأمانة الايمان أداء حق الله والرسول (وحقوق الناس) ، والخيانة من صفات الكفار والمنافقين. ولا يجوز الجدال عن الخائنين والمختانين، فالله سبحانه لا

يحب الخائنين، والله لا يهدي كيد الخائنين، (وبالتالي لا يفلح الخائن لا في الدنيا ولا في الاخرة).

الخداع

محاولة تضليل الآخرين عن نيته خداع ، وعلى المسلمين أن يحذروا الخداع بالتوكل على الله. والخداع صفة المنافقين ، الذين يخادعون الله والذين آمنوا، وما يخدعون إلاّ أنفسهم .

البهتان

من رمى بسيئة بريئاً فقد اتهمه ، ومن آذى مؤمنا بغير ما اكتسب فقد احتمل إثما مبيناً، ومن ارتكب خطيئة ثم رمى بها بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً.

وقد قالت اليهود في الصديقة مريم بهتاناً عظيماً (وكان ذلك بمثابة كفرهم)، كما اتهم المنافقون بعض زوجات النبي ببهتان عظيم. وكان من بنود البيعة مع النساء ألاّ يأتين ببهتان يفترينه من بين أيديهن وأرجلهن، كما نهى الله عن تهمة الرجل لزوجته ، وبالذات عند استبدالها بأخرى ليأخذ منها مهرها .

وعلى المؤمنين - إذا سمعوا التهمة - أن يظنوا ببعضهم خيراً ، ويقولوا هذا إفك مبين لولا جاءوا عليه بالشهداء. (وهكذا يواجهوا التهم والمتهمين بالرفض، حتى يأتوا بأدلة كافية) .

وإذا أفاض الناس في التهم، فانه يخشى أن يصيبهم عذاب عظيم، لأنه قول بغير علم، وأنهم ليحسبونه هينا وهو عند الله عظيم .

الافتراء على الله

الافتراء على الله أن يصف المرء شيئا بأنه حلال أو حرام (من دون سلطان من عند الله)، وأن يقول إنه أوحي إليه ولم يوح إليه شيء ، وأن يضل الناس بغير علم .

تزكية المرء نفسه افتراء على الله (أليس يدعي بذلك أنه مرضي عند ربه من دون حجة بالغة على ذلك؟) وكفى بذلك إثماً مبيناً.

وقد نهى الله تعالى أن تصف ألسنتنا الكذب، فنقول لشيء إنه حلال ولآخر أنه حرام ؛ افتراء على الله. كما حكم بالويل لمن يكتب الكتاب بيده ثم ينسبه الى الله ابتغاء ثمن قليل، فيكون له الويل بما كتب والويل بما كسب. ويكفي افتراء على الله أن يصف الانسان شيئاً بالحلية والحرمة من دون أن يأذن الله له بذلك. ولكي ينسب المرء شيئا الى ربه لابد ان يكون له سلطان (وحجة بالغة على ذلك).

وادعاء الوحي وادعاء القدرة على مجاراة الوحي افتراء، وإن الافتراء ظلم عظيم وجذره الاستكبار (وعدم التسليم لما أمر الله به أو لمن أمر الله بطاعته). وحتى (التفسير بالرأي) وإلواء اللسان بشيء لإيهام الناس أنه من عند الله .

وميثاق الله على بني اسرائيل (أهل الكتاب وحملته) ألاّ يقولوا على الله إلاّ الحق . والحجة الشرعية واحدة من ثلاث (فلو تجاوزها الانسان كان مفترياً) ؛ العلم والهدى والكتاب المنير. ومن آثار الافتراء على الله اضلال الناس بغير علم. وأقبح الافتراء الاشراك بالله تعالى (ولعل الافتراء على الله بذاته شرك) .

ومن الافتراء رفض التسليم للحق والقول على الله الكذب ، ومن الافتراء الردة الى الجاهلية (وملة الباطل) بعد أن هداه الله الى الاسلام .

ومن مصاديق الافتراء على الله قتل الأولاد، حيث كان الشركاء يزينونه لاتباعهم لكي يردوهم (ويهلكوا نسلهم)، ولكي يلبسوا عليهم دينهم (فيستفيدوا من الدين لمصالح الطاغوت) .

وهكذا حرموا على أنفسهم نعم الله فلم يأكلوا من بعض الأنعام افتراء على الله، وقد أنكر الرب سبحانه تحريم الزينة التي أخرج الله لعباده والطيبات من الرزق ، وبين حقيقة المحرمات والتي منها الفواحش والبغي والشرك والافتراء .

وبين ربنا انه لم (يحرم ولم) يجعل من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام (مما حرمه الجاهلون على أنفسهم).

وبين الكفر والافتراء صلة قريبة (إذ المؤمن يغنيه نور العلم الذي يستفيده من آيات الله ، بينما الكافر يفتري على ربه ليملأ فراغ قلبه من المعرفة وفراغ حياته من التشريع السليم). وهكذا ترى الذين يفترون على الله الكذب هم الذين لا يحكمون بما أنزل الله .

والافتراء ظلم فاحش واجرام ، فالمفتري يمنع نفسه والناس من نور الهدى ، ولذلك فمن لم يحكم بما أنزل الله فهو ظالم .

والمفتري يخرج عن حدود الدين، فهو فاسق لأنه لا يحكم بما أنزل الله. وعاقبة المفتري غضب الله تعالى، فهو لا يفلح في الدنيا ، بل يسحت بعذاب ويخيب (فلا يحقق هدفه الذي افترى على الله لبلوغه)، ويوم القيامة يعرضون على ربهم ليسألوا وليلعنوا على ظلمهم، كما أنهم تسود وجوههم هناك ، ويكون مثواهم جهنم لأنهم كانوا من المتكبرين .

وإنما بتذكر الآخرة (وما أعد الله للمتكبرين والمفترين على الله الكذب) يرتدع الانسان عن جريمة الافتراء، فلا يجعل من رزق الله حلالاً وحراماً من دون إذنه سبحانه .

ولأن في الناس من يفتري على الله الكذب، فعلى الانسان أن يبحث عن أهل الذكر فيسألهم ولا يسأل كل من ادعى علماً.

عدم تحريم ما حرم الله

الذين يحلون ما حرم الله ، او ينسئونه ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فإنهم يزدادون كفراً ولا يهديهم الله، لأن هؤلاء ، إنما يتبعون أهواءهم ، وقد زينت لهم أعمالهم، ولا ينفعهم تظاهرهم بالتوافق مع دين الله وقد أمر ربنا بقتال الكفر وجعل من أسباب ذلك أنهم لا يحرمون ما حرم الله ورسوله .

كذلك تحريم ما أحل الله وتحريم زينة الله التي أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق (نوع من الافتراء على الله سبحانه) .

الغلو في الدين

الغلو في الدين أن يقول الشخص في العقيدة غير الحق كما قالت النصارى في المسيح إنه إبن الله، وإنما الله إله واحد .

ونهى ربنا عن الغلو في الدين وعن اتباع أهوائهم ، قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً (حيث إن بعضهم اتبع الفلاسفة المشركين). وإنما الدين اتباع الحق (لا غلو ولا تقصير)، وأما الغلو فهو ميراث التعمق بالرأي والتنازع فيه، ثم الزيغ عن الحق والشقاق مع أهله .

الصد عن سبيل الله

الصد هو المنع عن اندفاع شيء أو شخص، نحو جهة وبقوة، كما قال المشركون إن الأنبياء عليهم السلام يريدون أن يصدوهم عما كان يعبد آباؤهم، (فهم مندفعون الى عبادة أوثانهم والأنبياء يمنعونهم) .

وابتغاء العوج هو أحد أساليب الصد عن سبيل الله ووسيلته التهديد والتزييف والترغيب والكيد والمكر ، ويستخدم علماء السوء وسيلة التزييف. ويستخدم المترفون وسيلة الترغيب ، فينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله. ومن الأمثلة الظاهرة للصد عن سبيل الله الكيد واشعال القتال في الأشهر الحرم ليفقد الأمن عن الآمين البيت الحرام. ويستخدم المنافقون المكر فيتخذون أيْمانَهم جُنَّة ليصدوا عن سبيل الله. ولأن الكفار استحبوا الحياة الدنيا، ورغبوا في حطام الدنيا وزُيِّنَ لهم سوُء أعمالهم ومكرهم وعبادتهم الشركاء أو عبادتهم الشمس من دون الله، وكذلك لأنهم خرجوا بطراً ورئاء الناس ، لكل ذلك فقد صدوا عن سبيل الله. فهذه دواعي الصد عن سبيل الله.

والشيطان يصد الانسان عن سبيل الله عندما يُزين له سوءُ عمله حتى يراه حسناً، وربما يكون الانسان مستبصراً فيغويه ويصده عن السبيل بتزيين عمله ، وقد حذرنا الله تعالى من ذلك وذكرنا بأن الشيطان عدو مبين. ومن أجل الحذر من الشيطان علينا أن نعرف أن من وسائله إثارة الحمية ، كما استنكفت العرب من الايمان بالنبي عيسى المسيح عليه السلام لأنه من غيرهم ، ومن وسائله الخمر والميسر .

ومن يعش عن ذكر الرحمن يصد عن السبيل، لأنه يقيض له شيطان فهو له قرين ، فيصده عن السبيل. وعاقبة الذي يصد عن سبيل الله الضلال البعيد ، وأن تحبط أعماله،

وأن الله يزيده عذاباً فوق العذاب، لأنهم كانوا يفسدون، وأن الله لا يغفر لهم ذنوبهم، وأن الله ليعذبهم (في الدنيا والآخرة) .

ومن مصاديق الصد عن سبيل الله، الصد عن المسجد الحرام ، فالذين يصدون عنه لهم عذاب أليم .

التسويف

الشيطان يدعونا لنسوِّف الخيرات والاستغفار، وبالذات عندما نهتم بالسيئات. وهكذا يمرر عليه المعصية، فعندما همّ اخوة يوسف بقتله تمنوا أن يكونوا من بعده قوما صالحين. وهكذا أخذ الخَلْف بعَرَض الدنيا وقالوا سيغفر لنا وقد وعد الله برحمته الذين لا يسوّفون التوبة ، بل يسارعون إليها بعد الذنب وعدهم بالمغفرة ، كما أنذر الناس عذاباً قريباً (لعله لكي لا يسوفوا التوبة)، وقال عن الساعة لعلها تكون قريباً .

وهكذا علاج التسويف الحذر من فوات الفرصة. فلعل الموت يقتحم الباب عليك وأنت تسوف، وإذا سألت التأجيل حتى لوقت قريب ، ولكن هيهات، ومن هنا أمرنا الرب تعالى بالمسارعة الى مغفرة الله والجنة .

الوسوسة

المشيئة جوهر البشر ، والتوكل على الله يوفرها، بينما الوسوسة يضعفها. وقد وسوس الشيطان لآدم عليه السلام وألقى في روعه أن الشجرة المنهية تؤتيه الملك والخلود، فأكل آدم وزوجه من الشجرة ، وبدت لهما سوءاتهما (وظهرت مراكز الضعف فيهما) .

وبالاستعاذة بالله (بذكر الله والجأر إليه) يدفع المؤمن الوسوسة، وإنما عبر تنكر أسماء الله الحسنى، وأنه ملك الناس (فبيده الخير)، وأنه إله الناس (فبيده القوة) ، يتجاوز البشر مراكز ضعفه (فإن الشيطان يثير فيه عادة حب الخير وجاذبية السلطة) .

والله رب الفلق، وأنه خالق الخلق فبالاستعاذة به (ودعاءه وذكر أسماءه الحسنى) يدفع شر ما خلق (من ظلام شامل ، ومن نفثات الخناسين في عقائد الناس ، ومن شر

الحاسدين) . كما أن معرفة البشر بعلم الله تعالى بما في قلبه من الوسوسة قد يجعله يراقب نفسه أكثر فأكثر، حتى لا يمرر الشيطان وساوسه فيها.

الفصل السابع

معالم المجتمع الإيماني

تمهيد

ليست هذه الخليقة بما فيها من نظام وحكمة ظاهرة لعباً ولا لهواً، والعقل الهادف إما أخذ وإما عطاء، والله غني عن الأخذ وإلا لم يك خالقاً سبحانه، وعطاؤه ليس بمجذوذ، إنما السؤال كيف نأخذ نحن منه ؟ لقد مَنَّ الله علينا - نحن البشر- أن علّمنا كيف نستعطيه، وأنزل من أجل ذلك علينا كتبه وواتر رسله .

بل السبيل الى المزيد من عطاء الرب هو تطبيق المنهاج التالي: التقوى، والإحسان، والجهاد، واتباع الأحسن (أو الحياة الحسنى).

أما التقوى فهي التقيد بحدود الله ، وأما الإحسان فالتفضل على الناس، وأما الجهاد فتحمل المسؤولية تجاه الدين، وأما اتباع الأحسن فانتخاب الأفضل من أنماط الحياة في كل الابعاد.

إن هذا المنهاج بذاته تسامٍ وتكامل، وهو إلى ذلك وسيلة لمزيد من عطاء الرب.

١- التقوى

كل حدود الله معاني التقوى ، إلا أن الحديث هنا عن التقوى الاجتماعية بعد أن تحدثنا بتوفيق الله في أجزاء سابقة وسوف نتحدث بإذن الله تعالى فيما يأتي عن سائر حقائق التقوى. أما هنا فحديثنا عن الوفاء بعهد الله مع عباده، وعهد الناس مع بعضهم عندما يجعلون الله شهيداً. والعهد هو أعظم ميثاق بين البشر، وهو يحافظ على تجمعهم ومدنيتهم. ومن العهد العقود والمواثيق، سواء في

البعد السياسي أو الدولي، ومنها ميثاق حالة الهدنة التي هي قاعدة السلام العالمي والمنظمات الدولية تدخل في هذا الإطار.

ومن أبعاد التقوى الوفاء بالكيل والميزان، ورد الأمانة، والاخلاص في المعاملة (من دون غش). والوفاء قاعدة العلاقة الإيجابية التي يرسو عليها صرح المجتمع الإنساني.

٢- العطاء

في نفس الإنسان نزعة سامية تدعوه الى الإحسان، ومتعة الإنسان السوي بأن ينفع (العطاء) لا تقل عن متعته بأن ينتفع (الأخذ). والناس يحبون ابناءهم أكثر من حبهم لأبائهم، وبينما الأبناء يمثلون بعد الإحسان فيهم فإن الآباء يمثلون بعد الأخذ والاستفادة. وهكذا يوحي ربنا بالإحسان، ومن حقائقه حسن الضيافة.

٣- الجهاد (المسؤولية)

الجهاد حصن المجتمع الذي من دونه ينهار أمام زحف الأعداء، أو خور عزم طائفة من الناس. والجهاد يبدء من وعي المسؤولية (الفردية والاجتماعية). ويتجلى في النهي عن المنكر والأمر بالمعروف، ويستمر في الهجرة من أجل الله والاعداد للدفاع عن المقدسات، ثم في تحدي المخالفين للحق (الجهاد) والتبرء منهم ولو كانوا ذوي قربى (الأسرة والارحام والعشيرة والقوم)، والانتماء إلى جبهة الحق العاملين تحت راية ولاية الله، وينتهي بالقتال في سبيل الله.

٤- إتباه الأحسن (أوالحياة الحسنى)

تكتمل شخصية المجتمع المسلم بالجهاد، ولكنه بحاجة الى قوة دفع داخلية تعرج به الى الأعلى أبداً، وتتحقق ذلك بالنزعة الدائمة للحياة الحسنى؛ فكلماتهم الحسنى، وعملهم الأصلاح، وهمتهم في المسارعة الى الخيرات، وهدفهم الصلاح والاصلاح، ويبلغون من الفضيلة إلى درجة يدرؤون بالحسنة السيئة، ويردون التحية بالأحسن ويتركون التناجي إلا بالأمر بالصدقة والمعروف

والإصلاح، ويكون الطهر (في القلب والفكر والسلوك) هو عنوان سلوكهم والزينة في مظاهر حياتهم.

التقوى

الوفاء بعهد الله

لكي تكتمل نعم الله على البشر، يجب أن تنظم حياتهم الاجتماعية في إطار قيم مثلى، أبرزها الوفاء بالعهد الذي يعني ما يعهده الانسان ويعترف به ، وهو فرض على الانسان الذي يعطيه .

والعهد قد يكون بين الله وعباده، وقد يكون بين الناس أنفسهم، والله شاهده.

وعهد الله الذي عهده على نفسه للمؤمنين، هو أن ينصرهم إن هم نصروه . ومن عهده الشفاعة لبعض أوليائه (لعل الرسل جميعاً ، ورسولنا الأعظم وأهل بيته خصوصاً). ومن عهده أن يكشف العذاب عمن آمن من الناس بالرسل قبل أن يحق عليهم العذاب .

أما عهد الله الى البشر فهو؛ أولاً : عبادته وحده ، وألاّ يعبدوا الشيطان . ثانياً : الاستقامة على الطريق حتى الموت أو القتل ، وذلك هو البيع الذي بايعه المؤمنون مع ربهم. ثالثاً : طهارة المساجد (من الوثن وكل دنس).

والعهود بين الناس ملزمة خصوصاً إذا جعلوا ربهم عليها شهيداً. وهكذا كان الوفاء بالعهد من علامات المؤمن ، ومن صفات المصلين . وقد امتدح الله رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، بينما ذم آخرين تولّوا عن الحرب ، حيث كانوا قد عاهدوا الله على الصبر، وكان عهد الله مسؤولاً.

الفسق والنفاق والهوان والخسران واللعنة والعذاب ، كل ذلك عقبى من ينقض العهد، ومن عواقبه عدم احترام الطرف الآخر للعهد .

ومن أسباب خلف العهد؛ النسيان كما في أبينا آدم حين عهد ربه فنسى. والطمع بثروة الأغنياء المتمثل في شراء ثمن قليل بالعهد، أو رهبة الاقوياء، أو خلف الطرف الآخر . وعلى الانسان أن يعرف أن ما عند الله خير له مما في

أيدي الناس ، وأن الله أحق بأن يخشاه ، وأن عليه أن يفي بوعده مع الله حتى يفي الله له . ولعل من أسباب نسيان العهد طول الأمل .

والمشرك والظالم لا عهد لهما، (وهكذا ينبغي للانسان أن يختار لعهده المؤمن).

والله سبحانه لايخلف عهده، (وعلى الانسان أن يطمئن الى عهد ربه).

الوفاء بالكيل والميزان

إيفاء الكيل واقامة الميزان من القسط، بينما بخس الناس أشياءهم، وانقاصهم حقهم، والتطفيف ظلم ومخالف لقيمة القسط. ويتم الوفاء بما يلي: .

ألف/ تجنب مال اليتيم إلاّ بالتي هي احسن، والشهادة لله بالحق، كما إيفاء المكيال والميزان، وسائل لتحقيق القسط (والذي عبر عنه بالنهي عن بخس الناس أشياءهم، والذي يبدو أنه حكمة الايفاء). والله لايكلّف نفساً إلاّ وسعها، (فإقامة القسط تتم بظاهر الشرع).

باء/ من الوفاء بحقوق الناس الاهتمام بالميزان أن يكون مستقيماً، وألاّ يطغى فيه ، وألاّ يكون الأخذ والعطاء بميزانين، وجزاء الوفاء أنه خير (اليوم) وأحسن عقبى (غداً) ، والناس يثقون بمن يوفي المكيال ، بينما يُخشى على المجتمع المطفف من ويل يتمثل في عذاب يوم محيط لايستطيع أحد منه فراراً .

رد الأمانة

ومن الوفاء بحق الناس ردّ الأمانة وأداؤها ورعايتها، وعدم الخيانة فيها، وهي صفة المتقين المصلين الذين وقاهم الله من الهلع .

وعلى الانسان ان يستأمن من يثق بأمانته أو يأخذ رهاناً مقبوضة، وعلى من يستلم الأمانة ان يراقب ربه السميع البصير .

الإخلاص

الحنفية هي الإخلاص، وهي العبادة الطاهرة من الشرك . وتتجلى حقيقة الإخلاص للبشر عند ركوب البحر، حين يحيط بهم الخطر فيخلصون دعاءهم لربهم . وإنما الدين الخالص لله، ويعتذر الكفار بأنهم إنما يعبدون الشركاء

ليقربوهم الى ربهم. ولقد أمر الله أن نعبده وحده، كما أمر رسوله بذلك (بلا لبس) .

ومن حقائق الإخلاص تحدي الكفار ، ورفض ما يشركون بالله صراحة وبلا مداهنـة. وعلينا أن ندعو الله وحده (ونخلص له في الدعاء) . وتتجلى حقائق الاخلاص في أنبياء الله الكرام عليهم السلام؛ فموسى عليه السلام كان مخلصاً ، وكذلك يوسف الصديق عليه السلام، وقد صرف الله عنه السوء والفحشاء .

وعقبى الخلوص؛ أن الله يعصم عباده المخلصين . فلا سلطان للشيطان عليهم، والأجر العظيم في الآخرة، كما النجاة من العذاب الأليم ، ولهم جنات الخلد ونعيم مقيم ، والله ينصر عباده المخلصين (فتفلج حجتهم) ولهم حسن الذكر في الدنيا والاصطفاء في الآخرة .

العطاء

الإحسان

الإحسان إسداء المعروف الى الآخرين ، وصنع الحسن إليهم . والله سبحانه أحسن كل شيء خلقه ، وأمر بالعدل (إعطاء الحق) والإحسان (التفضل). ومثل ذلك طلب اخوة يوسف منه أن يتجاوز عن خطئهم لأنه محسن ، وخيّر ذي القرنين بين التعذيب بعدل أو العفو بإحسان .

ومن حقائق الإحسان ؛ ألاّ يقول الولد لوالديه أفاً ، وأن يعفو الزوج عن حقوقه المفروضة على زوجته عند الطلاق أو يقدم إليها هدية . والعفو والصفح عن المسيء إحسان ، ومكافأة العفو بالشكر والذكر الحسن إحسان (كالذي يعفى عنه في القصاص ، عليه أن يشكر صاحبه) .

ولعل من حقائقه الصبر والشفاعة الحسنة والموعظة الحسنة وأن تدرء بالحسنة السيئة ، والكلمة الطيبة إحسان ولقد رغب الله عباده بالإحسان بشتى المرغبات.

ألف/ كما أحسن الله إلينا، فعلينا أن نحسن الى بعضنا.

باء/ لأن عقبى الإحسان حب الله ، فعلينا أن نسعى لنكون ممن يحبهم ربهم . أوليس الله يحب المحسنين، وهو لايضيع أجرهم ؟

جيم/ وإنما جزاء الإحسان هو الإحسان.

دال/ وقد وعد الله المحسنات من نساء النبي أجراً عظيماً ، كما أن رحمته سبحانه قريب من المحسنين، وللذين أحسنوا الحسنى وزيادة .

هاء/ وقد بشر الله عباده بروضات الجنات ، إن هم أحسنوا وأدوا حق ذي القربى ، والله غفور شكور (يغفر لهم سيئاتهم ، ويشكر لهم حسناتهم) .

واو/ وللمتقين المحسنين عند ربهم ما يشاءون، ومن أحسن فإنما أحسن الى نفسه (حيث يعود اليه ثواب احسانه عاجلاً أو آجلاً) .

زاء/ والحسنات (كاقامة الصلاة) يذهبن السيئات ، والهداية (الى الحق وسبل السلام) جزاء المحسنين. وكذلك كان الكتاب هدى ورحمة للمحسنين ، وكذلك التوراة كانت تماماً على الذي احسن. والمحسن قد يؤتى تأويل الأحلام (كما النبي يوسف عليه السلام) والعلم والحكمة من ثواب الله للمحسنين. كما أن التمكين في الأرض (السلطة) قد يكون ثواباً للمحسن، والله سبحانه مع المحسن (فهو يهديه وينصره)، والذكر الطيب من بعده من جزائه (كما نربكيف يسلم الناس على انبياء الله الكرام).

حاء/ وأن الحسنة في الدنيا أمان من الفزع يوم القيامة ، وجزاء المتقي المحسن دار النعيم عند ربه، وليس على المحسن سبيل. والتسليم والاحسان مفتاح دار الأمن ، حيث يستمسك صاحبهما بالعروة الوثقى.

الضيافة من حقائق الإحسان

الضيافة من حقائق الإحسان ، وإكرام الضيف حق على المؤمن ، ورد الضيف غير لائق بالمؤمن. وعلى صاحب البيت الدفاع عن ضيفه ، وعدم السماح لأحد التعرض له بسوء . ومن أدب الضيف أن يدخل البيت باذن ، وأن يغض نظره عما لايصلح له ، وألاّ يثقل على صاحب البيت .

الجهاد

الجهاد يتمثل في الدفاع عن حدود الشريعة، وتبدء فصوله بوعي المسؤولية، والنهي عن المنكر، وتحمل الهجرة عن الأوطان (إن استدعى الأمر ذلك)، ومواجهة ضغط ذوي القربى (الوالدين –الأسرة – العشيرة) والانضمام إلى المجتمع الديني، وقد يبلغ الجهاد القتال في سبيل الله .

وعي المسؤولية

تنعكس أسماء الله الحسنى (وأنه حي قيوم يحكم بالعدل ، ويقوم بالقسط)؛ تنعكس في ضمير المسلم بوعي المسؤولية ، وتحمل الأمانة الكبرى .

ومن الرحمة الالهية ؛ إن كل إنسان مسؤول عن نفسه، ولا أحد يحمل ذنب غيره ﴿أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾، إلاّ أن كل فرد مسؤول بقدر عن مجتمعه .

ومسؤولية الانسان تبدء بمسؤوليته تجاه هواجس نفسه (نيته) ، وعن ركائز علمه (عينه وسمعه وفؤاده). ولا يمكن الفرار من المسؤولية ، فليست هناك آلهة تمنعه من جزاء عمله ، ولا شفعاء يشفعون له من دون اذن ربه. والأنبياء عليهم السلام هم بدورهم مسؤولون أمام رب العزة .

والمسؤولية صنفان ؛ فردية (حيث كل إنسان مسؤول عن نفسه) ، وجمعية (حيث المسؤولية عن الآخرين). وإذا تقدمت أمة أو تخلفت، فبما كسبت أيديهم. إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم، وإن أساءوا فلها .

وتتوسع دوائر المسؤولية ، حتى تسع البر والبحر؛ فان ظهر الفساد فيهما ، فبما كسبت ايدي الناس . وقد أصاب الناس من قبلها ما أصابهم لمسؤوليتهم. ونحن مثلهم إن فعلنا ما فعلوا، وما نحن بمعجزين، والله يعفو عن كثير من الذنوب . ولكن الذي يصيبنا من المصائب ، فبما كسبت أيدينا ، لأن الحافظ هو الله سبحانه . فاذا غيّرنا ما بأنفسنا (من الاستقامة) ، غير الله ما علينا (من نعم) ، ولا مردّ من قضائه .

وكل انسان يلزم طائره (الذي يكتب فيه ما فعل) ، وغداً ينشر أمامه ليحاسب نفسه بنفسه . فإن إهتدى فقد اهتدى لنفسه ، وإن ضل فعليها . وهكذا يوقف المجرمون يوم القيامة ليسألوا ، وكل إنسان يحمل ما كسبته يداه ، وهو رهين عمله يجازى غداً به ؛ إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . وهكذا ليس للإنسان إلاّ ما سعى ، وأنه لا تزر نفس حمل غيرها ، لأنها قد حُمّلت ما يكفيها من المسؤولية .

وهكذا لا يجوز ترامي المسؤولية . فلا يؤخذ منها أي عدل ، ولا ينفعها أي شفيع ، ولا أي ولي من دون الله سبحانه ، ولا واقي للانسان من الله . وكل الأماني التي يخدع الانسان بها نفسه للتهرب من المسؤولية ، انما هي خداع ذاتي . فمن يعمل سوءً يجز به ، ولا احد ينصره من دون الله أو يدافع عنه .

وتتجلى المسؤولية المباشرة أمام رب العزة عند الشدّة . فكيف إذا مسك الضر دعوت ربك وحدك ، ونسيت النعم التي علقت عليها الأماني . فما أغنت عن أبي لهب ثروته ، ولا أغنت حضارة السابقين عنهم شيئاً، حينما جاءهم أمر الله (فدمروا تدميراً) ، ولا أغنت عنهم آلهتهم التي علقوا عليها الامال .

والانسان مسؤول عن معرفته ، ألاّ يخطو خطوة بغير علم ، لأن السمع والبصر والفؤاد (وهي وسائل المعرفة) كل أولئك كان عنه مسؤولاً . وهكذا لا يجوز أن يقول عن الله ما ليس له به علم ، فإنه من الافتراء على الله؛ بل البشر مسؤول عن وساوس نفسه وظنونه، وقد قال سبحانه: ﴿**وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾(البقرة / ٢٨٤) .

وهكذا الآلهة التي يعلق البشر عليها الآمال، إنها تتلاشى في يوم الجزاء ، ولا تغني عنه شيئاً ، ولا يغني مولى عن مولى شيئاً ، ولا هم ينصرون .

والقرآن كتاب المسؤولية . فهدف إنزاله البلاغ ؛ إنذاراً وتبشيراً . وليس الرسول وكيلاً عن الناس .. فهو بريء مما يجرمه الناس ، وإنما عليه ما حمل من إبلاغ الرسالة ، وعليهم ما حملوا من قبولها .

ويختلق البشر المعاذير للتهرب من المسؤولية، فيعترض مثلاً على تناسخ الآيات، أو يسأل آيات بعينها ثم يكفر بها. وقد يزعم أن قربه من أنبياء الله سبحانه وأولياءه يغنيه عن المسؤولية، وقد يزعم أنه حبيب الله فلا تمسه النار، والله لم يعط عهداً له بألاّ يعذبه بالنار .

وقد حرّم الله على بني اسرائيل المدنية الموعودة لما رفضوا القتال وتواكلوا . وهكذا التواكل وعدم تحمل المسؤولية عذر مرفوض، والسحر هو الآخر لايغني عن مسؤولية السعي والكدح .

والبعض يعترض على سنة المسؤولية ، إذ يزعم أن تأخير الجزاء دليل على عدم المسؤولية . كلاّ؛ إنما الله رحيم بعباده ، يؤخرهم لأجل (لعلهم يرجعون) . وفي يوم القيامة تتجلى سنة المسؤولية ، حيث تبدو لهم سيئات ما كسبوا ، ويحيق بهم ما كانوا به يستهزؤون . وإذا الظالمون تراهم مشفقين مما كسبوا ، ولكن لا ينفعهم ذلك، إذ هو واقع بهم . ولا يمكنهم التكذيب بما فعلوا، إذ تكلم الرب أيديهم فتشهد عليهم ، كما تشهد عليهم أرجلهم بما كانوا يكسبون .

النهي عن المنكر

من أبعاد الجهاد في سبيل الله وتحمل المسؤولية الاجتماعية، النهي عن المنكر؛ ولكنه قد يشمل النهي العملي مثل تحطيم الأصنام أو الأخذ على يد المذنب أو اظهار الغضب عليه أو هجره وما أشبه ..

وأصل معنى المنكر ما يجهل، ولكن معناه هنا ما لا يعترف به العرف والشرع. فهو عمل غير معروف وغير مشروع؛ ومنه قتل البرئ، والشذوذ الجنسي، وقول الزور، وأكل السحت ..

والله قد نهى عن المنكر، والرسول نهى عنه، وبإيمان الصالحين بالرسول أخرجت خير أمة متمثلة في الأمة الإسلامية، لأن فيها طائفة (من الفقهاء والمجاهدين) يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. وهم البقية التي ينهون عن الفساد في الأرض، وهم الذين إن مكنهم الله في الأرض أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر محور الولاية ، حيث إن ولاية المؤمنين لبعضهم محورها الأمر والنهي فيما بينهم بأحكام الدين، وهما من عزم الأمور .

ومن ترك النهي اشترك في المنكر - في العقاب الإلهي-، وإنما أنجى الله الناهين عن المنكر من أصحاب السبت وعذب الباقين. وبئسما فعلت اليهود حين تركوا التناهي عن المنكرات، وبالذات الربانيين والأحبار منهم، لأن مسؤوليتهم أكبر .

ومن صفات المنافقين؛ أمرهم بالمنكر، ونهيهم عن المعروف، والشيطان يأمر بالمنكر.

الهجرة مبعث المسؤولية

عند تحمل المسؤولية وعدم استجابة الناس، قد يضطر المؤمن الى الهجرة ليبدء فصل أساسي من فصول تحمل المسؤولية والجهاد في سبيل الله.

حينما تترك بلداً الى آخر، فإنك تهاجر الأول الى الثاني، وقد تترك دين قومك فتهاجرهم، ومن ترك السيئات فقد هاجر ، ومن دخل في الاسلام طوعاً فقد هاجر .

والمهاجر يهدف سبيل الله، أولاً بابتغاء فضله (الرزق مثلاً)، ثانياً بابتغاء رضوانه (التوبة مثلاً)، ثالثاً بنصرة دينه .

وقد أذن للذين أخرجوا من ديارهم بقتال المتسلطين عليها ، جهاداً في سبيل الله . فاذا تمكنوا في الأرض ، أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر. وفي قصة بني اسرائيل الذين طلبوا من نبيهم ملكاً يقاتلون معه

- وعللّوا ذلك بأنهم اخرجوا من ديارهم - في هذه القصة مثل للهجرة والقتال من بعدها .

والفتنة التي يجدها المؤمن في حكومة الكفار (والظلمة) ، سبب مشروع للهجرة . وقد فتنت قريش المؤمنين ، حتى أخرجوهم من مكة البلد الحرام . وكانت تلك ، فتنة أشد من القتل .

ومن يخرج من بيته مهاجراً ، سيجد في الأرض سعة؛ فلا يعدم فضل الله ، ورزقــه في مهجره .

والهجرة شرط الولاية . فمن لم يهاجر ، لا ولاية له . ومن هاجر فيكون من المؤمنين ، (لا فرق بينه وبين أهل البلد) . والمرأة التي لا تهاجر ، لا يتزوجها المؤمن. والتي التحقت بالكفار ، وأصبحت كافرة ، ينفسخ زواجها من المسلم ، وهم مطالبون بمهرها .

ومن استضعف في الأرض ولم يهاجر ، فقد ظلم نفسه، إن كان قادراً على الهجرة .

وحب المهاجرين وإيثارهم فضيلة للأنصار (أهل البلاد)، وهو سبب الفوز، ودليل التحرر من شح النفس .

والمهاجر (الذي يبحث عن التوبة) ، يتبع الرسول (وكل من يمثله) في ساعة العسرة.

وعقبى المهاجر في الدنيا ؛ أنه يجد أرضاً وأولياء واخوة في الدين ، ورجالاً كراماً ينفقون أموالهم في سبيل الله عليه. وعقبى المهاجر في الآخرة ؛ رحمة ومغفرة وجنة ورضواناً من عند الله .

وحكم المهاجرة أن تمتحن؛ فاذا كانت مؤمنة انفسخ عقدها من زوجها الكافر، فيؤتى ما أنفق عليها.

الاعداد الشامل

ولأن تحمل المسؤولية الاجتماعية والجهاد في سبيل الله قد يقتضي المواجهة المسلحة، فإن على المؤمنين أن يعدوا ما استطاعوا من قوة.

وقد أمرنا الله سبحانه بالاعداد للعدو بكل ما نستطيعه من قوة (مادية أو معنوية)، ومن جاهزية قتالية ترهب العدو الحاضر كما ترهب العدو المستقبل الذي لا نعرفه . والاعداد بحاجة الى الانفاق (وهو نوع من الاستثمار) ، والله سبحانه يعيد الى المنفق ما أنفقه دون أن يمنعه منه شيئاً.

وإهمال الاعداد، دليل إنعدام نية الجهاد. وهكذا بيّن الله تعالى أن إهمال قوم للاعداد ، دليل على عدم نية الخروج الى الجهاد .

الاستقامة العملية

المسؤولية والجهاد في سبيل الله ومواجهة الأعداء قد تمتد سنين متطاولة، ولابد من استقامة خلالها حتى نهايتها الحميدة.

الاستقامة فريضة إلهية، (وهي ميراث الايمان والتقوى). ومحور الاستقامة أمر الله، والاستمرار على الطريقة (التي أمر الله بها). والمؤمن يتعرض للضغوط بعد أن يشهد بربانية الله، وقد بشر الله المؤمنين الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا، بأن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وان الملائكة تتنزل عليهم وتبشرهم بالجنة. ولو أن الناس استقاموا على الطريقة (التي أمروا بها من نهج الولاية)، لسقاهم الله ماءً غدقاً) من وفرة الثمرات، وعلماً غزيراً .

وقد أمر الله أنبياءه بالاستقامة، ونهى عن اتباع سبيل الذين لايعلمون. (مما نستفيد؛ أن الاستقامة قد تكون ضد الجاهلين من اتباع الأنبياء).

ومن الاستقامة؛ مقاومة الجبت، وتحدي الأهواء. فيجب الوفاء بالعهد، حتى العهد الذي يكون مع المشركين، (بالرغم من وسوسة الهوى بنقض العهد معهم) .

الجهاد ذروة التصدي

على طريق المسؤولية، ومن أجل إقامة حدود الله في الأرض، ولمواجهة الفتن تأتي قيمة الجهاد في سبيل الله؛ ومعناه بذل أقصى الجهد من أجل مواجهة فساد أو

انحراف. والجهاد ميراث الايمان بالله ، وهو من أقرب الوسائل التي تبتغى للتقرب الى الله تعالى. والجهاد بالمال والنفس تجارة رابحة بعد الايمان بالله والرسول ، والتي تنجي أهله من عذاب أليم .

والجهاد من صفات الأمة التي اجتباها الله، وهي على ملة النبي ابراهيم عليه السلام الذي سمّاها بـ (المسلمين) .

الجهاد من أدلة صدق الذين يلتحقون بالأمة (في مراحل لاحقة)، وقد يكون الجهاد (بالسيف) حرباً عسكرياً ، كالنفر الخفيف (سرايا) ، والثقيل (الجيش)، وقد يكون الجهاد بالمال (بالانفاق على المجاهدين أو على الاسلحة). وقد يهاجر المرء ليجاهد في سبيل الله ، وقد ينصر المجاهدين ويؤويهم (كما فعل الأنصار). وقد فضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً. وهكذا ينبغي على المجتمع المسلم أن ينتخب منهم القادة والشهداء ، وأن يقدمهم في الأمور.

والجهاد يفوق سائر أفعال الخير التي قد يقوم بها البعض رياءً وسمعة ؛ مثل سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام، وإنما جعل الله الفوز للمؤمنين المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم . والله قد جعل للمؤمنين (بالله والرسول) الذين يجاهدون في سبيل الله ، جعل لهم الخيرات (في الدنيا) والفلاح. وعقبى المجاهدين ؛ أن الله يبشرهم برحمة منه ورضوان ، ونعيم مقيم.

ومن أسمى غايات المؤمنين ؛ المغفرة الالهية التي يفوز بها المجاهدون (خصوصاً بعد الفتنة). والله يهدي المجاهدين (في سبيله) الى السبل التي فيها السلام ، فيبلغون أهدافهم من آمن وأقرب الطرق بفضل هدى الرب لهم.

والمجاهد حقاً هو الذي يفضل الجهاد في سبيل الله على علاقاته واهتماماته كلها. أما الذين يفضلون آباءهم أو ابناءهم أو اخوانهم أو أزواجهم أو عشيرتهم أو مساكنهم أو تجارتهم على الجهاد ، فعليهم أن يتربصوا (عذاب الله) ، والله لايهدي الظالمين.

أما المتخلفون عن الجهاد ، فإن فرحهم بقعودهم خلاف رسول الله (والقيادة الربانية) لايدوم ، حيث يأتيهم عقاب عملهم ، مما يجعلهم يبكون كثيراً ويضحكون قليلاً. ومثلهم الأغنياء الذين يتهربون من الجهاد ، ويرضون بأن يتخلفوا عنه مع النساء ، وهم لا يفقهون (مدى أهمية الجهاد ، وأنه أفضل مما لديهم من متاع الحياة الدنيا).

القتال

قد تتسامى مسؤولية البشر من مسؤوليته عن نفسه، ثم عن أسرته، ثم عما في الأرض من فساد.. حتى تبلغ الذروة في الجهاد؛ ومن أبعاده القتال في سبيل الله.

ألف/ قيمة القتال

القتال فريضة إلهية، ويعكس مدى إيمان الإنسان بالدين. وبين القتال في سبيل الله والايمان تفاعل. فكما أن القتال ميراث الإيمان، كذلك الإيمان ينمو بالقتال. وللقتال في سبيل الله بواعثه وأهدافه وحكمته وحقائقه..

١/ بواعث القتال

ما الذي يدعو المؤمنين الى القتال في سبيل الله؟ يدعوهم إليه :

ألف: شراء الجنة بالأنفس والأموال.

باء: وأن الشهداء أحياء عند ربهم.

جيم: وأن المقاتلين قد رفعهم الله.

دال: النجاة من النار.

٢/ أهداف القتال

ما هي الأهداف التي يقاتل المسلمون من أجلها؟

ألف: حتى لا تكون فتنة.

باء: دفاعاً عن الحرمات.

جيم: دفاعاً عن القيم.

دال: من أجل الدين.

هاء: من أجل الدعوة.

٣/ حكمة الجهاد

الدنيا دار إبتلاء، وقد جعل الله الناس بعضهم فتنة لبعض، ومن أبرز مصاديق هذه الفتنة الحرب، حيث يبتلي الله المسلمين بالكفار حتى يعلم الصادقين منهم، فإذا هم يتمايزون؛ يتساقط المنافقون على أطراف المسيرة، وهم الذين يفضلون منافعهم المادية على الجهاد (ولا يرون أنفسهم جزء من الأمة)، وهم الذين يبحثون عن الرئاسة (ويقولون هل لنا من الأمر شيء)، ويزداد المؤمنون طهراً ونقاءاً، وتتمخض ساحات الجهاد عن الشهداء الذين يصلحون لقيادة الأمة.

٤/ حقائق القتال

الثبات في القتال من أهم أسباب النصر في الحرب، وقد أمر الله سبحانه به، كما نهى عن الفرار من الزحف، واعتبر ذلك عهداً من عند الله مسؤولاً عنه. وعوامل الثبات؛ نصر دين الله، وذكر الله كثيراً، وقد أنزل الله على عباده المؤمنين الملائكة ليثبتوا قلوبهم، فأطمأنت النفوس حتى غشيهم النعاس أمنة من الله سبحانه .

٥/ المتخلفون عن القتال

لأن القتال كره للبشر، ترى كثيراً من الناس يتخلفون عنه، حتى إذا نزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال، رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إلى النبي وكأنه غشي عليهم من الموت، ولا يثبت فيه إلا المؤمنون .

باء/ فقه القتال

وعند دراسة فقه القتال لابد أن نعرف الحقائق التالية: ضرورة دراسة المجتمع الاسلامي على ضوء المعايير الجهادية؛ لأن حكمة الحرب هي إبتلاء المجتمع واستخراج معادنه، وكشف الكفاءات لجعلهم الشهداء والقادة في هذا المجتمع ، وكشف العناصر الضعيفة لاصلاحهم أو إبعادهم عن المراكز الحساسة.

وهكذا لابد أن نعرف كيف نتعامل مع المتقاعسين عن القتال، ونعرف بالضبط أسباب مشروعية القتال، ونعرف كيف نواجه الطاغوت، ونعرف أيضاً ولاية القتال وقيادته لمن هي.. وبالذات في العصور الراهنة ، ونعرف شروط المجاهدين وشروط قادتهم.

ونفقه حدود القتال، وأنه محرم في الأشهر الحرم وعند البيت الحرام ، كما هو محرم استخدام الأسلحة ذات الدمار الشامل إلا للدفاع. كما نفقه أحكام المواثيق في الحرب بأقسامها، ومن الأقسام العامة المهادنة (إتفاقية السلام) والإجارة والذمام ، وأحكام الإقامة في البلاد الإسلامية، وإتفاقية التحكيم (ومنها الرجوع الى المحاكم الدولية مثل محكمة لاهاي ومجلس الأمن الدولي)، وأحكام الجعالة في الحرب .

ونعرف أخيراً أحكام ما بعد المعركة ؛ مثل أحكام أسرى الحرب ، وأحكام الجزية ، وغنائم الحرب.

إن معرفة هذه الحدود ضرورية للالتزام بالتقوى في الحرب .

اتباع الأحسن

في مسيرة التسامي أبداً في الحياة، يتطلع البشر إلى الأفضل دوماً، ويثير الدين هذا الطموح فيُرَغِّب فيما هو أحسن وبذلك يحقق قوة الدفع الداخلية التي تحرك المجتمع المسلم إلى التقدم والتكامل؛ فكلماتهم الحسنى، وسلوكهم الأصلح، وهمهم التسابق الى الخيرات، وهدفهم الصلاح والإصلاح، والإحسان والطهر والزينة، عناوين حياتهم الفاضلة.

الكلمة الطيبة

الكلمة الطيبة؛ هي القول المعروف، والقول الثابت، والقول السديد، والقول الميسور، والقول اللين، والقول الكريم. وتشترك هذه الحقائق في أن الكلمة الطيبة هي القول الحق محتواه، والحسن مظهره.

والقول الثابت هو الذي يثبت ايمان المستمع، كالتذكرة بالله واليوم الآخر، والتزكية والتعليم. والقول السديد الذي لا يلوي صاحبه لسانه بالباطل ليحسبه المستمع حقاً، بل يشهد بالحق شهادة صريحة. والقول الميسور الذي يجبر كسر المنع، كالدعاء بالخير لمن يعرض عنه. والقول اللين الذي يجعل الدعوة مقبولة عند المستمع، لتتم الحجة عليه.

والقول المعروف هو الذي يحافظ على كرامة الانسان . فإذا كان السفيه محروماً عن التصرف في ماله ، فلا يحرم عن حقه في الكرامة . كذلك الذي يحضر القسمة ولا نصيب له فيها ، فلا يقال له كلاماً بذيئاً إذا طالب بما لا يحق له . والقول المعروف عند الطاعة ، يتمثل في عدم التناجي بمعصية القيادة ، وعدم التأفف من صعوبة الاطاعة ، وما أشبه . والقول المعروف عند الانفاق ، يتمثل في عدم المن والأذى . والقول المعروف عند ذكر النساء أو لقائهن هو ما يؤدي الى الحلال ، لا الفاحشة. والقول المعروف عند النساء ، يتمثل في عدم الخضوع للرجال بالقول. والقول الكريم الذي ينبغي للولد ان يواجه والديه به ، هو الذي لا تأفف فيه ولا نهر ، بل يحتوي على إحترام والديه بالمستطاع.

ومن الكلمة الطيبة، القول الحسن وتجنب الجهر بالسوء من القول. ومن القول الحسن الدعوة الى الله والى تعاليم الدين.

العمل الصالح

العمل الصالح ، هو سعي الانسان في المسيرة الفطرية التي يرضى بها الرب سبحانه. ففي الجهاد يكتب للانسان بكل سعي منه عمل صالح، ومحددات العمل

الصالح - حسب آية كريمة - أن يكون في سبيل الله، وأن يبذل فيه جهد، وأن يحدث أثراً.

ومعيار العمل الصالح ، ان يرضاه الرب تعالى. والايمان يبعث صاحبه الى العمل الصالح ، لأنه باق عند الله ، ولأن من يعمل منه مثقال ذرة سوف يراه.

والعمل الصالح يرفعه الله ويحفظه ، وان الانسان يرى سعيه ويجزاه بالأوفى؛ ففي الدنيا جزاؤه حياة طيبة، ومن حقائقها أن الله يخرجه من الظلمات الى النور، ويصبح خير البرية .

والتائب الذي يعمل صالحاً، يبدل الله سيئاته حسنات، ويكفر الله سيئات الذين آمنوا بالله والرسول وعملوا الصالحات، والله غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى. وهذا وعد الله سبحانه، ويعطي الرب فرصة للقرى حتى يتوبوا ويؤمنوا ويعملوا صالحاً. وإنما وعد الله أصحاب النبي مغفرة وأجراً عظيماً ، شريطة الايمان والعمل الصالح. وثواب الله خير للذين آمنوا وعملوا الصالحات، وحتى أهل الكتاب يجزون بعملهم الصالح، إن هم آمنوا بالله واليوم الآخر .

والايمان والعمل الصالح هما المعيار للجزاء، وليس ادعاء الانتماء الى الأنبياء عليهم السلام، والغلو في شأنهم. كما أن المال والولد في الدنيا ليس بمعيار، لأنهما لا يقربان العبد الى ربه. بينما المؤمن الذي يعمل الصالحات، له جزاء الضعف وهو من الآمنين .

ومن حقائق العمل الصالح؛ إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة .

وأجر الله الذي كتبه من فضله للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، إنه أجر غير ممنون (ولا مجذوذ ولا منقطع) ، وهم يمكثون فيه أبداً . ولا يضيع عند الله أجر عمل عامل من المؤمنين ، سواءً كان ذكراً أو أنثى. فأولئك يوفيهم أجرهم من فضله، حيث يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب. أوليس الله قد خلق

السماوات والأرض بالحق ، وأن وعده الحق وهو قائم بالقسط؟ فهو يجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط .

وتشتاق النفوس الطيبة للجنة التي وعد الله المتقين من عباده، فينبعثون الى العمل الصالح (الذي وعد الله أصحابه المؤمنين بالجنة) .

وقد كانت ضلالة اليهود بعيدة ، إذ زعموا أنهم لا يعذبون إلاّ أياماً معدودة ، لأنهم حسب زعمهم أبناء الله وأحباءه. وأكد القرآن أن المعيار، إنما هو الايمان والعمل الصالح ، لأن الله لم يخلق السماوات والأرض باطلاً . وحاشا لله ان يجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ، والمتقين كالفجار .

وإن الله وعد المؤمنين الذين عملوا الصالحات أن يدخلهم الجنات ، ومن أصدق من الله قيلاً . فليست الأماني أو الادعاء أو النسب أو الانتماء أو ما أشبه من العناوين الباطلة ، معيار الجزاء. أليس الله خلق السماوات والأرض بالحق ، فكيف تكون المعايير الباطلة مقبولة عنده سبحانه؟

وعقبى المؤمنين الذين عملوا الصالحات ، جنات الفردوس التي لا يبغون عنها حولاً ، والله يفعل ما يريد. وفي الجنان يحلى المؤمنون بأساور من ذهب ولؤلؤاً ، ولباسهم فيها حرير . وفي الجنة أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى . كما فيها من كل الثمرات .. ولا تقتصر نعم الجنة بنعم الجسد ، بل الله يرزق أهلها مغفرة من لدنه . وهي بكلمة ؛ جنات النعيم ، وهي دار كرامة ، لأن الله قد جعل لهم فيها ما يشاؤون .

والله جعل العمل الصالح ثمناً للجنة بفضله. وهكذا كان العمل الصالح حسرة على أهل النار ، فهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً . وكذلك ترى المجرمين (كما الظالمين) يتمنون العودة الى الحياة ليعملوا صالحاً. وهذه الأمنية ربما كانت ترافق كل من ينتقل من الدنيا وتتكشف له الحقائق ، إلاّ أنها عند المجرمين والظالمين تتحول الى ندامة طاغية .

المسارعة في الخيرات

الخيرات جنان الرب ورضوانه، والايمان بآيات الله ، والإنفاق وجلاً من لقائه. والمسارعة في الخيرات قيمة إيمانية. ومن هنا فإن من أبرز صفات الذرية الطيبة ، المسارعة في الخيرات. وورثة الكتاب هم الذين كانوا يستبقون إلى الخيرات. وقد أمر الله الأنبياء عليهم السلام أن يسارعوا في الخيرات. وكانت من علامات التابعين حقاً للأنبياء عليهم السلام من أهل الكتاب ، المسارعة في الخيرات .

وإذا كان الاختلاف عاصياً عن الحل ، فالأمثل بالمؤمن أن يسارع الى الخيرات ، ولا يتلهى بالجدل ، ولا ينتظر حل الخلاف في هذه الحياة .

الصلاح والإصلاح

الفطرة التي خلقها الله هي محور الصلاح، فاذا نقصت أو انحرفت عن مسارها فقد فسد. والاصلاح إتمام النقص أو تصحيح المسار. فالنشوز عن الرجل، (وعدم الوفاء بحقوق الزوجية)، والإعراض هو ضد الصلاح. والاصلاح هو تصحيح النشوز، وإنهاء الإعراض .

والصالح من الناس من يعمل الصلاح، (وما يجب عليه) كمن يصلي ويطبق الكتاب. ومثل الصلاح في أنبياء الله (زكريا ويحيى وعيسى والياس ولوط وغيرهم)، وكان يتطلع الانبياء ليكونوا من الصالحين. هكذا دعا إبراهيم الخليل ويوسف الصديق ، وهكذا يتطلع المؤمنون ليكونوا من الصالحين . والأولاد الصالحون هدف يتطلع إليه الأنبياء عليهم السلام ، كما يتطلع إليهم المؤمنون .

وعقبى الصلاح، وراثة الأرض. وإذا كان الصلاح هو الفطرة الأولى للخلقة، فإن الاصلاح إعادة الشيء الى الحالة السويّة. فالعلاقة البناءة بين الزوجين صلاح، وإعادتها بعد فسادها إصلاح. والتعاون بين أبناء الأمة صلاح، وإعادته بعد فقده إصلاح. والعدالة التي تعني اعطاء كل ذي حق حقه، هي الاصلاح .

والله سبحانه رقيب على الاصلاح ، وليس الاصلاح بالتمني والادعاء ، ولذلك فان المنافقين الذين ادعوا الاصلاح كانوا كاذبين .

والمصلح يتبع معياراً (الحدود الشرعية والعقلية للأشياء) ، بينما المفسد يتبع هواه .

ولعل من أبرز شروط القيادة الاصلاح ، وعدم اتباع سبيل المفسدين . والاصلاح كذلك من أبرز سمات التقوى ، ولا خير في كثير من النجوى إلا عند الأمر بالاصلاح. وليس الاصلاح في الأمة سهل المنال، وقد لا يكون ممكناً بالكامل. فعليه أن يتحرك الانسان للاصلاح ، متوكلاً على الله وبالقدر المستطاع .

وإصلاح أهل القرى ضمان ارتفاع العذاب عنهم، ولعل إصلاحهم يكون في أولي بقية ينهون عن الفساد في الأرض . وشرط قبول التوبة إصلاح ما أفسده الذنب، ولذلك أمر الرب في آيات كثيرة بالاصلاح بعد ذكره التوبة .

والسلام عقبى الاصلاح ، ولعل الاصلاح مع التقوى يعني العمل الصالح مع التقوى. ولا تقبل توبة المنافقين إلاّ بالاصلاح ، والاعتصام بالله وإخلاص الدين. ومن كتم الحق (ولم يشهد لله) ، فعليه أن يصلح أمره ببيانه (والشهادة عليه)، وعلى من افترى على الله كذباً ، أن يعلن البراءة من فريته .

درء السيئة بالحسنة

دفع السيئة بالحسنة، من تجليات العلم والايمان، (كما الصبر ابتغاء وجه الله ، وإقامة الصلاة والانفاق). والله يؤتي أجر هؤلاء مرتين (في الدنيا والآخرة، حيث يرزقهم جنات عدن) .

النجوى

من تجليات الحياة الحسنى التي يتطلع الى آفاقها المؤمنون، تجنب النجوى إلا بالتواصي بالصدقة والمعروف والإصلاح.

النجوى اجتماع عدد من الناس يتحدثون فيما بينهم بما يكتمونه عن الآخرين . ولعلها ذات غضاضة إن لم يكن هناك مبرر واضح لها، (لأنها تورث الريب والوسواس بين المؤمنين)، فان الله أنبأ أنه لا خير في كثير من نجواهم إلاّ لثلاث ؛ من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس .

وقد كان المشركون يتناجون فيما بينهم باثارة الشبهات حول الرسالة وأنها سحر، وحول الرسول وأنه بشر منهم فكيف يتبع وأنه ساحر. وقد تناجى آل فرعون ضد موسى وهارون .

أما المنافقون، فإنهم كانوا يتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، وقد نهى الله المؤمنين من هذا النوع من النجوى ، وأمرهم أن يتناجوا إذا تناجوا بالبر والتقوى .

وأمر الله سبحانه المؤمنين بالتوكل في مواجهة نجوى الكفار ، الذين يهدفون إلقاء الحزن في قلوب المؤمنين. وأمر الله المسلمين - في ظرف خاص - بتقديم الصدقة بين يدي نجواهم للرسول . وقد عمل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وحده بهذا الأمر، فبان فضله. بينما أشفق الآخرون من ذلك ، فتاب الله عليهم ، وأمرهم باقامة الصلاة وإيتاء الزكاة واطاعة الله ورسوله .

ردِّ التحية بالأحسن

من أبعاد الحياة الطوبى التي يطمح إليها المؤمنون، رد التحية بأحسن منها. ويبدو أن الشفاعة الحسنة، هي الكلمة الطيبة التي يجب أن يردها الانسان بأحسن منها؛ بقبولها وترتيب الآثار عليها، أو لا أقل يردها بمثلها، كلمة طيبة بكلمة طيبة. وجاءت الوصية عامة بهذه المناسبة، وتدل على رد التحية الكلامية (السلام، الرسالة، الهاتف)، أو الفعلية مثل بعث الهدية، أو إسداء أية خدمة إذا كانت من نوع التحية عرفاً. قال الله سبحانه: ﴿وإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً﴾ (النساء / ٨٦) .

الطهارة

طهارة الظاهر دليل طهارة الباطن، والمؤمنون يتطلعون إلى الأفضل أبداً، ومنه الحياة الطاهرة ظاهرها وباطنها .

الطهارة غسل القذر ، كما الماء حين ينزل من السماء يذهب بالوسخ ، وكما أذى دم الحيض إذا انقطع عن المرأة في دورتها الشهرية تكون قد طهرت . أما التطهر فهو السعي نحو الطهارة ، وسمي اجتناب المؤمنين للجاهلية وأدرانها

تطهيراً ، وطهر الله نبيه عيسى عليه السلام حين رفعه إليه وأخرجه عن المحيط الكافر .

والتطهر قيمة إيمانية، لأن الله يحب المتطهرين، والله يجزي المؤمنين في الجنة بأزواج مطهرة .

وتتحقق الطهارة بغسل البدن ، وتنظيف الثوب ، وتطهير بيوت العبادة. والوضوء والغسل والتيمم مصاديق التطهر الواجب عند الصلاة والطواف الواجب . فإذا اجنب المسلم غسل بدنه كله، وعند الحرج من الغسل يذهب الى ارض طاهرة فيمسح بها وجهه ويديه ، فإذا ارتفع الحرج اغتسل أو توضأ . والوضوء غسلتان ؛ الوجه كله واليدان من المرافق ، ومسحتان بالرأس والرجلين حتى الكعبين . وعند الحرج من استخدام الماء أو فقدانه يبحث عن أرض طاهرة فيمسح الوجه واليدين بالتراب . وينقض الوضوء النوم ، وخروج الخبائث من البطن . أما الغسل فيوجبه الجنابة والحيض .

ويطهر المؤمن ثوبه من القذر عند إقامة الصلاة، كما يطهر بيوت الله (المساجد) . وهكذا المؤمن يتطهر عند العبادة ، بغسل بدنه وثيابه وموقع عبادته .

ويجب تطهير القلب بالتوبة ، واجتناب الرذائل ، والصدقة ، وبالتقوى عن مزالق الهوى. ولا يطهر الله قلوب الذين يسارعون في الكفر (فلا يتوب عليهم) .

وسبيل الزواج أطهر من سبيل الفاحشة ، والحجاب طهارة للقلب ، وقبول عودة الزوجة الى زوجها أزكى لأهلها وأطهر. والصدقة تنقي الفؤاد من الشح ، وقد أمر الله المسلمين بأن يقدموا بين يدي نجواهم مع الرسول صدقة، لأنها خير وأطهر . وأمر الرسول بأن يأخذ من أموالهم صدقة ، ليطهرهم ويزكيهم بها.

والله اصطفى مريم وطهرها، وأذهب الرجس من أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله وطهرهم تطهيراً، ويسقي الله المؤمنين شراباً طهوراً .

والكتب المطهرة هي التي يتلوها رسل الله . (ولعل المراد أنها مطهرة عن أسباب الشقاق والعنصرية). ومن طهارة الكتب، أنه لن يمسها إلاّ المطهرون . (فمن طهر قلبه بلغ علم الكتاب) .

الزينة

ولا يتوقف سعي المؤمن نحو الحياة الحسنى عند الطهارة، بل يتطلع إلى الزينة التي تحبب الناس إلى بعضهم، وترقق مشاعر الود فيما بينهم.

الزينة؛ جمال الشيء الذي يستهوي البشر، وما على الأرض زينة لها ، وكان العجل من زينة آل فرعون (الذهب والفضة وما أشبه).

ومن حقائق الزينة؛ الشهوات من النساء والبنين والذهب والفضة والخيل والبغال والحمير ، كما ان للناس فيها جمالاً حين يريحون وحين يسرحون .

والزينة نعمة، حيث زين الله السماء الدنيا بمصابيح، وقد أخرج الله الزينة لعباده المؤمنين والطيبات من الرزق ولم يحرمها .

والزينة (كسائر النعم) فتنة ، ولا يجوز أن يفضلها الانسان على المؤمنين، لأن ما عند الله خير وأبقى . ومن أراد الدنيا وزينتها دون الآخرة، كان نصيبه فيها النار، (بل حتى في الدنيا لا يتمتع بها)؛ مثل قارون الذي خرج على قومه في زينته، ولم يبتغ بها الدار الآخرة، فخسف به وبداره الأرض .

وإذا خير البشر بين الآخرة وزينة الدينا، كما خيرت زوجات الرسول ، فعليه أن يختار الدار الآخرة .

والزينة تنفع إذا كانت في السبيل القويم ، كما المرأة تتزين لزوجها وليس للأجنبي ، وكما المؤمن يتزين لدخول المسجد .

الفصل الثامن

معالم المدنية الإيمانية

تمهيد

للإنسان ذلك المخلوق الكريم الذي ابتدعته يد البركة الإلهية آفاق سموّ واسعة يمكنه أن يتكامل فيها، وهذا التسامي يعرج فيه البشر بجهده وبهدى الرب وتوفيقه، ولكي يبلغه فهو بحاجة الى شرعة ومنهاج وفرهما له الله برحمته في رسالاته، والتي أكملها بالإسلام. فما هي الخطوط العريضة لشرائعه؟

أولاً: الأمن

الأمن الذي يتحصن بالتوحيد (رفض الجبت والطاغوت كمصدرين للإرهاب)، وبالتقوى (لإنها لباس ضد ظهور السوءات الداخلية)، وبالحذر من مكر الله (الذي يحيط بمن يعاجز الله ويحاددده).

وهكذا الأمن نعمة إلهية سواء على الصعيد المادي أو المعنوي، والأنبياء هم في حصن أمن الرب ودعوتهم هي دعوة الى دار السلام.

ثانياً: العدل

ومعناه اعطاء كل شيء وكل شخص حقه، وقيمته قيمة الحياة، ومنه القسط (ايتاء الناس حقوقهم)، وهو سنة الله وصبغة دينه سواء في السياسة أو الاقتصاد أو الأسرة أو القضاء .

ثالثاً: السلام

والسلام ميراث الأمن والعدل، ويتحقق بحفظ الحرمات واكرام الناس؛ فالبيت له حرمته ولا يدخله المسلم إلا بسلام، وللناس كرامتهم، وينشر فيهم المسلم التحية

بالسلام. وعلاقة المسلم بالملائكة ترتسم بالسلام، وحتى الجاهلون يودعهم المسلم بسلام الهجر والوداع.

رابعاً: الحكم

وتتحقق قيم الأمن والعدل والسلام في الحكم الإسلامي الذي لن يكون لأحد سوى الرب سبحانه ومن ارسل من لدنه، (فلا سيادة لأحد على غيره) وإنما الحكم لله، وحكم الرسول هو حكم الله، والحق ميزان الحكم.

خامساً: القصاص

وهو من قيم حكم الله الحق، حيث يوفر الأمن ويحقق العدالة وينشر السلام ويصون الحرية .فالنفس محترمة (منذ أن تكون جنيناً)، والمحافظة على الدماء واجبة .

سادسا: الإحصان

والمجتمع الحر الكريم هو الذي تصون حرماته حدود واضحة، يتحصن ضمنها من العدوان والفساد. وحرمات الناس أولاً حرمة أعراضهم من الفساد الجنسي، وحرمة دمائهم من الاعتداء، وحرمة أموالهم من التلف.

سابعاً: الحفظ

وعلى المجتمع المسلم أن يحفظ كلما له قيمة من نفس ومال وحرمة وكرامة..

ثامناً: الرزق

والرزق من حقوق الناس، والطعام حقهم وله شرائطه وحدوده.

تاسعاً: السكن

ومن حق كل امرءٍ السكن الذي هو علامة التمدن، والبلد الطيب هو الذي يوفِّر الأمن والإيمان والرزق الكريم، وللبيت حرمة مقدسة وتعايش وتعاون وطهر وذكر.

والتقوى قاعدة المدنية الإسلامية ، بينما الظلم يبيدها.

عاشراً: الصحة

فهي من أهداف الحكم الإسلامي، والتي يوفرها الإسلام بتحريم الخبائث والتحذير مما فيه ضرر وتوفير النظافة ووسائل الصحة العامة.

الحادي عشر: التعليم

والتعليم من حقوق الناس، والأنبياء هم أول من علم البشر .

الثاني عشر: الذرية

والإسلام ينمي الذرية الصالحة، ويجعل المودة اساس الأسرة.

الثالث عشر: العلاقات الطيبة

وتنظيم علاقات المؤمنين تتم على أساس مودة الأسرة وصلة الرحم والتراحم والتكافل والتعاون.

الرابع عشر: القيمومة

ويشد المجتمع المسلم بالأحكام قيمومة بعضه على بعض، فالعقل والتوحيد والكتاب والقوامون بالقسط وتدوير الثروة (بصورة صحيحة) والكعبة (والحج إليها) وتنظيم الأوقات (الأهلة والأيام) والأسرة؛ كل تلك هي من ركائز القيمومة الإسلامية.

هكذا يوفر الدين الحنيف عناصر الرحمة في المجتمع الإسلامي، والتي تدفعه نحو التسامي بإذن الله تعالى لتحقيق هدف الخلق الأساسي وهو التكامل .

كلمات بعضها من بعض

الحياة الطيبة هي البشرى التي يبشر بها الله سبحانه عباده الصالحين، فيقول: **﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ ويقول تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾** (الرعد/٢٩)

وهي الحياة الحسنة التي يدعو بها المؤمنون ربهم. قال الله سبحانه: **﴿وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الاَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾** (البقرة/٢٠١)

فما هي الشرائع الإلهية التي تحقق هذه الحياة الطيبة؟ إنها كلمة طيبة، تتفرع منها كلمات بعضها من بعض، فالسلام واحدة من تلك الكلمات.

السلام تعبير عن تلك السكينة الايمانية المباركة الطيبة، التي تسود علاقة المؤمنين بالله سبحانه (إيماناً وتسليماً)، وبالملائكة والرسل والصالحين. فلا حمية ولا ضغينة ولا عداء، وحتى عند سماع اللغو يترك المؤمنون الجاهلين بسلام الوداع.

وقلب المؤمن يعمر بالسلام، ولسانه يلهج بالسلام، وتحيته عند ذكر الأنبياء وعند لقاءه اخوانه السلام، وعند دخول الدور وفي الجنة.

وهكذا نستوحي من هذه البصائر؛ أن السلام مثل أعلى للحياة، والطوبى التي يسعى إليها المؤمنون ويدعون ربهم لتحقيقها. وهي كلمة عليا، وصبغة البركة والرقي، والكرامة والطيب.. وهذه الكلمة المثلى تتصل بكلمة الأمن الذي من دونه لن يتحقق السلام، وبقيمة الحق الذي ينظم علاقات البشر ببعضهم وبسائر ما خلق الله..

ولا سلام، ولا أمن، ولا حق من دون العدل (وهو إيتاء الحق لأهله). فالعدل إذاً غاية مثلى للحياة الطوبى.

ومن السلام والأمن والحق والعدل، إحترام النفس البشرية (ألا تزهق بغير حق).

ولابد لحرمة النفس من حصن يحافظ عليها، ومن أنظمة تحيط بها وتوفر لها الأمن (القصاص)، ومن إحساس بالمسؤولية (الحفظ).

وإذا توفر الأمن، فلابد من توفُّر وسائل الحياة من رزق كريم (الطعام والشراب)، ومن سكن مناسب، ومن صحة وتعليم.

وفي حدود المدنية المؤمنة يتعاون الناس بعضهم مع بعض، في أطر حضارية وأخرى فطرية. ففي الاطار الحضاري تجد التلاحم بين المؤمنين، حتى وكأنهم أعضاء جسد واحد. وأما في الاطار الفطري، فإن الأسرة هي المؤسسة الأولى

التي تشد الآصرة الطبيعية التي يباركها الشرع وينظمها. ومن الأسرة البنين، وتتوسع هذه العلاقة الى أن تشمل الأسرة الكبيرة ضمن قيمة صلة الرحم.

وهكذا تتماوج كلمات النور من ينبوع السلام والحق والعدل، فتترامى حتى تضيء رحاب المدنية المؤمنة، والمدينة المثلى. وفيما يلي نستعرض هذه الكلمات واحدة واحدة، بالنظر الى ترابطها واتصالها ببعضها، لنرى كيف أنها تشكل معاً روح التشريع الاسلامي التي لو تبصرها الفقيه حقاً تيسر له إستخراج الأحكام الشرعية، خصوصاً في القضايا المستجدة، والله المستعان.

١/ كلمة السلام

السلام صبغة الحق التي تستهوي النفوس، والسلام هو الهدف الذي تنشده الأفئدة، بينما كلمة الحق هي روح السلام وحقيقته.

٢/ كلمة الحق (الحكم بالحق)

الحق هو الهدف الأسمى، وهو محور الايمان. فمن أسلم نفسه للدين آمن بالحق (أنى كان، وفيم تمثل). والحكم بالحق، سواء في مستوى التشريع أو على صعيد القضاء، هو هدف رسالات الله. والميزان هو ذلك الذي يستعين به الناس لمعرفة الحق، وفي الحديد بأس شديد من أجل إقامة الحق، وإنما يحكم النبيون عليهم السلام بالحق، والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله الحق، ومن لم يحكم بالكتاب فهو كافر أو ظالم أو فاسق، (بل تتمثل فيه هذه الصفات جميعاً).

ولأن الله يحكم بالحق ويفصل به، فإنه لا حكم إلاّ حكمه، ولا يجوز التسليم إلا له، وبالتوكل عليه يستقيم المؤمنون. ومن شواهد الحكم الحق الذي يفصله ربنا؛ قضاؤه على الظالمين بالهلاك في الدنيا، فلا ولي من دونه، ولا يشرك في حكمه أحداً.

وقد أنزل الله حكمه الحق في كتابه الفصل؛ أنزله مفصلاً، فكيف نتخذ من دونه حكماً؟ وعلى الناس إن اختلفوا في شيء، أن يردوه الى الله (عبر رسوله وكتابه)،

والمؤمنون (يفوّضون أمورهم الى الله و) يدعون ربهم أن يحكم بينهم (وبين أعدائهم) بالحق وهو خير الفاصلين.

والمؤمنون يسلّمون لأمر الله سبحانه، وإذا قضى الله ورسوله أمراً ما كان لهم الخيرة من أمرهم، ولا يجدون في أنفسهم حرجاً مما قضى، ويسلّمون له تسليماً.

والتسليم للرسول (ثم للائمة من بعده)، لأنه يحكم بالحق حيث قضى الله عليه ان يحكم بينهم بما أمر الله. وهكذا لا يجوز التحاكم الى الطاغوت، ولا يجـوز أن يدعو من أنـزل عليه الكتاب الـى نفسه، بل الى الله سبحانه، لأنهم يعلّمون الكتاب ويدرسونه (فكيف يدعون الى أنفسهم).

والجاهلية تحكم بالباطل (والطغاة مثل للحكم الجاهلي)، كما وأدوا البنات وقتلوا الأولاد، وأعطوا المال للشركاء من دونه، وساووا بين المجرمين والمتقين. بينما الدين يحكم بالحق و مثل ذلك أداء الأمانة والاحتكام الى ذوي عدل.

٣/ كلمة العدل (وقيمته المثلى)

وتعني الاستواء (واعطاء كل ذي حق حقه)، كالعدل بين الزوجين، والأمر بالعدل هو الأمر بالصواب.

وهكذا تضحى كلمة العدل مصداقاً لكلمة الحق، وتجلياً لها، وميراثاً للايمان بها. وتقابلها الفحشاء (لأنها التطرف والانحراف الظاهر عن مسير الحق)، كما يقابلها المنكر (لأنه ظلم وانحراف عن الحق ولو كان يسيراً)، ويقابلها البغي (لأنه تعدٍ على حقوق الآخرين).

ومن الحق والعدل كلمة القسط، ومعناها إيتاء الناس حقوقهم (بلا ظلم ولا بغي)، والله يحب المقسطين (الذين يعطون حقوق الناس ولا يبخسونهم أشياءهم).

وحتى الكفار (غير المحاربين) لا يمنع الله من الاقساط إليهم، وأسباب تطبيق العدل وإقامة الحق و القسط هي التالية:

أ- بعثة الرسل.

ب- انزال الكتاب وفيه شرائع الحكم.

ج- انزال (ووضع) الميزان (وأصدق مظاهره إمام يحكم بين الناس بالقسط).

د- انزال الحديد (فيه قوة وبأس لمواجهة العتاة والبغاة).

هـ - (تحمل المجاهدين) نصرة الله ورسله (بالحديد).

ومن أمثلة مظاهر إقامة القسط ما يلي:

أ- الوزن بالقسطاس المستقيم، وألاّ يخسر الميزان، وألاّ يطفف في المكيال، وأن يكتب كاتب بالعدل (فلا ينقص من كتابته شيئاً ولا يغش).

ب- أن يُدعى الولد لأبيه، فهو أقسط عند الله.

ج- وأن يشهد بالحق، ولا يكتم الشهادة به.

٤/ كلمة الأمن

الأمن من قيم الإيمان وغاية شائقة ينشدها كل إنسان، وهو ميراث الحق والعدل والقسط، وهو من تجليات السلام.

والإيمان يحقق الأمن بما يلي:

ألف: الإيمان بالله القوي العزيز يجعلك في أمن من خشية الناس، فتتحدى الطاغية، وتتحصن ضد الجبت ووساوس الشيطان ومخاوف الأرواح الشريرة.

باء: وبالإيمان يتوكل المؤمن على ربه، فلا يخش عوادي الطبيعة، ويتحدى الأخطار بعزم راسخ، ويسخّر ما في الأرض لمصلحته.

جيم: وبالإيمان يأمن المؤمن من المستقبل، فلا يخش الموت وما بعده، (إنما الموت عنده قنطرة تحمله الى رضوان الله ورحمته).

دال: وبالإيمان يسلم الناس من بعضهم البعض، وكل يحترم حق غيره، فيكونون في أمن من ظلم بعضهم.

هاء: والإيمان يورث التقوى، والتقوى حصن حصين تردع المؤمن من اقتحام الفواحش والخطايا وحرمات الناس، فيكون في أمن من عواقبها الخطيرة.

وهكذا يوفر الإيمان الأمن، ويزرع في النفوس شتائل السلام والسكينة والرضا والتفويض، ويقتلع جذور البغي والعدوان منها (ويطهرها من رجز الشيطان)، وترى ﴿**وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الاَرضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَماً**﴾.

واو: ويبرّد المؤمن ألم الخوف من القيامة عن نفسه بالضراعة الى الله، فيعيش يذكر الله قلبه.

زاء: والأمن المعاشي يوفره الدين للمؤمن بالاقتصاد في المعيشة، فلا قتر ولا سرف، وبالنشاط في اكتساب الحلال، وبالتعاون، وبالرحمة الإلهية.

حاء: وتوفر أحكام الدين الأمن، حيث يحُرّم الإسلام على الناس دماءهم وأعراضهم وأموالهم، فلا قتل ولا زنا ولا شهادة زور.

طاء: ويوفر الدين الأمن، حتى في عمر الناس، بترك اللغو والاستجابة للكلمة الصادقة.

ياء: ولا تدعو القرابة المؤمن الى تضييع حق زوجته وأولاده، بل يريدهم في أحسن حال حتى يكونون قرة عينه.

كاف: والشرك مصدر الخطر الأكبر لأنه سبب نقمات الرب وسطواته، والمؤمن في أمن من أخطار الشرك. وهكذا ترى الذين قالوا: ﴿**رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا**﴾.

والمؤمن يحذر من مكر الله، ويتحصن بالدعاء اليه والتقوى، بينما الكافر لا أمان له.

لام: ومن تجليات الأمن الإيماني (الملاذ الآمن)، حيث جعل الله الحرم أمناً (في البُعد المكاني)، والأشهر الحرم أمناً (في البعد الزماني).

ميم: والله هو المؤمن السلام، فمن اتبع رضوانه هداه الى سبل السلام، وآمنه من الأخطار المادية.

نون: وقد يوفر الله الأمن في الطبيعة بصورة غيبية؛ فإذا بالنار تصبح برداً وسلاماً على إبراهيم عليه السلام، وإذا بسفينة نوح عليه السلام تحمل المؤمنين وتنجيهم من الغرق، وينّجي بني اسرائيل من كيد فرعون، وهكذا..

عين: ومن أعظم تجليات الأمن الإلهي أن نفوس المؤمنين تطمئن الى ذكر الله، وتعمر بسكينة الإيمان، وببرد اليقين، وبروح الرضا، وتستمر هذه النعمة الى يوم القيامة، حيث يؤمن الله سبحانه المؤمنين من الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة بالسلام ويدخلونهم الجنة آمنين.

٥/ البراءة

أ- لكل إنسان حرمته وأمنه القانوني، ويُعتبر بريئاً حتى تثبت إدانته. والبراءة حق كل الناس﴿**وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى**﴾.

ب- ولأن التشريع الاسلامي يتسم بالرحمة والحكمة، فإنه لا يدين الجاهل والناسي والخاطئ والمضطر والعاجز.

ج- وإن فاعل الجريمة وحده يتحمل وزر ما كسبت يداه، ولا يجوز معاقبة المجموع بفعل فرد منهم حتى ولو كانوا أقاربه.

د- وللجريمة أركانها التي من دونها لا يُدان أحد بها، مثل عدم مشروعية الفعل وتحقق الفعل (في الخارج) وسببية الفاعل وحرية إرادته.

هـ- وهكذا يتوافر الأمن لكل فرد من ملاحقة القانون، إلا بعد توافر شروط الادانة بصورة قطعية، وبذلك يتحقق مجتمع السلام والحق والعدل.

٦/ حرمة النفس

وقد حرَّم الله النفس البشرية، وأحاط الحياة بسور منيع من التشريعات الجدية، منها:

أ- استفضاع القتل، حيث كتب الله بأنه من قتل نفساً بغير حق (قصاص أو فساد)، فكأنما قتل الناس جميعاً، وجزاءه جهنم خالداً فيها.

ب- البحث عن العوامل النفسية التي تطوّع القتل (كالحسد)، كما بين الكتاب في قصة جريمة قتل قابيل لأخيه هابيل.

ج- تشريع أقصى العقوبات ضد من يرتكب جريمة القتل (القصاص).

د- كذلك من يخل بالأمن ويسعى في الأرض فساداً، جزاؤه القتل.

هـ - لقد سوّل الشيطان وأولياؤه للمشركين قتل أولادهم، ولقد حرّم الله ذلك وسفّه فاعليه.

و- وربما قتل الناس أولادهم خشية الاملاق، فبيّن الله أنه هو الرزاق، فلماذا يقتلون أولادهم؟

ز- ومنهم من قتل ابنته خشية العار، فأنذره الرب باليوم الذي تسأل الموؤودة بأي ذنب قتلت.

ح- وأخذ الله ميثاق بني اسرائيل ألاّ يقتلوا أنفسهم. (وهكذا الميثاق الاجتماعي، لابد أن يتضمن هذا البند العام).

ط- وعلى أبناء المجتمع أن يشاركوا في بسط راية الأمن بالكشف عن المجرمين.

هذه وغيرها من التعاليم والوصايا والاحكام، تساهم في إشاعة الأمن في المجتمع، وتحقق كلمة السلام والحق والعدل باذن الله تعالى.

٧/ القصاص

أ- من أجل المحافظة على الحياة، وتوفير السلام والأمن، شرع الدين القصاص.

ب- ولا يُقتل بالمقتول غير قاتله. فلا يجوز لصاحب الدم الاسراف في القتل، ولكن يجوز له العفو أو القبول بالدية.

ج- وكما حرمة النفس، كذلك حرمة الأعضاء، فإن الجروح قصاص. وبذلك شرع الدين ضمانة عدم الاعتداء عليها.

د- وكذلك الحرمات قصاص. فمن انتهكت حرمته، اقتص حسب القانون بقدرها.

هـ - وكما للأفراد كذلك في الأمم، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى.

وبذلك وفر التشريع الاسلامي حصانة لحرمات الناس وحقوقهم بالقصاص.

٨/ الحصانة

ومن أجل المحافظة على حرمات المجتمع (حرمة النفس والعرض والمال)، ذكّر الدين بقيمة الحصانة في أبعاد شتى:

اولاً: لابد من تحصين المجتمع من الشهوات العارمة، التي تهدد أمن الناس بصورة مباشرة، أو غير مباشرة، وذلك عبر ما يلي:

أ- تربية النساء على التقوى (يُحصنَّ فروجهن).

ب- تربية الرجال على مثل ذلك.

ج- إشاعة سنة الزواج الدائم أو الموقت.

د- صيانة شرف المجتمع من التهم الجنسية.

هـ - تحريم اكراه الفتيات على البغاء.

و- منع السفاح واتخاذ الأخدان، والتشديد ضد الشذوذ الجنسي (وكل ما يؤدي الى الفحشاء من التبرج و..).

ز- تحصين البيوت من دخول الأجانب إلا بعد الاستيناس والسلام، وتحصين الغرف من دخول غير المحارم إلا بعد الأذن.

ثانياً: ويُصان المال والنفس، بما يلي:

أ- وقاية البيوت والمساكن بالحرمة، لكي لا تقتحم، وإنما تؤتى من أبوابها بعد الإذن.

ب- جواز الدفاع الشرعي عن النفس والمال والعرض (وعن اقتحام البيوت)، حتى ولو أدى ذلك الى فقأ عين المتلصص، ودرء خطر المهاجم، ولو ادى الى قتله. أما إذا أدى الى موت المدافع فهو شهيد.

ثالثاً: يُصان الطعام (بوضعه في سنبله) لأيام الحاجة، (وهكذا يُصان الرزق العام في مثل الصوامع لتوفير الأمن الغذائي).

٩/ الحفظ

أ- وكما كلمة الحصانة كذلك كلمة الحفظ، فانها قيمة مساعدة توفر وسيلة السلام والأمن. وكل انسان مسؤول عن حفظ حرماته التي استحفظ عليها.

ب- فالعلماء استحفظوا على كتاب الله، والملوك على خزائن الأرض، والناس أيمانهم، والنساء حقوق ازواجهن، والمؤمنون والمؤمنات الفروج الا على ما احل الله لهم.

١٠/ الطعام والشراب

أ- السلام هدف سام للمجتمع الاسلامي، وتوفير الرزق الكريم من أبرز دعائمه، والذي يعتمد على الطعام والشراب والسكن والصحة والتعليم.

ب- الرزق نعمة تهدينا الى عبادة الله وتدلنا على أنه غني حميد سبحانه، وعلينا شكر الله عليه (بعبادته)، وقد نكف عنه موقتا (بالصوم) تعبداً له وطاعة.

ج- واطعام الطعام (وسقاية الشراب) عبادة، يتقرب بها العباد الى ربهم (مثل الاضحية والكفارات)، وعند الحاجة الى الطعام يكون الانفاق على حبه ايثاراً وله ثواب عظيم، وكذلك عند المجاعة.

د- وتلك رذيلة: الكف عن الاطعام أو عن الحض على اطعام المسكين.

هـ- وكل الطعام حل إلا ما حرم الله (كالميتة ولحم الخنزير).

و- وعلى الانسان أن ينظر الى طعامه (ليعتبر وليشكر وليختار أطيبه)، وينبغي أن يختار أزكاه، وأن يأكل ويشرب ولا يسرف، ولا جناح على المؤمن فيما يطعم إذا اتقى وأصلح وأحسن فأصبح طعامه وقوداً للعمل الصالح.

١١/ دار السلام

من أجل توفير سبل السلام والحق والعدل، وتحقيق مثل التسامي والخير (مثل السعي والاجتهاد والتربية الفاضلة والتعاون والاستباق الى الخير)، فإن سنن الله وشرائعه تدعو الناس الى اتخاذ دار السلام التي تتمثل في البيت والبلد والمدينة والمدنية، وفيما يأتي نشير إلى أبعاد كل واحد منها. ومن المعروف أن البيت هو محل إقامة الأسرة، والبلد مجمع القرى، والقرية مجمع البيوت (ولعل المدينة أوسع من البلد، والمدنية هي المُثل المنسوبة إليها).

أولاً: البيت الاسلامي. وفي البيت حكم بالغة، أبرزها:

أ- أنه حصن الحرمات (حرمة النفس والعرض والمال)، كما أسلفنا الحديث. (فلابد من توفير ما يحصنه من سور وباب وحريم).

ب- إنه محل ساتر للأسرار ويحافظ على السوءات، والناس ينفردون بأسرتهم فيه، كما قد يجدون فيه كهفاً للاختلاء بأنفسهم.

ج- في البيت حماية الأخلاق وتطهيرها من الوساوس والثقافات الدخيلة والعادات السيئة.

د- يتبتل المرء في أرجائه الى ربه وذكره وعبادته.

هـ- يتعارف أعضاء الأسرة ببعضهم أكثر فأكثر، ويتكافلون ويتعاونون.

و- يتعلم أعضاء الأسرة في أجوائه، ويتبادلون الخبرات والأخبار، ويتربى الجيل الناشئ على ثقافة ابائه وحاجات مجتمعه.

ثانياً: البلد؛ وخير البلاد ما كان إطاراً للمثل العليا والقيم الحضارية، وهي:

أ- السلام والحق والعدل والأمن.

ب- نظام صائب وثابت ومستقر، وإمام عادل.

ج- توفير الثمرات (المنتجات الضرورية).

د- والأهم من كل ذلك: الايمان والتقوى ومكارم الأخلاق.

ثالثاً: الدار (الوطن)؛ ودار المجتمع هي مركز تجمع البلاد، والوطن المختار لهم، وقد يكون اقليماً أو دولة أو أمارة (حسب الحاجات المتغيرة).

ودار الاسلام ذات حدود جغرافية، يحكمها إمام ونظام، (ويتبادل أهلها الثمرات والخيرات، ويتقاسمون أفراح الحياة ويتعاونون ضد أتراحها).

رابعاً: المدنية الايمانية؛ والحديث عن المدنية الاسلامية، يوجز في عدة نقاط:

١/ تتميز المدنية الاسلامية بالصفات التالية:

أ- بالتوحيد الخالص عن شوائب الشرك بالجبت والطاغوت؛ فلا طبقية، ولا عنصرية، ولا قومية طاغية، ولا استسلام للاستكبار أنى كان نمطه، ولا ملك عضوض، ولا حكم إلا لله وللأئمة الهداة من عباده الصالحين.

ب- تتمحور المدنية الاسلامية حول بيت الله، فهو جامع وجامعة ومجتمع.

ج- وهي مدنية طاهرة من الفواحش، ما ظهر منها وما بطن؛ فلا ربا ولا زنا ولا شذوذ ولا تبرج كالذي في الجاهلية الأولى، ولا فحش ولا سباب ولا غيبة وتهمة ونميمة، ولا أي من الفواحش الظاهرة، ولا حقد ولا حسد ولا كبر ولا غرور ولا حمية ولا فخر إلا بمكارم الأخلاق..

د- وهي مدنية الطهر من كل نجس أو رجس؛ فلا خمر ولا ميسر، ولا لحم خنزير ولا ميتة وما أشبه، ولا شيء مما يضر بصحة الناس.

هـ- وتتسم المدنية الاسلامية بالطهر الاقتصادي؛ فلا غش ولا تطفيف ولا احتكار ولا حرمان.

٢/ للمدنية الاسلامية ركيزتان؛ الصلاة والثمرات.

أ- فاقامة الصلاة تصبغ الحياة فيها بصبغة الله، أوليست الصلاة صلة العبد بالرب؟ وتنتظم سائر صلات الناس (ببعضهم؛ بالطبيعة؛ بالأجيال التي سبقت أو التي تلحق، تنتظم كلها) عبر صلتهم مع ربه.

ب- أما الوفرة في الثمرات (المنتجات)، فلأن النظام الثقافي والسياسي والاقتصادي السليم يجعل الانتاج الداخلي وفير، كما يشجع سائر الأمم على التعامل مع المسلمين بصفتهم الشريك الأمثل.

٣/ ليست المدنية الاسلامية عدوانية؛ فأنى بلغت قوتها وهيبتها ووزنها السياسي والاقتصادي، فانها لا تستغل كل ذلك في الاستكبار على الناس والبغي عليهم، بل الى نشر لواء العدل والدفاع عن المستضعفين وشكر الله على نعمائه، وذلك باشراك سائر الناس فيها، ومساعدة المحرومين منهم، ونشر العلم والفضيلة في العالم.

٤/ ومحور المدنية الاسلامية الإمام العادل، الذي يغفر الله به للمسلمين ذنوبهم.

٥/ على المدنية الاسلامية تجنب كل أنواع الظلم، لأن الظلم يأتي على الحضارات (كما العاصفة تهب على الهشيم)؛ سواءً كان ظلم الذات كالفواحش، وهكذا بادت حضارة قوم لوط وأصحاب الأيكة؛ أو البغي على الناس، كما بادت حضارة عاد قوم هود.

١٢/ الصحة

أ- لا يتحقق السلام من دون توفير الصحة العامة للمجتمع، وهي قيمة سامية تسعى شرائع الدين لتحقيق المزيد منها.

ب- وعموماً الاسلام دعوة الله للانسان بالحياة الحسنة في الدنيا والحياة الطيبة، بل طوبى الحياة (وهي تتحقق بالعافية التي بها تحلو الحياة وتهنأ).

ج- وتجنب الرجز والنجس والتماس الطهر من عوامل العافية، والاسلام يأمر بكل ذلك عبر الطهارات وتحريم الخبائث وكل نجس.

د- ومن عوامل الصحة؛ القصد في الطعام والشراب دون سرف، والبحث عن الطيبات واختيار أزكى الطعام، وتجنب ما حرم من الخبائث والدم والميتة ولحم الخنزير.

هـ- ومن عوامل الصحة جملة فرائض الدين؛ كالصلاة والصيام والحج والتهجد بالليل والوصايا الأخلاقية التي تورث السكينة والعافية.

١٣/ التعليم

أ- من أجل تسامي البشر وتكامله المعنوي والمادي، لابد من اشاعة التعليم.

ب- والدعوة الى الله ورسالاته والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بعض أبعاد التعليم.

ج- وعلى الناس جميعاً واجب التعليم، إلا أن الأنبياء هم القدوة في التعليم، ومن بعدهم الأئمة والعلماء.

د- ولقد نهى ربنا سبحانه حملة الكتاب من كتمانه.

هـ- وعلى الآباء والأرحام أن يهتموا بتعليم الناشئة، وفي بعض المراحل يكون التعليم واجباً عليهم، إذا كان من النفقة الضرورية عرفاً.

و- وعلى الدولة الاسلامية أن توفر للناس فرص التعليم، وبالذات فيما يتوقف عليه شؤون الدين أو الدنيا.

١٤/ العلاقات الاجتماعية (الاخوة الايمانية)

أ- إنما في محيط المجتمع المؤمن، تتحقق قيم السلام والحق والعدل والأمن والرزق الكريم. ولتحقيق هذا المحيط، لابد من تمتين العلاقة بين المؤمنين لتبلغ مستوى الاخوة.

ب- وإنما بالاعتصام بحبل الله، متمثلاً في كتابه ورسوله وبالدفاع عن بعضهم والتعاون فيما بينهم على البر والتقوى، تتحقق هذه الاخوة.

ج- والمؤمنون اخوة؛ فلا تمييز بينهم، ولا يسخرون من بعضهم، ولا يسيؤون بأنفسهم الظن، ولا يتجسسون على بعضهم، ولا يغتابون.

د- وتراهم يحبون من هاجر إليهم، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ويستغفرون لمن سبق منهم الى الايمان، ويدعون ربهم ألاّ يجعل في قلوبهم غلاً للذين آمنوا.

هـ- وهم يسعون لاصلاح ذات بينهم، ويدافعون عن مظلومهم ضد الفئة الباغية.

١٥/ القيمومة (الولاية)

أ- من أجل تحقق مُثُل الخير، لابد من رجال قوامون بها. وقوام المجتمع، العقل والدين والمال والكتاب والميزان والسلاح. والرجال الذين يتولون هذه الشؤون، هم القوامون.

ب- والقسط هو الهدف، والشهادة بالحق وسيلة، والمؤمنون جميعاً مسؤولون ليكونوا قوامين بالقسط، قوامين بالشهادة لله.

ج- والأنبياء والأئمة ثم العلماء والمجاهدون، هم أولى الناس بالقيام لله لإقامة القسط.

د- والقوام في البيت هو الرجل، فهو أكثر حكمةً ونشاطاً، كما أنه ينفق من أمواله.

١٦/ البنون

أ- الولاية الإلهية التي تحيط بالتجمع الايماني، تشكل آصرة معنوية تشد أعضاءه ببعضهم شداً. وفي ظل هذه الولاية تتشكل المؤسسات الفطرية، التي أمر بها الله سبحانه؛ كالأسرة، وقد سبق الحديث عن جانب من علاقة أعضاء الأسرة ببعضهم (الزوجين) وبقي جانب البنين.

ب- البنون زينة الحياة الدنيا، وينبغي أن نجعلهم من الباقيات الصالحات للآخرة.

ج- وعلينا ألاّ نفتتن بهم ولا نطغى، ونتحمل مسؤوليتهم بالانفاق والتربية والتعليم، وبالدفاع عنهم (حتى الشهادة دونهم أو خوض غمار الحروب من أجلهم)، كما ندعو الله سبحانه باصلاحهم.

د- ولكن لا يجوز أن نقدم حب البنين على حب الله ورسوله وجهاد في سبيله.

هـ- وبكلمة؛ علاقتنا بالبنين تسودها قيم الحق ومثل السلام وكلمات التكافل وأصول التعاون والرقي.

١٧/ صلة الأرحام

أ- وفي ظل الولاية الإلهية تتواصل عرى المجتمع المؤمن، وتكوّن بيئة مناسبة لتنامي مُثُل الخير (كالسلام والحق والعدل).

ب- وهكذا أمر الله سبحانه بصلة الارحام، ومن مصاديقها إيتاء حقهم والإحسان إليهم.

ج- وصلة الرحم تعمّر البلاد وتنمّي الثروة وتنسئ في الآجال، وهي من أهم ركائز المدنية الاسلامية.

د- وفي محيط الأسرة والعشيرة، ينشط المؤمن بالدعوة الى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتربية والتعليم والتشاور وتبادل الخيرات.

هـ- وفي إطار العلاقة الأسرية، يتم التعاون والتكافل والتراحم والتوادد.

الفصل التاسع

معالم الكرامة في حياة الإنسان

تمهيد

لكي تتواصل كلمات الوحي في وعينا، ولكي نعرف الصلة بينها، وتتبلور لدينا في صورة منظومة متكاملة من القيم التي أصلها ثابت وراسخ في قاعدة التوحيد وفروعها في السماء وثمراتها في معرفة الحقائق الخارجية؛ لابد أن نحدد القيم التي نريد بحثها هنا، وهي قيم المسؤولية، وقيم الشرف، وقيم التطلع، وأخيراً الفضائل التي هي زينة الإنسان.

وهذه القيم ترسم بمجموعها صورة الكرامة البشرية؛ وأصلها فضل الله على الإنسان، إذ كرمه وسخّر لـه ما في الأرض، ووفر له فرص العروج الى أسمى الدرجات. وللكرامة ثلاث ركائز، وثلاثة تجليات. أما الركائز فهي:

١/ الركيزة الأولى تبدأ من المسؤولية التي حمّلها الرب البشر، حيث رزقهم العقل والارادة، ووفر لهم فرص الهداية الى الخير، ثم أرسل إليهم رسله بالكتاب والبينات. ولكنه سبحانه لم يكرههم على الهدى، بل دعاهم الى الإيمان به بكامل وعيهم وحريتهم.

٢/ ومن ركائز الكرامة التي منحها الرب للناس، أنه بعث إليهم من أنفسهم رسلاً مبشرين ومنذرين ليعلموهم الكتاب والحكمة، وليزكوهم وليكونوا لهم قدوات الى الخير والصلاح.

٣/ ومن تلك الركائز، أنه سبحانه هداهم الى السبيل القويم بالبينة وبالرسول وببقية الله وبما أمرهم من نصرة الرسول.

هذه ثلاث ركائز أساسية للكرامة الانسانية. أما تجليات هذه الكرامة فهي:

أولاً: الصدق الذي هو شرف الإنسان، ونابع من إحساسه بالكرامة والعزة. ويتجلى الصدق في الوفاء بالعقود، والتمسك بالمواثيق.

ثانياً: التطلع؛ إذ يتصل طموح البشر بمدى إحساسه بشخصيته وبكرامته، ومن تجليات التطلع الايمان بوحدة البشر ومساواتهم في أصل الخلقة، وأنه لا فضل لأحد على أحد إلاّ بالتقوى. ومن تجلياته التنافس والاستباق الى الخيرات، ومن تجلياته القوة والسلطة.

ثالثاً: وأسمى تجليات الكرامة الفضائل التي يتحلى بها عباد الله المتقون، من السكينة والطمأنينة وكظم الغيظ والحلم والعفو والتواضع والنصيحة وسائر الفضائل.

وفيما يلي نعرض فصول هذه الأبواب ببعض التفصيل.

ركائز الكرامة

١/ المسؤولية سمة الإنسان

في البدء نتحدث عن الحرية باعتبارها أرضية المسؤولية، والحديث عنها من منطلق فلسفي يسفه كل التبريرات التي تنفي المسؤولية مثل فكرة الجبر والحتمية. وتنقسم مسؤولية الإنسان الـى ثلاث شعب؛ المسؤولية الشخصية، والملكية التي تعني مسؤوليته عن الأشياء، والولاية التي تعني – فيما تعني – مسؤوليته عن الآخرين.

أ- إن الكرامة البشرية تقتضي مسؤوليته عن تصرفاته. فالانسان في الشرائع الإلهية جميعاً، وفي كل الأنظمة والثقافات البشرية إنه مسؤول عن تصرفاته. ومن دون الايمان بقيمة المسؤولية، ينهار نظام المجتمع البشري؛ بل وينهار ما يتميز به عن الحيوانات من ثقافة وحضارة.

وتكريس قيمة المسؤولية، أعظم إنجاز لأي تشريع. وبحق أقول: الدين الاسلامي قد كرّس هذه القيمة في ثقافة المسلمين وفي مختلف أنظمتهم بأفضل

صورة ممكنة، إذ سد منافذ التهرب منها والاحتماء الى كهف الظنون والتمنيات (مثل فكرة الفداء أو فلسفة الجبر والتفويض أو صنمية القدر أو أية صنمية أخرى).

كما أن الدين بصّر الإنسان بالجزاء؛ عاجلاً في الدنيا، وآجلاً في الآخرة، مما جعله يتقي الفساد والفسوق. وكتاب ربنا حقاً كتاب المسؤولية.

ب- لقد كرّم الله بني آدم حين سخّر لهم ما في الأرض وحملهم في البرّ والبحر، وحين رزقهم من الطيبات. وهكذا بدأت هيمنة البشر على الأرض وامتلاكهم لما فيها من أشياء وأحياء؛ فبالعلم والقدرة وسائر المواهب التي أعطاها الرب للبشر استطاعوا أن يعمروا الأرض، ويمتطوا صهوة الريح، ويذلّلوا طاقة النار والذرة، ويلينوا الحديد لمآربهم..

وهذه الملكية - التي هي من تجليات كرامة الله الممنوحة للبشر – ما هي إلا صلاحيات محدودة، ذات هدف محدّد هو ابتلاء الإنسان وبعثه نحو صفات الكمال التي يقتضيها شكر الله.

ج- والناس مسؤولون عن بعضهم في إطار الولاية الإلهية؛ فالمؤمنون أولياء بعضهم والله وليّهم والرسول صلى الله عليه وآله وليّهم بإذن الله، ومن بعده الأئمة الأطهار أولياؤهم وشهداء عليهم.

والولاية تعني القرب الذي يورث الأقرب الحق في تولي أمر من يتولاه.. وإذا كان المؤمن قريباً من الله، فإن ولاية الله تشمله، فهو الذي يتولى الصالحين من عباده. وقرب المؤمن من ربه ميراث معرفته به، وتخلقه بأخلاقه وسلوكه الصاعد الى رضوانه.

وإذا كانت ولاية الله راسخة في وجدان المؤمن، فإنها تصبح الميزان لكل علاقاته. فمدى قربه أو بعده عن الناس يتحدد بمدى صلتهم بالله؛ فكل من كانت صلته بالله أقرب كانت ولاية المؤمن لـه أوثق.. الأنبياء والأوصياء والصديقون ثم الأمثل فالأمثل من الصالحين، هم الذين يمنحهم المؤمن ولايته، كل بدرجة قربه من ربه..

فكل ولاية عند المؤمن شعبة من ولاية الله تعالى، ومقياسها الحق ولاية الله سبحانه.

٢/ علىخطى أنبياء الله

من أجل تحقيق المزيد من كرامة البشر، يجتبي ربنا من عباده رجالاً أكرمين، ويجعل فيهم رسالته ويعصمهم ويؤتيهم الحكمة والنور والتأييد، ثم يأمر عباده باتباعهم والتأسي بهم وحبهم.

والرسل هم قمة هرم البشرية، والصديقون والشهداء هم ولائج بيننا وبين الرسل .

وهكذا لكي يهتدي الناس الى سبيل الله القويم، ولكي ينالوا الكرامة، لا بد أن يتبعوا من هداهم الله واجتباهم. والإتباع أساساً لكتاب الله، ثم لأنبياء الله، ثم لأوصيائهم، ثم للسابقين.

ومن حقائق الإتباع التأسي، حيث يجبر البشر كسر عزيمته وخورها بالتأسي بالسابقين من القدوات الرائدة، وقدوتهم المثلى رسول الله صلى الله عليه وآله الذي أمرنا الله سبحانه بالإقتداء به.

وأسمى صور الإتباع والتأسي ذلك الذي يفيض من ينبوع الحب، لأن الحب تناغم وانسجام. ويتجلى حب الإنسان لربه في الإنابة إليه، والرضا بما يقدره ويقضيه، والشكر لآلائه، والشوق إلى لقائه.

وإذا أحب الإنسان ربه أطاعه إطاعة الأحرار، وحتى إذا ذهب الى لقائه كان في جنته وبين عباده في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

ومن حب الله يفيض حب المؤمن لأولياء الله والصالحين من عباده، حتى يكون سلماً لمن سالمهم وحرباً لمن حاربهم..

٣/ السبيل القويم

من القيم المثلى في حياة الإنسان، ومن تجليات كرامته عند ربه، أن يكون على بصيرة من أمره ويقين وبيّنة. فما هي سمات البصيرة وشواهد البيّنة عند البشر؟

نستوحي من آي الذكر أنها التالية:

أولاً: إن البيّنة من عند الله سبحانه، وليست من ذواتنا نحن البشر.

ثانياً: ومن أُوتي البينة تنـزلت عليه الرحمة.

ثالثاً: ويشهد له من يصدقه من الشهداء.

رابعاً: وتشهد بصدقه حقائق التاريخ وسنن الله فيه.

خامساً: وفعله يشهد على صدق قوله.

سادساً: إنه يسعى الى الاصلاح ما استطاع إليه سبيلاً.

سابعاً: إنه يتوكل على ربه (ويقتحم غمار التحديات الكبرى).

وتتجلى البينة عند الإنسان الذي أوتي البصيرة في دينه، إنه يسعى أبداً للآخرة التي هي البقية التي إدخرها الله للصالحين. فهو يتسامى عن الدنيا وحطامها، ويتجاوز لذات الدنيا وشهواتها، ويصبر على المكاره إبتغاء تحقيق بقية الله التي هي خير.

كما تتجلى البينة عنده بالولاية التامة للرسول والأئمة والمؤمنين، ولا يكتفي بالولاية الظاهرية بل يترجم ولايته الى الدفاع عن قيمه ونصرة من يتولاهم؛ لأن في هذه النصرة تحقيق قيم العدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولأنها بند أساسي من بنود الميثاق الذي أخذه الله على النبيين أنفسهم، وإن النصرة حق من حقوق المؤمنين على بعضهم.

والرسول والأئمة هم السبيل القويم الذي هدى الله له المؤمنين، والله سبحانه هو الذي يهدي الى السبيل القويم؛ فإما أن يكون الإنسان شاكراً فيتبعه، وإما أن يكون كفوراً فيجتنبه والعياذ بالله.

تجليات الكرامة

أولاً: الصدق شرف الإنسان

تتجلى كرامة الإنسان في صدقه في قوله، وصدقه في عهده، وصدقه في مواقفه عند الشدة. ذلك لأن صدق اللسان دليل صدق القلب، وميراث إحساس النفس

بالكرامة والشرف الذاتي وسلامتها من العقد بكل ألوانها. فالحقد والحمية، والكبر والأنانية، والذل والمهانة، والجبن والطمع، وسائر الفواحش الباطنة تورث الكذب، وتمنع الصدق.

والصادق لا يخون، ولا ينقض عهده، لأن الخيانة والغدر دليل ذل النفس وخلوها عن الشرف والكرامة.

والصدق هي صبغة العلاقة بين أبناء المجتمع المسلم. وهكذا تتجلى صفة الصدق في العهود والعقود وفي الوعد والكفالة.

من هنا نسلط الضوء على أحكام العقود تحت عنوان: (كلمة الصدق والوفاء بالعقود)، وذلك في خمسة أقسام:

١- بصائر الوحي في العقود

من خلال التدبر في آيات القرآن الكريم، نستوحي البصائر التالية:

أ- إن الأصل في العقود وجوب الوفاء بها حسب ما تراضى طرفاها بها، ولا يجوز التخلف عنها لأن الله أمر بالوفاء بها كما أمر بالوفاء بسائر العهود.

ب- وأنه لا فرق في العقود بين التي كانت شائعة في عهد الرسول أو الأئمة عليه وعليهم صلوات الله، أو التي استحدثت أو سوف تستحدث، كما لا فرق في طهارة الماء بين الذي نزل من السماء في عهد الوحي أو الذي ينزل اليوم أو غداً.

ج- هناك حدود بيّنها الشرع للعقود، بعضها يتصل بأهلية المتعاقدين؛ كأن لا يكون سفيهاً أو مكرهاً، وبعضها يتصل بالعقد ذاته؛ كأن لا يكون ربوياً، وبعضها يرتبط بمحل العقد؛ كأن لا يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير. وهذه الحدود بيّنها القرآن، وفُصلت في السنة، وشرحها الفقهاء.

٢- عن المكاسب المحرمة

الأصل في التجارة إطلاق حرية الإنسان فيها إذا كانت بتراض، وكانت تقع ضمن دائرة الشريعة، وفي إطار الأحكام؛ ومنها حلية المحل؛ أما إذا كان المحل حراماً، كبيع ما حرم الله، أو الاستيجار لما فيه الفساد محضاً، فلا يجوز.

وثمة حديث مفصل عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام مروي في كتاب (تحف العقول) يبين ما يجوز وما لا يجوز من المكاسب في أربعة شعب؛ الأولى:

عن الولايات التي تعني التوظيف في الدوائر الحكومية، الثانية: عن التجارة وتبادل السلع، والثالثة: عن الإجارة وتقديم الخدمات، والرابعة: عن الصناعة.

ومن المكاسب المحرمة، العقود المحرمة التي تحتوي على زيادة باطلة؛ أي الربا. وللوقوف على أحكام الربا؛ سواء في الدين، أو في العقود، أو بيع الصرف، راجع الجزء التاسع، صفحة (١٨٩) من هذه الموسوعة (التشريع الإسلامي).

٣- شرائط الصيغة في العقد

يشترط فيها أمران أساسيان؛ هما التنجيز والتعبير؛ أي وجود مظهر خارجي للعقد الذي هو إلتزام قلبي

٤- شروط المتعاقدين

يشترط الفقه في طرفي العقد عدة شروط تتصل بأهلية المتعاقد؛ وهي: البلوغ والعقل وحرية الإرادة (عدم الإكراه) والملك (حق التصرف).ويجمع الشرطين الأولين الرشد، حيث يتحقق بالبلوغ والعقل، والذي يتنافى مع صحة عقد الصبي غير المميز والمجنون؛ بل حتى المميز والسفيه.

٥- عيوب الرضا

لكي يتم الرضا عن العقد، لابد من تطابق النية مع الواقع. وعدم التطابق قد يكون كلياً، بحيث لا يمكن تصحيح العقد أبداً، وقد يكون جزئياً فيصح البيع بعد إكمال الرضا مجدداً. وهذا البحث يتناول:

ألف: تحديد المحل في العقود وتجنب الضرر والجهالة.

باء: بحث الخيارات، حيث يختل الرضا جزئياً فتعطى فرصة للمتعاقد بفسخ العقد إذا شاء، أو الرضا به.

ثانياً: العهود والمواثيق

١- اليمين

العمل باليمين، من آفاق كلمة الصدق التي تنبعث من إيمان الإنسان وشرفه وثقته بنفسه واحترامه لها. واليمين هو عقد القلب (بالالتزام)، ولا يؤاخذ الله عبداً على اللهو في الأيمان. أما متى يجوز أن نحلف يميناً بالله، ومتى نكف؟ جواب ذلك؛ عند

الحاجة لا بأس بالقسم، كما إذا شككنا في الشهداء على الوصية. ولكن لا نحلف على ترك البر والتقوى والإصلاح، ولا يجوز أن نحلف بالله على ما لا نعمل به (كما كان يحلف الكفار على أنهم سوف يؤمنون لو جاءتهم آيات معينة).

ونقض الأيمان، بالذات تلك التي أكدها الإنسان وجعل الله عليها كفيلاً، إنه يهدم بنى المجتمع الإسلامي. ذلك لأن الثقة المتبادلة هي أهم رصيد يملكه هذا المجتمع في دعم علاقاته ببعضهم، وشرف التوحيد أهم قاعدة لتنظيم حياتهم الجمعية.

٢- الوعد

من شرف المؤمن وكرامته عند نفسه وصدقه وسموه، وفاؤه بوعده، كما يفي بعهده ونذره وما انعقدت عليه يمينه.

والله صادق الوعد، والرسل صادقون فيما يعدون الناس، والنبي إسماعيل عليه السلام ضرب به مثل في صدق الوعد حين انتظر من تواعد معه سنة كاملة، وكذلك نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله ذو الخلق العظيم كان في منتهى الصدق بوعده، أفلا نقتدي بهم؟

٣- الكفالة

والكفالة تعني مسؤولية الشخص عن رزق شخص آخر، كما تعني ضمانة المؤمن لشخص آخر ووصل ذمته بما في ذمة ذلك الشخص. وهي تتصل بشرف المؤمن كما العهد والعقد واليمين، فإن واقعها إشغال ذمة الكفيل بمسؤولية جديدة يتحملها بوعيه. ومن لم يتحمل مسؤوليته، فإنه يخلّ بشرفه..

ولأن المؤمن يحترم نفسه ويكرمها، فإنه لا يخفر ذمته في الكفالة، كما في سائر مصاديق التعهد والإلتزام.

ثالثاً: التطلع معراج الإنسان

ومن أبعاد كلمة الكرامة في حياة المؤمن التطلع، فكلما كان إحساس المرء بشخصيته وعزة نفسه أكبر، كلّما كانت همته أعلى وتطلعه أسمى. من أنا؟ إذا عرفت نفسي ذلك المخلوق الذي خصه ربه بالكرامة وسخّر لـه ما في الأرض

جميعاً، ودعاه الى أن يعبده لا يعبد أحداً سواه حتى ينال كرامته، ويرتحل غداً الى دار ضيافته، ويكون جليسه في مقعد صدق.. إذا كانت هذه هي رؤية الإنسان عن نفسه، فإنه لا يقف عند حد في علو الهمة وسمو الهدف.

١- آفاق التطلع في القرآن

لكي يسمو الإنسان الى أعلى مراتب الكمال، ويحقق تلك الكرامة التي منحه الرب تعالى إياها، ولكي يبلغ المنزلة الرفيعة التي خلق لها، ويكدح جاهداً الى ربه حتى يأتيه اليقين، ويحظى بلقاء ربه راضياً مرضياً حتى يتبوء عنده في مقعد صدق عند مليك مقتدر؛ لكل ذلك يكرّس المنهج القرآني قيمة التطلع في نفس الإنسان ويتدرج معه في ثلاث مراحل.

الأولى: إستثارة فطرته التي انطوت على التسامي والتطلع.

الثانية: فك الأغلال التي تمنعه من تحقيق تطلعاته.

الثالثة: تذكيره وتعليمه بقائمة التطلعات السامية التي يمكنه بلوغها.

٢- الانسان فوق الفروق

ومن آفاق التطلع في حياة البشر تعاليه عن الحواجز المادية التي تفصله عن أقرانه، فحيث كان أصل البشر من آدم، وآدم من تراب؛ فلا الثروة ولا القوة ولا العلم والجاه والجمال ولا أية قيمة مادية أخرى تميز الإنسان عن نظيره الإنسان، أو تجعل إنساناً رباً والآخر عبداً.

وإنطلاقاً من هذه البصيرة التي تكرس كرامة البشر وتجعل الانسانية أصلاً ومحوراً وقاعدة، ينفي الدين الحنيف أي نوع من التمايز بين بني آدم؛ فلا عنصرية ولا طبقية، ولا طغيان في القومية ولا علو في الوطنية، ولا حمية جاهلية من أي مصدر كانت.

وبتجاوز الحواجز التي تفصل بين البشر، يمهد السبيل نحو التعاون الذي أمرنا به الرب سبحانه شريطة أن يكون على البرّ والتقوى وليس على الإثم والعدوان.

٣- المكارم قصب السبق

ومن آفاق التطلع الاستباق إلى الخيرات فإنه يثير طموح كل فرد لبلوغ أسمى القمم في حقل الخير. وجوهر الإستباق الاستفادة من عامل الزمن وكل الطاقات المتاحة في كسب قصب السبق. وهكذا تتصل هذه القيمة بأهمية الوقت، الذي هو متداخل مع حقيقة الخلق، حيث إن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام وقدرها تقديراً دقيقاً، وجعل الشمس والقمر بحسبان، وجعل لهما وللأرض أجلاً كما جعل لكل أمة أجلاً ولكل إنسان أجلاً مسمى. وهكذا عَرَّفَنا رَبُنا بقيمة الوقت.

ومن دون تدبير الإنسان لحياته واستفادته المثلى لطاقاته، فإن أجله يباغته دون أن ينتفع بعمره ووقته . من هنا ترى المؤمن يحاسب نفسه ويقدر ساعاته حسب حاجاته، ويحرص على عمره أكثر مما يحرص على ماله. ولأجل ذلك تراه يبحث أبداً عن التقدير السليم الذي ينبعث عن حكمة الرب في تقدير كل شيء، وعن سننه الجارية في خلقه. ومن التقدير السليم إعطاء كل شيء حظه، فالتقسيم الدقيق للطاقات ولساعات العمر، قيمة أساسية للاستفادة المثلى من الامكانات، وهي بدورها وسيلة للتقدير السليم، وهو بدوره طريق الى المسارعة وكسب قصب السبق، والله المستعان.

٤- القوة في خدمة الحق

ومن آفاق التطلع بلوغ القوة حيث إن إحدى الغايات السامية، التي تعتبر في الواقع الهدف الأسمى لكل أمة، هي القوة التي تجعل الأمة متمكنة في الأرض وشاهدة على سائر الأمم.

ولا يغيب عنا أن الله سبحانه هو القوي العزيز، ومن قوته يستمد الرسول والمؤمنون قوتهم. فهو الذي ينصر رسله والذين آمنوا، ويمكنهم في الأرض. ومن هنا كانت التوبة الى الله، والتوكل عليه، والاستعانة به، سبباً رئيسياً لقوة المؤمنين.

أما ركائز القوة في الحياة، فهي الحق والحكمة والتعاون والتمسك بالميثاق والمال والرجال والبأس الشديد.

وتنفع القوة في التمسك بالدين الحق، وفي الدفاع عن النفس، وفي القيام بما يقيم حياة البشر. ولكن القوة تضر إذا خالفت الحق، وتنهزم أمامه في النهاية أنى كانت شديدة.

رابعاً: الفضائل زينة الإنسان

والكرامة الإلهية للإنسان تبلغ ذروتها مع تزكية الإنسان نفسه لتتحلى بالفضائل، فتبلغ السكينة والرضا، وتتربى لدخول الجنة حيث يدعوها الرب إليه ليدخلها في عباده.

وفي الحديث عن الفضائل نختار طائفة منها، وهي التي لم نتحدث سابقاً عنها، وهي:

1- لا للخوف .. لا للحزن

ماذا يعني الحزن، وما علاقته بالخوف، وما هي أسبابه، وكيف نتجنبه؟

الحزن حالة الكآبة التي تطرء على النفس بعد فوت شيء منها، أو على فعل شيء يندم عليه. أما الخوف فهو خشية الانسان من فوت شيء. الحزن قد يكون من فراق عزيز (كما حزن يعقوب عليه السلام لفراق يوسف عليه السلام)، أو فقد بلد (كما حزن صاحب النبي في الغار)، أو ضياع فرصة خير (كما حزن المؤمنون عندما فاتهم الجهاد).

وقد يكون الحزن على إنسان بسبب كفره (كما يحزن الأب إذا انحرف إبنه). وقد يكون الحزن على ما فات الانسان من خير. ويتجنب المؤمن الحزن إذا بثه الى الله سبحانه، وكذلك بالتوكل عليه وبالصبر، وبما يعوضه الرب من الجنة.

٢-كظم الغيظ عزّ

المؤمن يغلب هوى نفسه، بينما الهوى يغلب غيره. والغيظ يهيمن على قلب البشر، ويحجب عنه نور العقل والعلم، ويشط به عن الحكمة والحلم؛ بينما المؤمن يتعالى على غيض نفسه، ويتجرَّع الغصة، ويتسم بالحلم والحكمة في التصرف.

٣- الحلم زين العلم

الحلم من جنود العقل وتجليات الايمان، وهو زين العلم. وإذا رجح العقل تعالى صاحبه على المتغيرات، وتمسّك بالسنن الثابتة. والله حليم ذو أناة، فلا يعجل بأخذ المذنب، بل يمهله بفضله لعلّه يتوب.

وقورن إسم الحلم بأسماء الله الحسنى؛ الغفور، والعليم، والغني. والحلم من صفات الأنبياء، وكان النبي إبراهيم عليه السلام قدوة فيه، كما تجلت عند النبي شعيب عليه السلام، وعند النبي إسماعيل الذبيح عليه السلام.

٤- العفو تاج المكارم

العفو ميراث التقوى، والله أعد للمتقين جنات عرضها السموات والأرض. وعلى من أوسع الله عليه من فضله، أن يوسع الناس فضلاً وعفواً، ليغفر الله له. وقد يكون أقرب الناس إليك فتنة لك (كالزوجة والأولاد)، فعليك أن تتعامل معه بحذر وبعفو وصفح. ومن يرجو العفو من الله فليصفح عن الناس. والله سبحانه قد سمح لمن أُسيء إليه أن يرد إساءته بمثلها، ولكنه رغبه في العفو والاصلاح، ووعده أجراً من لدنه. والعفو من خلق النبي صلى الله عليه وآله، فأحرى بنا أن نقتدي به. وحتى الكفار ينبغي أن يصفح المسلمون عنهم (في ظروف الهدنة)، حتى يأتي الله بأمره (لجهادهم). والتائب من المشركين يحظى بفرصة العفو عنه. وعلى من شمله العفو أن يتبعه بمعروف (فلا يستغل العفو في الاسترسال في الظلم).

٥- التواضع شرف

ماهي حقائق التواضع، وكيف تتصل بكلمة الصدق وروح الايمان، ولمن يتواضع المؤمن؟

الإجابة عن هذه الأسئلة تعرفنا بهذه القيمة، كما تزيدنا وعياً بآفاق الشرف الانساني الرفيع.

الف: حقائق التواضع

الضعة في النفس تورث الكبر، لأن الحقير في نفسه يحاول جبر إحساسه الداخلي بالصغار، بإظهار الرفعة والعلو، وإرتداء ثوب التكبر الفضفاض. وهكذا جاء في الحديث المأثور عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: "ما من رجل تكبر أو تجبر إلا لذلة وجدها في نفسه"[1]. ولكن التواضع غير الضعة، إنه إحساس عميق بالرفعة وإحترام النفس، ومن يحترم نفسه يحترم الآخرين، وهكذا كان التواضع ميراث شرف النفس، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "لا حسب إلا بتواضع"[2]، وقال الإمام علي عليه السلام: "التواضع زينة الحسب"[3]، وقال عليه السلام: "التواضع زكاة الشرف"[4].

باء: بين التواضع والصدق

كيف تتصل قيمة التواضع بكلمة الصدق التي هي شرف المؤمن، ومن أفضل العبادة؟

بالتأكيد ليس من التواضع أن يهين الإنسان نفسه، لأن الله سبحانه لم يسمح للمؤمن أن يذل نفسه. أو ليس الله قد أغناه بعبادته عن عبادة خلقه، وأكرمه بالسجود له دون السجود لما سواه؛ فكيف يرضى له بالتذلل لأحد غيره سبحانه؟!

وعلى هذا الأساس أمر ربنا سبحانه بالكفر بالطاغوت ولم يأمر بالتواضع له، لأن ذلك أساساً ليس تواضعاً، بل ضعة وهواناً. أو لم يقل ربنا سبحانه: ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَانفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾(البقرة/٢٥٦)

جيم: لمن التواضع؟

إنما يتواضع الكبير للصغير؛ النبي لأمته والوالد لولده، وعند حاجة الوالدين إلى الرحمة بعد كبر سنهما فالولد يخفض جناحه لهما، وهكذا..

١- بحار الأنوار، ج٧٠، ص٢٥٥.
٢- ميزان الحكمة، ج١٠، ص٥٠٠.
٣- المصدر.
٤- المصدر.

والمؤمنون يتواضعون لبعضهم، لأن كل واحد منهم راع، وكل راع مسؤول عن رعيته، وكل واحد منهم مستوصى بالآخرين، لكي لا يستكبر الغني منهم على الفقير، والقوي منهم على الضعيف، والحاكم منهم على المحكوم.

بلى؛ عندما يتواضع المؤمن لربه، فإنه يتواضع عن ذلة وعبودية. ولكن تجلي هذه الصفة ستكون في علاقة المؤمنين مع بعضهم، أو علاقة المؤمن بالناس الذين هم خلق الله.

دال: فوائد التواضع

وفي الأحاديث الشريفة تبيان لفوائد التواضع، نبين بعضاً منها: قال الإمام علي عليه السلام: "ثمرة التواضع المحبة، ثمرة الكبر المسبة"[١] وقال عليه السلام: "التواضع يكسبك السلامة"[٢]، وقال عليه السلام: "التواضع يكسوك المهابة"[٣]، وقال عليه السلام: "من تواضع لله، لم يسأم بدنه من طاعة الله"[٤]، وقال عليه السلام: "بخفض الجناح تنتظم الأمور"[٥]..

٦- النصح في القول والعمل

ما هي النصيحة، وما هي مصاديقها وحقائقها، وكيف تتصل بحقيقة الايمان، وما هي مسؤولية الناصح ومسؤولية من ينصحه؟

أبرز حقائق النصحية في الكتاب اثنتان؛ الأولى: ابلاغ رسالات الله بأمانة. الثانية: الاخلاص لله وللرسول في القول والفعل.

وإذا كانت الحقيقة الأولى للنصيحة تأتي من قبل رسل الله، فان الحقيقة الثانية تعتبر بمثابة استجابة لها من قبل المؤمنين الصادقين.

١- ميزان الحكمة، ج١٠، ص٥٠٨.
٢- المصدر.
٣- المصدر.
٤- المصدر.
٥- المصدر.

وتتسع كلمة النصيحة لتشمل الصدق في ابلاغ الخبر، لاسيما عندما يكون الخبر غير مريح لمن يبلغ، كما إذا انذره بخطر قريب، أو أهدى إليه عيبه ونصحه بالاجتناب منه. كما تشمل النصيحة الصدق في التعامل مع الاصدقاء واستفراغ الجهد لتحقيق أهدافهم في غيبتهم، وهي المناصحة.

٧- صفوة الفضائل

وصفوة الفضائل التي ينبغي للانسان المؤمن أن يتحلى بها، نجدها في كلمة جامعة لأمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، في وصفه للمتقين، مروية في كتاب نهج البلاغة، خطبة رقم١٩٣، وهي خير سبيل للوصول إلى قمة الفضائل، التي هي زينة الانسان.